

أدبيات

العربية

قبل الإسلام

ووجهها
الحضاري
والاجتماعي

الأب جرجس داود داود

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

م **ع**
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع امير امة - بناية سلام

هاتف ٨٠٢٤٢٨٠ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦

بيروت - القصية - بناية طاهر - هاتف ٣١١٣١٠ - ٣١١٠٣٠

ص ب ٦٣١١ / ١١٣ تليكس: ٢٠٦٦٥ L.E - ٢٠٦٨٠ لبنان

الأب جرجس داود داود

أدبيات العرب قبل الإسلام

ووجهها الحضاري والاجتماعي

الفهرس

مقدمة.....	9
خارطة مكانية عامة (بلاد العرب الجاهليين) لما قبل الاسلام	10
الباب الاول : موجز في جغرافية العرب الجاهليين وتاريخهم	15
الفصل الاول : الجزيرة حلقه اتصال بين الثقافتين القديمتين مصر وبابل	17
الفصل الثاني : صلة قدامى العرب بالعبيرانيين	25
الفصل الثالث : صلة قدامى العرب بالشعوب المجاورة	37
1 - بالسوماريين والبابليين	37
2 - بالاشوريين	40
3 - بالكلدانيين	44
4 - بالفرس	48
5 - بالاحباش	53
6 - بالرومان	63
7 - باليونان	67
الفصل الرابع : العرب والنصرانية	73
الفصل الخامس : دول نشأت في شبه جزيرة العرب ما قبل الاسلام	89
1 - السبثيون	89
2 - حملة حضر موت	92

3	- دولة قتيبان	94
4	- الدولة المعنية	96
5	- دولة حمير	99
6	- مملكة حيان	101
7	- مملكة ديدان	104
8	- مملكة النبط	104
9	- دولة تدمر	104
10	- مملكة كندة	110
11	- مملكة الحيرة	114
12	- مملكة الغساسنة	125
الفصل السادس : التراث الديني والاجتماعي لهذه الشعوب 131		
الباب الثاني : عبدة الله		
الفصل الاول :		
1	- تعريف الدين	157
2	- معنى الجاهلية	160
3	- كلمة عرب في معناها الاصطلاحي واللغوي	166
4	- فكرة الخالق والخلق	169
5	- اسم الجلالة	173
6	- ايمان العرب في الجاهلية	185
7	- التوحيد والشرك	191
الفصل الثاني : الخنيفية		
1	- ابراهيم الخليل	196
2	- اسماعيل وهاجر	197
		205

207	3 - بناء البيت
209	4 - الحج ومراسمه
220	الفصل الثالث : اليهود
245	الفصل الرابع : النصارى العرب
245	1 - التنظيم الديني
274	2 - اثر النصرانية في عرب الجاهلية
287	الباب الثالث : الوثنيون عبدة الاصنام والاولثان
289	الفصل الاول : تعريف ، صنم ، وثن ، نصب
294	الفصل الثاني : اصنام العرب وأوثانهم وانصابهم
299	الفصل الثالث : اشهر الآلهة عند العرب
	الفصل الرابع : آلهة الاماكن ، ذوالشرى ، ذوالخلصة ، ذوالكفين
306	وذو الرجل ، ود
311	الفصل الخامس : آلهة اخرى مختلفة
329	الباب الرابع : عبادة النجوم
331	الفصل الاول : الصابئة - معرفة العرب والنجوم
337	الفصل الثاني : الزهرة - الشمس - القمر - الدهران - الثريا -
	الشعريان
343	الباب الخامس : عبادات العرب الاخرى
345	الفصل الاول : تقديس الانسان والحيوان والنبات
352	الفصل الثاني : عبادة الجن والملائكة
377	الفصل الثالث : معتقدات اخرى
385	فهرس المصادر والمراجع

مقدمة

لا أنسى .. منذ ثلاث سنوات .. تلك المقابلة مع استاذنا الجليل ، الدكتور نقولا زيادة ، حين جثت ألتمس موافقته على موضوعي في أديان سكان شبه جزيرة العرب في ما قبل الاسلام ، ووجهها الحضاري والاجتماعي ، وكنت حينذاك أشتعل شغفاً للبحث فيه وانجازه في مدة سنة .

« سنة ، أجباني المشرف الخبير ، لا تكفي ، فالموضوع شائك ، والبحث يستلزم ويتطلب جهوداً من المطالعات والدراسات ، وهذا لا يحدث في نهار وليلة ، بل يستغرق سنوات ، كي يختمر عجين المادة في ذهنك فتتمكن من الاستيعاب والاخراج في اطروحة معتبرة » .

وعندما خضت البحث ، بدت لي وعورة المسالك ، وخاصة وأنا أعيش بحكم عملي ، في قرية ريفية نائية ، من شمال لبنان ، بعيدة عن بيروت مركز الجامعة ، ومستقر الاستاذ المشرف ، فالمواصلات ، بمختلف وسائلها ، تكاد تكون منعدمة ، بسبب الظروف القاهرة التي يعيشها الوطن ، مما اضطرني أن اقتني كل المصادر التي أنا بحاجة إليها ، وإن كان ذلك على حساب لقمة العيش لأطفالي الستة الصغار .

ولكن هذه المصادر لم تمدني بأكثر من نتف متشتتة هنا وهناك في متونها ، وقد ترد مادة بحثي في مصنفات عديدة ، منها الدينية ، ومنها الأدبية والتاريخية ونحوها .

وكنيت كلما رسمت لي منهجاً أسلكه في تصنيف بحثي ، اعترضتني ناحية جديدة ، فاعاود الكرة ، مسترشداً توجيهات استاذي الكريم ، الذي

غمرني بعناية فائقة ، ومستلهاً نصائح الشيخ الجليل ، الدكتور صبحي الصالح ، مدير كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ، اللذين شجعاني على المضي في العمل ، والصبر على عنائه ، فشقت المسلك الوعر وبقيني أن أدب كل أمة هو المرأة التي تعكس صورة هذه الأمة فتظهر محاسنها ومساوئها ، فانكبت على أدب عصر ما قبل الاسلام ، وخاصة الشعر منه عساني ألمس ، ويلمس معي القارئ ، ايمان أولئك القوم ، وانعكاس هذا الايمان على تصرفات الناس . . .

لقد اتضح لي ، وأنا أو من ، أنه لا غنى للإنسان ، قديماً وحديثاً ، عن دين ينير ظلام نفسه ، ويهدي نفور قلبه إلى سبل الخير ، ويثير طاقاته وقواه لتنشط في الحق ، لقد اتضح لي من كتب الأدب والتاريخ ، والسير والأخبار ، أن العرب احتكوا بغيرهم من الشعوب ، واخذوا عنهم الكثير وخاصة طرق العبادة والايمان برب السماء (1) و« أرباب الأرض » (2) . وقد رأيت وأنا أتصفح الكتب السماوية ، التوراة والإنجيل والقرآن ، ولمست ، بذور عبادات إلهية سماوية ، من حنيفية ويهودية ونصرانية ، كما لمست وأنا أقلب صفحات الشعر لشعراء ما قبل الاسلام ، أن العرب في تلك الحقبة ، إلى جانب ايمانهم بالله ، قد آمنوا أيضاً بالعبادات الصنمية الوثنية ، وآمنوا بالخرافات والطلاس ، والسحر والجان والطيرة . . . والرقى ، مما أوحى لي : أنهم شعب كبقية الشعوب القديمة ، تدرجوا في عباداتهم من الايمان بما حولهم من حسيات وما أدركوه بحكم البساطة والسذاجة أنه مصدر خير أو شر ، أو سمعوه فتمثلوه في الخيال وعزّوه إلى قوى الطبيعة ،

(1) كالأحناف واليهود والنصارى وسرى ذلك في متن الكتاب .

(2) أي الأصنام والأوثان والأنصاب . راجع فيما بعد علاقة العرب بباقي شعوب المنطقة .

« فَوَيْسُوه وَصَنُّمُوهُ » (١) . ومن ثم عرفوا الله الخالق والمبدع كل الموجودات ، فاتجهوا ناحيته ، إلى أن شق لهم غشاوة الظلام الرسول العربي ﷺ بقرآنه المبين ، فآمن الوثنيون والمشركون برب العالمين .

لقد عرضت ببخشي هذا إلى أديان الجاهليين ، وقسمت البحث إلى خمسة ابواب . عالجت في الباب الأول موقع بلاد العرب ، وما لهذا الموقع من أثر في علاقة عرب ما قبل الاسلام بباقي الشعوب المجاورة من مصريين وبابليين و فرس واحباش ورومان ويونان . كما أوجزت تاريخ ممالك العرب ودولهم في الجنوب والشمال وأتيت ببعض تراث هذه الدول ، الديني ، كشواهد لتلك العلاقات الانسانية .

أما الباب الثاني فقد أفردته لـ « عبدة الله » من الجاهليين وأماكن تواجدهم وطرق عباداتهم وأثرهم في عرب الجاهلية .

والباب الثالث تطرقت فيه إلى الوثنيين منهم وحاولت جهدي جمع أسماء
اصنامهم واثانهم وكيفية عبادتها وطرق التقرب إليها .

والباب الرابع كان محط رحل عبّاد النجوم والصابئة . ولم أنس عبادات العرب الأخرى وقد جمعت شتاتها من ثنایا كتب الدين والأدب فاستكشفت خفايا الأرواح وما تشمله من ملائكة وجن وبيّنت مواطنها وأصنافها من غيلان وسعالى وما اعتقده الجاهليون فيها وأفردت لذلك الباب الخامس .

لقد حاولت أن أنهض بهذا العبء ، وأنا عالم ثقله ، فإن كثيراً من
معالم تلك الأديان لا يزال يغمرها غير قليل من الظلام ، إما لقلة ما بين أيدينا
من ذلك التراث ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروب مناجها كشفاً كافياً .

(1) جعلوه وثناً وصناً .

ومعنى ذلك أن هذا البحث في أديان الجاهليين ، لا أزعـم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة والحقيقية لإيمان عرب الجاهلية ، وإنما اعترف أنها الصورة التي استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد وتحريـت من دقة . ففي الحقيقة ، إن بحثاً من هذا النوع واسع جداً ، سعة أرض شبه جزيرة العرب ، ومسلكه وعـر ، وعورة مسالك بـيـدائـها ، ولا بُد أن يُستوفى بالاستقصاء والتحليل ، ليأتي دراسة موضوعية تضم عدة مجلدات تحيط بهذا الموضوع وتوفيه حقّه من التمهـيـص . وهذا البحث المتواضع أصغر من أن يتضمن بمحتواه سفر اديان الجاهليين . . . إنه اطلالة سريعة على وجود الأديان وتنوعها خلال تلك المرحلة . . . إنه كوة صغيرة تفتح الباب لباب أوسع في المستقبل .

وأخيراً فإنني اعترف ، انني قد حاولت أن أجعل من بحثي هذا بناء متكامل الأطراف ، بدعاماته وأعمدته الضخمة ونقوشه البارزة ، وبواباته الشائخة ، وربما أغنى هذا البناء بعض المشاهدين عن رؤية ذريـرات الرمل والحصى التي تكمل البناء فصرفوا النظر عن هذه واكتفوا بتلك ، وهذا ما لا أطمع إليه ، لأنه يجب أن لا يكتفي المرء بما يبين للعين ، فالخفي عنها في أكثر الأحيان هو الأهم والأكبر ، وهو الأصل والحقيقة . . . وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

الله أسأل أن يلهمني السداد في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي إن أدت ما ابتغي بـرجاء النفع الدائم .

والله ولي التوفيق .

المؤلف

شبه جزيرة العرب



الباب الأول

**موجز في جغرافية العرب
الجاهليين وتاريخهم**

الفصل الأول :

الجزيرة حلقة اتصال بين الثقافتين القديمتين مصر وبابل

إن بلاد العرب شبه جزيرة في الجنوب الغربي من قارة آسيا ، تحيط المياه بها ، مياه البحر الأحمر ، وبحر العرب ، والخليج العربي ، من جهاتها الثلاث : الشرق والجنوب والغرب .

وتتداخل في شبه هذه الجزيرة بادية الشام حتى الفرات شرقاً ، وأرض الحضر في بلاد الشام غرباً ، كما تتداخل فيها بادية فلسطين وطور سيناء الى مراع النيل (1) .

إن سطح شبه الجزيرة ينحدر تدريجياً من الغرب ونحو الخليج العربي . وأعلى جبالها السراة يقع ضمن سلسلة تحاذي الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وتنحدر هذه الجبال الى جهة الغرب بشكل فجائي وقصير المدى (2) . وإلى الشرق من هذه الجبال تطل علينا هضاب نجد ثم الصحاري والدارات (3) . ونستطيع تمييز ثلاث مناطق من الصحاري :

(1) جواد علي المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام . دار العلم / بيروت / الطبعة (2) 1978 . ج 1 / ص 35

(2) فيليب حتي : تاريخ العرب . دار غندير . الطبعة (5) 1974 ص 41

(3) الدارات : سهول رملية مستديرة بين التلال .

أولاً : النفود : وهي قفار متسعة ذات رمال بيضاء أو حمراء تسفيها الرياح فتجعل منها كثباناً تغطي جزءاً كبيراً من شمال شبه الجزيرة وكثيراً ما تُعرف النفود بالبادية وأحياناً بالدهناء^(١) .

ثانياً الدهناء : مما سبق من التعريف تبين أن الدهناء هي النفود والعكس صحيح . أما موقع الدهناء فهي على ملامسة من النفود شمالاً والربع الخالي جنوباً^(٢) .

ثالثاً : الحرات : وهي بقاع من الحجارة الرملية تعلوها الحمم والبراكين القديمة ، وتكثر في أرض الجزيرة الغربية والوسطى^(٣) .

ولقد نقل ياقوت الحموي عن « أبي المنذر هشام ، بن السائب ، عن ابن عباس » : أن العرب سمت بلادها جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها^(٤) . كما ينقل وعن نفس المصدر أن هذه الجزيرة التي نزلها العرب وأقاموا بين ظهرانيتها وتوالدوا فيها ، تقسم إلى خمسة أقسام في أشعار العرب وأخبارهم وهي : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن^(٥) . يقول أحد المعمرين يحدد طول الجزيرة :

لم يبق يا خدلة من لداتي أبو بنين ، لا ولا بنات
من مسقط الشحر إلى الفرات إلا يعدُّ اليوم في الأموات
هل مُشتر أبيعه حياتي^(٦)

(١) حتي ص ٤١

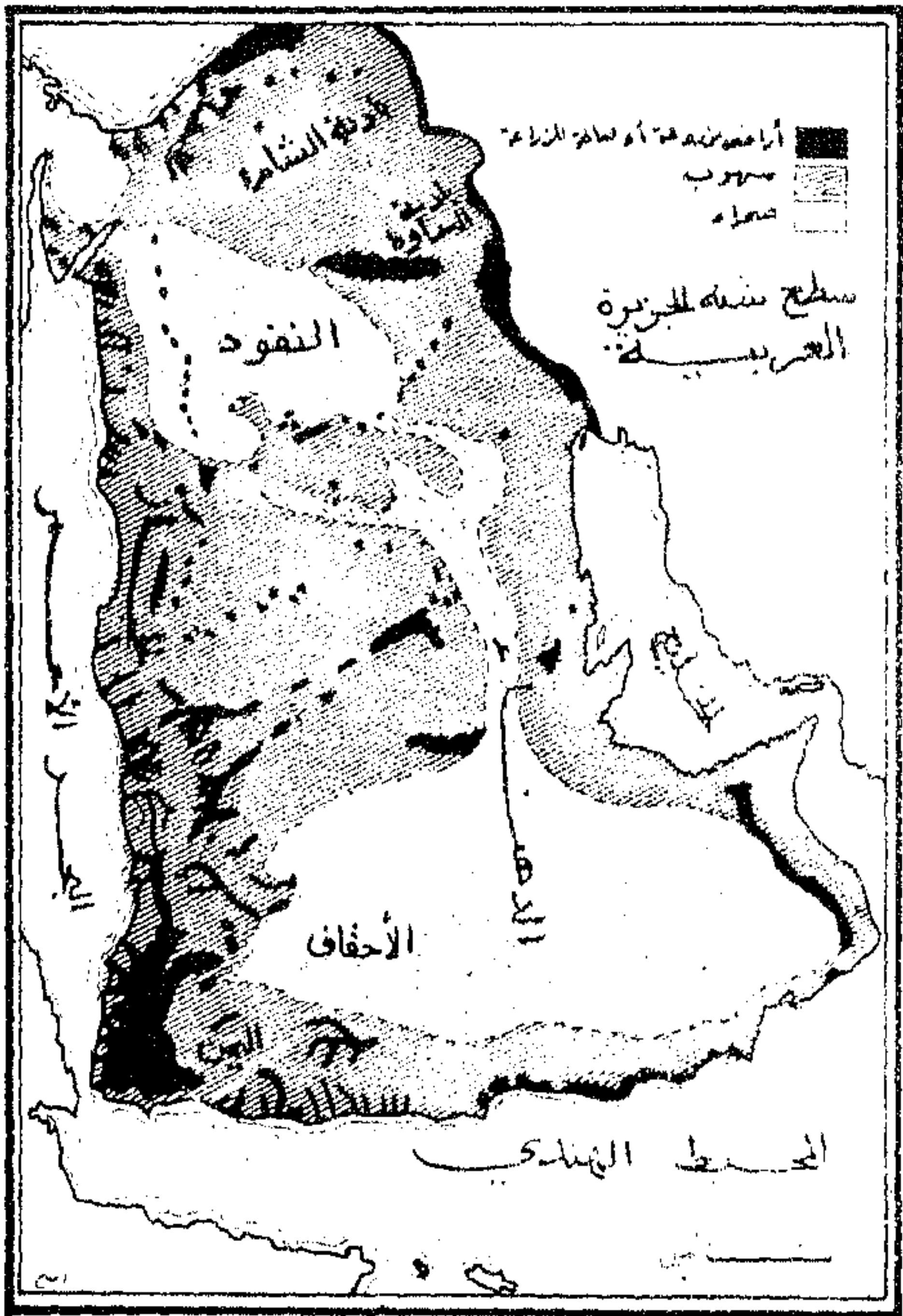
(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر ص ٤٣

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان . دار صادر ٢ / ١٣٧ .

(٥) نفس المصدر

(٦) نفس المصدر ٢ / ١٣٨



خارطة رقم (1)

(1) حني ص 42

فبلاد العرب ، وهذا سطحها وأكثره صحارى يعجّ بالرمال ، هي من أشد بلاد العالم جفافاً وحرّاً على الرغم من إحاطة المياه بها إحاطة السوار بالمعصم تقريباً ، فلا تهطل الأمطار إلا على أطرافها الجنوبية والغربية وخاصة على جبال وهضاب (مَهْرَة)⁽¹⁾ ، حيث تنمو الأشجار وأهمها (اللبان) ، الذي كان نواة التجارة العربية الجنوبية . أما المناطق الداخلية فنادر ما ترى المطر الذي اعتبره العربي رحمة من الله ، فسماه الغيث أي الرحمة والنصرة⁽²⁾ . . . وإذا ما سقط سارعت القبائل إلى مكان سقوطه حيث ينبت الكلاً لمواشيها ، مما سبب في ظعن العربي الدائم وعدم استقراره .

وفي مفهوم هذه الملامح السريعة لأرض العرب وبالنظر إلى خريطة المنطقة ووقوع أرض العرب ما بين (مصر وبابل) مهد الحضارات ، وعدم وجود العوائق الطبيعية الحقيقية التي تحد من سبل الاتصال بين حضارات العالم القديم وسكان أرض العرب ، نرى بوضوح كيف كانت شبه جزيرة العرب حلقة اتصال دائم بين شعوب العالم القديم . وإذا جاز لنا أن نضم ثلاث دول نشأت في أطراف الجزيرة العربية الشمالية الشرقية وهي : بابل القديمة ، دولة الأكديين ، وأشور وبابل الحديثة (دولة الكلدانيين) ، تحت اسم واحد هو بابل نستطيع القول عند ذاك أن بلاد العرب كانت عقدة تربط بين مركزي الثقافة القديمة (مصر وبابل)⁽³⁾ . فمن وادي الرافدين حيث حضارة بابل نجد طريقين بريتين توصلان إلى آسية الصغرى وإلى المنطقة السورية ومن المنطقة السورية تمتد طريق برية ساحلية إلى مصر ، بينما تخترق شبه الجزيرة العربية عدة طرق ، إحداها من اليمن إلى سوريا عن طريق

(1) حتي ص 45

(2) نفس المصدر ص 44

(3) انظر فيما يلي من فصول صلة قدامى العرب بالبابليين والآشوريين والكلدانيين . انظر خارطة رقم (2) بعد صفتين .

مكة ، وأخرى من اليمن الى وادي الرافدين عن طريق نجد والمنطقة الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة ، وثالثة بين اليمن والمنطقة الشرقية وهكذا⁽¹⁾ . وقد ظهرت آثار هذا الاتصال بشكل واضح سواء من حيث التأثيرات الفنية والأدبية والفكرية والدينية ، أو من حيث العلاقات السياسية والنزاعات العسكرية⁽²⁾ . على أن ثقافة أهل الجزيرة وإن كانت محلية شبه صرفة ، فقد حاكت الثقافات في وادي النيل وما بين النهرين⁽³⁾ . لقد تأثر عرب الجاهلية بقدماء المصريين ، ومن البديهي أن يحصل ذلك من جراء التماس بين أرض مصر وشبه جزيرة سيناء⁽⁴⁾ حيث يمر خط بري ، وجنوباً حيث تقرب الجزيرة من افريقيا عند باب المندب⁽⁵⁾ لقد اهتم المصريون القدامى بشبه جزيرة العرب لما فيها من لبان ونحاس وفيروز .

إن بدو سيناء ، على ما يبدو ، قد سلكوا الطريق التي تربط سوريا بمصر ، وباعوا النحاس ، والفيروز في أسواق الفراعنة⁽⁶⁾ .

إن هناك أدلة تاريخية تثبت وجود اتصال بين المصريين القدامى والعرب ، فقد عثر العالم « بيري » على قطعة من العاج في ضريح ملكي للسلالة الفرعونية الأولى نُحت عليها رسم رجل سامي ، مكتوب على الرسم « آسيوي »⁽⁷⁾ . وإن أول مصري يجوب بلاد العرب ، ويُبقى لنا أثراً ينسب

(1) لطفي عبد الوهاب محيى . العرب في العصور القديمة . دار النهضة العربية . / بيروت / 1979 الطبعة الثانية . ص 29 انظر خارطة رقم (3) الصفحة التالية .

(2) نفس المصدر .

(3) حتي ص 60

(4) عدها بعضهم امتداداً طبيعياً لشبه جزيرة العرب . حتي ص 62

(5) نفس المصدر .

(6) نفس المصدر .

(7) نفس المصدر . ويرجع حتي أنه عربي .



نخارطة رقم (2)

23

عن رحلته ، هو « سنوهي » الذي ظهر (1970- 2000 ق . م) وأشار إلى نفسه بلقب « ملك بين البدو »⁽¹⁾ .

وإلى جانب المعادن التي جذبت المصريين إلى سيناء ، كان هناك البخور الذي يستخرجونه من شجر « اللبان » حيث ينمو بكثرة في جنوبي شبه الجزيرة . وقد كان المصريون بعد حصولهم على البخور من التجار العرب « يحرقونه في هياكلهم ويستعملونه في تحنيط موتاهم »⁽²⁾ .

أما البابليون فلم يتركوا المصريين يستقلون بالمصالح التجارية في أرض العرب ، فقد نازعواهم في تجارة المعادن والبخور وسوف نرى في فصول لاحقة سبل هذه المنازعات وتأثيرها في عرب الجاهلية .

(1) نفس المصدر عن 1- 490. Ancient Records of Egypt.

(2) حتي ص 63

الفصل الثاني

صلة قدامى العرب بالعبرانيين

إن العبرانيين هم أحد فروع الشجرة السامية ، ويُنسبون إلى عابر أحد أجداد إبراهيم⁽¹⁾ سجّل تاريخهم القديم الكتاب المقدس مبتدئاً بإبراهيم ، أبرام أيضاً في التوراة : ومعناه الأب الرفيع والأب المتكرم وأبو جمهور⁽²⁾ ، الذي تزوج سارة اخته بنت أبيه⁽³⁾ ، وخرج مع أبيه تارح وزوجته سارة وابن أخيه لوط من أور الكلدان ليذهبوا إلى أرض كنعان⁽⁴⁾ . وسكنوا بادية ذي بدء في (حاران) حيث مات تارح⁽⁵⁾ ، ثم انتقلوا إلى أرض الكنعانيين⁽⁶⁾ ، إن للعبرانيين صلات قديمة بالعرب إذ ينتسب كلاهما إلى جد واحد هو (عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح)⁽⁷⁾ ، فعابر ولد ولدين هما فالج ويقطان ومن فالج خرج أبرام ، ومن يقطان تفرعت ثلاث عشرة قبيلة عربية⁽⁸⁾ وربما

(1) تك 11: 14 وما بعد : أبرام بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح .

(2) تك 17: 5

(3) تك 20: 12

(4) تك 11: 27 وأعمال 2: 4

(5) تك 11: 31

(6) تك 12: 1

(7) تك 10: 25

(8) تك 10: 25-30 و 1 أخبار 1: 19-23 والجمهرة ص 7 و 329

كان يقطان هذا هو قحطان الذي يسميه النسابون العرب أبا يعرب^(١) . ومن يتفحص الكتاب المقدس يشعر بأن أصل العبرانيين من الصحراء^(٢) موطن العرب . .

لقد هاجر ابراهيم من أور الكلدانيين (في العراق اليوم)^(٣) مع من ذكرنا أنفا بعد أن أدرك بالوحي والالهام وجود إله أبدي خالق السماوات والأرض وسيدها^(٤) ، وأمن به مخالفاً ديانة « أور » الوثنية ، حيث كانت مركزاً لعبادة القمر وكان تارح أبوه يخدم الهة أور^(٥) ، هاجر إلى أرض كنعان ليتسنى له عبادة إلهه .

ولم يستقر إبراهيم في مكان معين ، فاقام أولاً في شكيم ، ثم في بيت إيل ، ومن هناك ارتحل إلى أرض الجنوب التي أصابها الجذب والجوع فهاجر إلى مصر ، ثم عاد ثانية إلى فلسطين ليستقر عند بلوطات بمرا^(٦) . ورزق ابراهيم أبناء كثيرين ، اسماعيل أبا العرب ، من زوجته هاجر المصرية^(٧) وإسحق من سارة^(٨) الذي ختنه بادئاً بهذا العمل العهد مع الله إلهه^(٩) .

وبعد موت سارة أخذ ابراهيم زوجة اسمها قطورة فولدت له : زمران ويقشان وفدان ومّدان ويشباق وشوحاً^(١٠) ، وسكن مدين وذريته من بعده

(1) جهرة أنساب العرب ص 329 دار المعارف . تعريب عبد السلام هارون . الطبعة (١٩٤٠)

(2) هوشع : ١٠ : ٩ - أرميا : ٢ : ٢٢ تثنية ١٠ : ١٢

(3) قاموس الكتاب المقدس ص 596

(4) تك ١٨ : ١٩

(5) يش : ٢٤ : ٢

(6) قاموس الكتاب المقدس ص ١٠

(7) تك ١٦

(8) تك ١٧

(9) تك ١ : ٢١ - ٨

(10) تك : ١ : ٢٥ - ٥ و ١ أخبار أيام ١ : ٣٢

« المديانيون » ، سكنوا أرضاً كانت تمتد من خليج العقبة الى مواب وطور سيناء ، وكانوا يتاجرون مع فلسطين ولبنان ومصر ، وقد كانوا في رفقة الاسماعيليين لما بيع يوسف^(١) ، فسميت هذه الأرض باسمهم ، وقد سكنها الاسماعيليون كما سكنها موسى فيما بعد^(٢) وتزوج ابنة كاهن مدين^(٣) ويقول ياقوت عن مدين هذه : إنها اسم لقبيلة ، وهي أيضاً مدينة محاذية لتبوك وقد سُميت باسم مدين بن ابراهيم^(٤) وبهذه المدينة استقى موسى الماء لبنات شعيب . وقد ذكر القرآن الكريم مدين وشعباً هذا في أكثر من موضع^(٥) وقال كثير فيها :

رُهَبَان مَدِين وَالَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعِقَابِ قُعوداً
وقال أيضاً :

رُهَبَان مَدِين لَوْ رَأَوْكَ تَنَزَّلُوا وَالْعَصَمُ فِي شَعْفِ الْجَبَالِ الْعَادِرِ^(٦)

والذي يتتبع أخبار التوراة يجد أن اسماعيل وأبناءه « نبيوت بكره وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشعاع ودومة ومسّا وحدار وتيا ويطور وناقيش وقدمة »^(٧) قد أقاموا في مناطق^(٨) لا تزال تعتبر من صميم أرض الجزيرة العربية ، ولم يكونوا بعيدين عن انساباتهم وأولاد أبيهم ابراهيم من زوجته سارة وقطورة .

(1) تك 37: 28

(2) خروج : 2: 15-22 وعدد 10: 29

(3) خروج : 2: 15-22

(4) معجم البلدان 5 / 77 صادر

(5) : الأعراف 7 / 85 والتوبة 9 / 70 وهودا 11 / 84، 95 والمصص : 28 / 22

(6) معجم البلدان : 5 / 78

(7) تك 25: 12

(8) تك 25: 18 (1) صموئيل 18: 15

إن الله ينادي إبراهيم قائلاً : « إنه باسحق يدعى لك نسلٌ . وابن الأمة (هاجر) أيضاً أجعله أمةً فإنه نسلك »^(١) . وبقيت أواصر القربى تشدهم إلى بعض فيتزوج « عيسو » ابن اسحق « محلة » بنت اسماعيل بن إبراهيم اخت نبايوت^(٢) . ولقد كان بين الأوس سكان المدينة قوم يُقال لهم « النبيت » ربما يعودون بنسبهم إلى نبايوت بكر اسماعيل كما أن الكثيرين يرجعون الأنباط مؤسسي مملكة النبط^(٣) ، إلى نبايوت والشاعر قيس بن الخطيم يفتخر بالنبيت هؤلاء فيقول :

ويثربُ تعلمُ أنَّ النبيَّ ت راسِ يثربِ ميزانها^(٤)
ويقول أيضاً :

وقد علموا أنَّ ما فلهم حديدُ النبيت وأعيانها^(٥)
ويقول أيضاً :

فلا أعرفنكم بعد عزٍّ وثروة يُقالُ : ألا تلك النبيتُ عساكر^(٦)

إن الطبري ينص على أن العرب هم من « نابت وقيدر »^(٧) وربما يكون الطبري قد تأثر بأهل الأخبار الذين استقوا أكثر أخبارهم من قصاصي أهل الكتاب وخاصة اليهود الذين يذكرون دائماً الابن البكر صاحب الميراث والبركة من أبيه^(٨) .

(١) تك ١٣: ٢١

(٢) تك ٩: ٢٨

(٣) راجع مملكة النبط فيما بعد

(٤) الديوان ص ٧٢

(٥) الديوان ص ٧٣

(٦) الديوان ص ٢٠٩

(٧) محمد بن حرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك . الطبعة الثانية : دار المعارف - مصر - ١ / ٣١٤

(٨) تك ١: ٢٧ وما بعدها .

إن الكتاب المقدس يذكر « القيداريين » فهم والعرب يتجرون مع صور بالحميلان والكباش والتيوس⁽¹⁾ . وهم أهل أخبية و غنم وابل يسكنون في العزلة⁽²⁾ . وقد غزاهم « نبوكد نصر » ملك بابل⁽³⁾ . لقد امتدت سلطة قي دار من شرقي الأردن الى حدود مصر وقد وُجد وعاء من فضة ، في وادي طوميلات في مصر ، نقش عليه بالحروف الأرامية ما يلي : « قينو ابن جشم ملك قي دار »⁽⁴⁾ وجشم هذا ذكره نحميا⁽⁵⁾ . ويرجح الدكتور فيليب حتي أن الفتاة الشولمية التي خلد جملها نشيد سليمان⁽⁶⁾ ، كانت اعرابية من قبيلة قي دار⁽⁷⁾ ويقول النسابون أن قي دار هو جد عدنان جد عرب الشمال⁽⁸⁾ . وقد جاء في « جمهرة أنساب العرب » أن عدنان من ولد اسماعيل بلا شك في ذلك⁽⁹⁾ ، وقد ورد اسم اسماعيل في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً⁽¹⁰⁾ . تارة مع أبيه ابراهيم وطوراً مع أبيه وأخيه اسحق وابن أخيه يعقوب . وقد جاء في القرآن الكريم أيضاً أن ابراهيم واسماعيل وضعا أسس البيت « الكعبة » بقوله : « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل »⁽¹¹⁾ .

(1) حزقيال 27: 21

(2) ارمياء 28: 49 و 31

(3) نفس المصدر

(4) قاموس الكتاب المقدس 751

(5) نحميا 19: 2 و 6: 1-2

(6) نشيد الأناشيد 1: 7 و 5: 1

(7) تاريخ العرب حتي ص 73

(8) الأعلام 1: 307 دار العلم

(9) الجمهرة : ص 7

(10) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص 34

(11) البقرة 2 / 127

مما تقدم يتبين لنا أن العرب والعبرانيين كانوا ذوي رحم فتختلف هنا العلاقة والصلة فيما بينهم عما كانت عليه بين العرب وبقية شعوب العالم القديم كالفرس والأحباش والرومان واليونان .

لقد كان العبرانيون كالأعراب في بدء حياتهم التاريخية ، اللهم إن لم نقل أكثرهم أعراباً ، أصحاب ضأن ومعز يتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للهاء والكلاء . ولقد كان أبناء يعقوب يرعون ماشية أبيهم عندما باعوا أخاهم الصغير « يوسف » لأنسبائهم في النسب المديانيين والاسماعيليين ، غيرة منه ، فحمله هؤلاء إلى مصر ، ومن ثم تبعه اخوته وأبوه زمن سني القحط⁽¹⁾ ولم تنقطع علاقة العبرانيين وهم بمصر بأبناء بجدتهم العرب فعندما اشتد الاضطهاد عليهم من فرعون حاكم مصر هرب موسى والتجأ إلى كاهن مدين وأقام عنده وتزوج صفورة ابنته⁽²⁾ . ورعى غنمه فساقتها إلى ما وراء البرية حتى أفضى إلى جبل حوريب ليسمع نداء الرب إلهه وإله أبيه ابراهيم⁽³⁾ . يأمره بالرجوع إلى مصر لانقاذ أبناء شعبه .

وعرجت قبائل العبرانيين فيما يبدو على سيناء والنفود ، وتاهت فيها أربعين عاماً ، أثناء خروجها من مصر⁽⁴⁾ . ومن على جبل حوريب ذاته أعطى الرب الإله الوصايا العشر إلى موسى⁽⁵⁾ . ويموت موسى في التيه على مرأى من أرض الميعاد وقبل أن يدخلها فيتسلم قيادة الشعب يشوع بن نون⁽⁶⁾ ويعبر

(1) تك 37 / 27 وما بعد و 42 / 1 وما بعد و 47 / 1 وما بعد .

(2) خروج : 12 / 15 - 22

(3) خروج 3 / 1 وما بعدها .

(4) خروج 16 : 35 انظر الطريق التي سلكوها على الخريطة رقم (4) .

(5) خروج 2 : 1 و 24 : 8

(6) يشوع 1 : 10 و 11

الأردن الى أرض الميعاد ويقسم الأرض على الأسباط . وظهر بعده القضاة وعددهم أربعة عشر قاضياً آخرهم وأعظمهم صموئيل الذي نصب شاوول أول ملك على العبرانيين فنظم هذا الملك شؤون دولته التي اتسعت في عهده وعهد داود وسليمان . ويقول الدكتور حتي : كان أسطول سليمان يرسو في خليج العقبة⁽¹⁾ ، كما يُرجَّح أن « أوفير » التي أبحرت إليها سفن سليمان وأحيرام طلباً للذهب والحجارة الكريمة وخشب الصندل⁽²⁾ ، هي ظفار من أعمال عمان⁽³⁾ . لقد طبقت شهرة سليمان الحكيم الآفاق وسمعت بها ملكة سبأ فقدمت اليه لتختبره وهي تحمل له الهدايا على جمال موقرة من ذهب وأطياب وحجارة كريمة⁽⁴⁾ . ومن قراءتنا لهذا الفصل من الكتاب المقدس نرجح أن ملكة سبأ هذه ملكة عربية أتت من الجنوب على الجمال . وقد اشتهر الجنوب وخاصة اليمن بالذهب والطيوب . وهذا ما يوافق قول القرآن الكريم ﴿ أَحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين ﴾⁽⁵⁾ ، وأيضاً : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾⁽⁶⁾ .

ومن أمثلة اتساع مملكة العبرانيين على زمن سليمان إنشاء هذا الملك اسطولا بحرياً في عصيون جابر التي بجانب (ايلات) على خليج العقبة في أرض أدوم⁽⁷⁾ . فمخر البحر ووصل الى أوفير التي يُرجَّح أنها ظفار التي في بلاد العرب .

(1) تاريخ العرب 71 حتي .

(2) 1 ملوك 9: 27 و 10: 11 و 2 أخبار 9: 10

(3) حتي 71

(4) 1 ملوك 10: 1 وما بعدها . و 2 أخبار 9: 10 وما بعدها

(5) النمل 27: 22

(6) سبأ 34: 15

(7) 1 ملوك 9: 26

لقد كان ملوك العرب على اتصال بسليمان وقد وصف الكتاب المقدس هدايا سليمان من الذهب في سنة واحدة بـ 660 وزنة تأتيه منهم ومن التجار (1) .

ومن أمثلة هذه العلاقات الطيبة والحميمة بين العبرانيين والعرب نرى داود النبي والملك يجعل أحد قواد جيشه أوبيل العرباتي (2) والقيّم على جماله أوبيل الاسماعيلي (3) ولم تنقطع هذه المودة فقد حمل العرب الهدايا الى يهوشافاط من بعد سليمان (4) ولكن هذه المودة تنقلب الى بغضاء على زمن يهورام فيهيج العرب الذين بجانب الكوشيين فيقتحمون مملكة يهوذا ويسبون أمواله ونساءه وبنيه إلا الابن الأصغر (5) وقتلوهم (6) . وعندما يملك عزيا ينتقم من الفلسطينيين والعرب بمساعدة الله (7) .

وكما هو معروف فقد انقسمت مملكة سليمان من بعده الى ولديه رحبعام ويربعام (مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب) * وضعفت الدولتان خطوة خطوة الى أن انهارت الشمالية وسُبي أهلها إلى آشور عام 721 ق . م وانهارت الجنوبية وسُبي أهلها إلى بابل على عهد نبوخذ نصر (8) . وعند السبي فرّ بعض اليهود الى بلاد العرب وأقاموا فيها متواترين حتى ظهور الاسلام والبعض الآخر عاد من السبي وكانت بينه وبين بعض العرب

(1) 1 ملوك 10: 15

(2) 1 أخبار 11: 32

(3) 1 أخبار 27: 30

(4) 2 أخبار أيام 17: 11

(5) 2 أخبار أيام 21: 16

(6) 2 أخبار أيام 22: 1

(7) 2 أخبار أيام 26: 6-8

(8) قاموس الكتاب المقدس 597

مراسلات^(١) إن دلت على شيء فإنما تدل على الصلة المتواصلة بين العبرانيين والعرب .

وما هو شائع وبديهي ، أنك لا تذكر انساناً ما أو شعباً ما إلا ولا عجب به أولمحة وكراهية له . وهذا ما نراه دائماً في الكتاب المقدس « العهد القديم » من سفره الأول (التكوين) وحتى آخر أسفاره (المكابيون) ، وقد ذكر العرب مراراً وتكراراً كما رأينا سابقاً وأيضاً في المكابيين^(٢) إذ يحاربهم رئيس المكابيين يهوذا فينتصرون عليه بمساعدتهم لرئيس العمونيين . ولا ينسى حواريو المسيح ، الذين كانوا على عهد للعبرانية قبل تنصرهم ، لم ينسوا العرب فذكروهم^(٣) في يوم الخميس . لقد تطرقت التوراة الى وصف العرب وسبل حياتهم وطرق معيشتهم وعاداتهم الاجتماعية^(٤) ، كما سميت بعض آلهتهم فدعته « نشرا » ولعلله نسر في لغة العرب وهو من أصنام العرب المعروفة فأين الكلبي يذكر أن حير تعبدت لنسر^(٥) فيقول : « واتخذت حير نسراً ، وهذا ما حدا بحمير أن تحول ودخول تبع إليها الذي يذكره القرآن فيقول : ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم﴾^(٦) . وأيضاً ﴿وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾^(٧) .

وقد اختلف العلماء على تفسير لفظة تبع الواردة في القرآن الكريم فقال بعضهم : إن تبع كان رجلاً صالحاً من العرب أراد دخول اليمن فحالت حير

(١) نحميا ٦: ١ وما بعدها .

(٢) مكابيون أول : ٥ : ٦ وما بعدها و ٣٤ وما بعدها .

(٣) اعمال ٩: ٢ وما بعدها .

(٤) حزقيال ٢٧ : ٢١ وما بعدها

(٥) الأصنام ص ١١ و ٥٧

(٦) الدخان ٤٤ : ٣٧

(٧) ق ٥٠ : ١٤

بينه وبين الدخول ، لأن دينه يخالف دينهم (عبادة الأصنام) . فقال : إن ديني خير من دينكم . قالوا : فحاكمنا إلى النار وكان معه حبران فغلب فتهودت حمير ، وهدم تبع بيت (رثام) وهو ما كانوا يعظمون وينحرون عنده (1) .

والتحاكم إلى النار تقليد معروف عند اليهود وقد قام به إيليا النبي الذي كان يقضي الكثير من وقته في البرية (2) والذي كان غاضباً على ايزابيل ملكة اسرائيل وزوجها اللذين قادا شعب اسرائيل الى عبادة البعل . وقد طلب هذا النبي من الملك أن يجمع الشعب الى جبل الكرمل وأن يحضر أنبياء البعل ومحرقة تقدم ويصلي عليها من قبل أنبياء البعل ومنه ومن تستجاب صلاته وتأتي نار من الله لتلتهم المحرقة فهو صاحب الحق وإلهه هو الاله المعبود (3) .

لقد سكن اليهود بلاد العرب من جراء تنقلهم المستمر كما رأينا ومن جراء تعرض دولتهم للسبي مرتين على عهد آشور وبابل وكذلك بعد خراب اورشليم عام 70 م على يد الرومان فتوغلوا حتى وصلوا تيماء ويشرب ومكة المكرمة ومن هناك في الحجاز إلى اليمن وغيرها من ممالك الجنوب . . ولحتمية تماسهم المستمر من جراء هذا التنقل بينهم والسكنى معهم ، لا بُدَّ أن يكونوا قد تركوا طابعاً دينياً وفكرياً عند العرب وتأثروا هم بدورهم بعادات العرب ومآثرهم . فها هو النبي أيوب يتحفظ بأنفس القريض وهو عربي لا يهودي بنظر فيليب حتي (4) ، الذي يرجح أن سفره قد وُضع أصلاً في اللغة العربية

(1) ج . علي 2 / 514 عن تفسير الطبري 25 / 77

(2) ملوك 17 : 5

(3) قاموس الكتاب المقدس ص 144

(4) تاريخ العرب ص 73-74

فهو اذن أقدم ما نملك من آداب عرب الشمال والبيّنة الساطعة خلاصة
العلاقات العبرية العربية .

الفصل الثالث

صلة قدامى العرب بالشعوب المجاورة

1 - صلة قدامى العرب بالسوماريين والبابليين

إن موقع بلاد العرب الشرقية ، جغرافياً ، تتأخم أرض الرافدين التي كانت موطناً للسومريين والبابليين « الأكديين » (1) . ومن البديهي أن يكون الجار على صلة مستمرة بجاره ، اللهم ، إلا إذا ساءت العلاقات الودية وانقلب الصفاء وحسن الجوار الى بغض وعداوة .

إن « أول معدن اكتشفه الانسان واستعمله هو النحاس ويرجح فيليب حتي أن السومريين قد حصلوا عليه من مناجمه في عُمان (2) .

إن العلماء قد ذكروا أن لقب ملك عند السومريين هو « الباتيسي » ويعني أنه الحاكم المدني والديني أي أنه إلى جانب سلطته الزمنية كان يقوم بواجبه الكهنوتي وخدمة بيوت العبادة . وهذا ما نراه حاصلاً في الممالك العربية الجنوبية « سبأ ، حمير ، وغيرها » (3) وربما يكون هذا الشبه من تأثير الصلات القديمة بين الشعبين .

إن كتابة وُجدت على تمثال من حجر لـ « نارام سين » مؤسس الدولة الإكدية في وادي الفرات . نحو 2171 ق . م . تدل على أن هذا الملك غزا

(1) حتي : 64

(2) نفس المصدر

(3) راجع ما سنكتبه عن هذه الممالك فيما بعد .

« معان » وغلب سيدها مانيوم^(١) . وربما كانت هذه « معان » التي قال عنها الأزهري أنها مدينة في طرف بادية الشام تجاه الحجاز والتي قال فيها عبد الله بن رباح بعد أن نهى زيد بن حارثة وجعفر ابن أبي طالب أن يكتبوا إلى الرسول عند استعظامهم لجيش العدو المؤلف من « العرب والروم » : إنما هي الشهادة أو الطعن . ثم أنشد :

جلبتُنا الخيل من أجسارٍ وفرعٍ تُغسرُ من الحشيش لها العكومُ
أقامت ليلتين من معانٍ فأعقب بعد فترتها جوم
هلا ، وأبسي ، ما ب لآتينها وإن كانت بها عربٌ وروم^(٢)

إن هذه الكتابة الاسفينية هي أول إشارة ، معروفة في التاريخ ، تدل على موضع معين في الجزيرة العربية وإلى قوم من العرب^(٣) .

أما بابل الشهيرة في التاريخ القديم والتي بلغت ذروة مجدها في عصر حمورابي صاحب الشرائع « الحقوقية » المعروفة باسمه ، وذلك قبل الميلاد بثمانية عشر قرناً من الزمن ، فقد فسّر العلماء مدلول لفظها حيث قالوا : إن اسم بابل أتى من لفظ « باب ايلو » من اللغة الأكديّة ويعني « باب الله » كما أن هذه الترجمة هي نفسها للكلمة السومرية « كادنجر » . كما فسّرها آخرون بـ « مركز الحياة » و « الفردوس » وقد أتت هذه الكلمة من كلمة « ايريدوكي » الأكديّة^(٤) ونرانا قريبين جداً إذا قابلنا هذه الكلمة بما يرادفها في المعنى في اللغات الصادرة عن اللاتينية « Paradise » .

(١) حتى 65

(٢) معجم البلدان 5 / 153 صادر .

(٣) حتى : 65

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص 152

وبابل هي العاصمة العظيمة لمملكة بابل القديمة « شنعار »⁽¹⁾ أول من تملك عليها « ثمرود الجبار »⁽²⁾ . الذي بناها . ولكن البابليين ينسبون بدء بنائها إلى « مردوخ » الههم الأكبر الذي بنى هيكلها الشهير أيضاً⁽³⁾ . وإلى قصة بناء برجها يعزو الكتاب المقدس تبلبل السنة الناس وتفرقهم في الأرض فيقول : « لذلك دُعي اسمها بابل »⁽⁴⁾ ، وقد ورد اسم بابل في القرآن الكريم : ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾⁽⁵⁾ وقد نقل ياقوت عن لسان « عمرو بن ناجية عن أنس بن مالك أنه قال : « لما حشر الله الخلائق إلى بابل ، بعث إليهم ريحاً شرقية وغربية وقبلية وبحرية ، فجمعهم إلى بابل ، فاجتمعوا ، فنادى مناد : من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره فاقصد البيت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء ، فقام يعرب ابن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود أنت هو ، فكان أول من تكلم بالعربية »⁽⁶⁾ .

إن بابل هذه التي ذكرها الكتاب المقدس أكثر من مائتي مرة قد كانت مقاما لليهود المسيبيين مرتين في التاريخ : أما السبي الأول فقد حصل في القرن الثامن قبل الميلاد وذلك بعد خضوع بابل للأشوريين وعلى زمن ملوكهم « سلمناصر ، تفلت فلاسر ، وسرجون » وقد تعرضت للسبي مملكة اسرائيل الشمالية⁽⁷⁾ . ولكن اليهود عادوا من السبي ومن بقي منهم مقيماً خارج اسرائيل

(1) تك 10: 10 و 14: 1

(2) نفس المصدر تك 10: 9

(3) قاموس الكتاب المقدس : 152

(4) تك 11: 1-10

(5) سورة البقرة : 2 / 102

(6) البلدان 1 / 310

(7) 2 ملوك 15: 29 و 1 أخبار 5: 26 و 2 ملوك 17: 5 وما بعدها .

كان يزور أورشليم بين حين وآخر⁽¹⁾ والسبي الثاني حصل لمملكة يهوذا الجنوبية على يد نبوخذ نصر في ابتداء القرن السادس قبل الميلاد⁽²⁾ ومن جملة من سبي النبي دانيال ورفاقه . هذا السبي تنبأ عنه الأنبياء أشعيا وميخا وأرميا⁽³⁾ .

إن اليهود زمن سبيهم في بابل قد توصلوا الى مراكز مرموقة في الدولة واختلطوا بشعب بابل ولا شك أنهم تأثروا ببعض عاداته وطرق عبادته وحضارته . وعند رجوعهم من السبي وبعد أن استولى كورش ملك الفرس على بابل سمح لليهود بالعودة ، فعادوا بقيادة زربابل وعزرا ونحميا⁽⁴⁾ وبما أن اليهود أخوة العرب لأبيهم ابراهيم وكانوا على اتصال مستمر⁽⁵⁾ بإخوانهم قبل السبي وأبانه وبعده فمن المرجح أن يكونوا قد حملوا شيئاً وإن قليلاً من حضارة بابل وطريقة عبادتهم للعرب .

2 - بالاشوريين :

كان للعرب الشماليين صلات بحكومات الهلال الخصيب ومن ضمنها مملكة آشور ولكن حجبا كثيفة ، كانت ولا تزال ، تغطي هذه الصلات وتعيق رؤيتها للباحث لما كان من تقادم تلك العهود ولقلة ما بأيدينا من وثائق تثبت وجود مثل هذه الصلات . إن الكتاب المقدس قد سمى العرب وفي أكثر من موضع « بنو المشرق » وذكر معهم المدينيين وأصل هؤلاء من جزيرة العرب

(1) أعمال 2: 8 و 9

(2) 2 أخبار : 36: 2-7

(3) أشعيا : 6: 11 و 12 وميخا : 4: 10 وأرميا 25: 1 و 11 و 12

(4) القاموس المقدس 458

(5) انظر مدى هذا الاتصال في كلامنا عن صلة العرب بالعبرانيين .

جاءوا الى أرض مدين ، من جزيرة العرب ، واستقروا فيها⁽¹⁾ كما ذكر أيضاً العمالقة . ويذكر الكتاب المقدس بني اسرائيل وكيف أن المدينين والعمالقة وبني المشرق يخرجون عليهم ويفسدون غلة أرضهم وينهبون ماشيتهم ، إذ يأتون في مثل كثرة الجراد بحيث لا يُعدُّون هم ولا جاهلهم . وكان بنو اسرائيل إذ ذاك ينزلون أرض مدين⁽²⁾ . ولا شك أن الأشوريين قد توغلوا في بلاد العرب إما حباً بالسيطرة والتوسع أو لصدهجمات البدو المتكررة . وها هو « شلمناصر » الثالث ملك آشور والذي حكم من (860-825 ق . م)⁽³⁾ ، يقود حملة على ملك دمشق الأرامي وحليفه « آخاب » ملك اسرائيل « وجندب » أحد مشايخ العرب . وقد اصطدم الجيشان في قرقر شمالي حماة عام 853 ق . م⁽⁴⁾ . والنص الذي تركه هذا الملك يقول : « قرقر عاصمته الملكية أنا خربتھا ، أنا دمرتها ، أنا حرقتها بالنار 1200 مركبة ... 10000 رجل لجندب العربي ... هؤلاء تألبوا عليّ »⁽⁵⁾ .

ولم يقتصر اتصال الأشوريين بعرب الشمال ، بل تعداهم الى عرب الجنوب . وقد أنبأنا « سرجون الثاني » ملك آشور ، الذي حكم من (722-705 ق . م) ، أنه أخضع أقواماً ، من جملتهم قبائل ثمود « ثمود في القرآن الكريم » وأباديد « الذين يسكنون البادية ولا يقرّون كبيراً أو صغيراً من الحكام »⁽⁶⁾ وقد تلقى هذا الملك ، من « سمسي » ملسكة بلاد العرب

(1) ج . علي 1 / 574 عن Arabian S, 21

(2) قضاة 6 / 3 وما بعدها

(3) قاموس الكتاب المقدس ص 516

(4) نفس المصدر

(5) حتى 66 عن Luckenbill V.I. 611

(6) نفس المصدر، Vol II, 16

و (يَتَعَمَّرُ) زعيم سبأ وغيرهما من ملوك البادية جزية من « الذهب والحجارة الكريمة . . . والخيول والابل » ، جزية أدوها صاغرين (1) .

ويتحفنا العلماء بأن أحد ملوكهم « سنحاريب » قد أخضع « أدومو قلعة بلاد العرب » (2) وأدومو هذه عُرِفَت بالمصادر العربية بـ « دومة الجندل » افتتحها ، عند ظهور الاسلام ، عبد الرحمن بن عوف صلحاً . وكتب الرسول الى أهلها كتاباً يبتدئه بالبسملة ثم « من محمد رسول الله لأكيدر ولأهل دومة الجندل » (3) والأكيدر هذا هو أميرها وفيه يقول الشاعر :

يا من رأى ظعننا تحمل غدوة من آل أكر ، شجوه يعنيني (4)

وقال فيهم أيضاً سويد بن الكلبي :

فلا يأمنن قوم زوال جدودهم كما زال عن خبتِ ظعائن أكر

وقد قال الأعور الشنّي في دومة هذه :

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبدُ الله مختلفان
وليس بهادي أمة من ضلالة ، بدومة ، شيخا فتنة عميان

كما ذكرها أعشى بني ضور من عترة :

أباح لنا ، ما بين بصرى ودومة ، كتائبنا منا يلبسون السنورا

(1) نفس المصدر ص 18

(2) نفس المصدر ص 518

(3) أسواق العرب : سعيد الأفغاني : ص 234 دار الفكر / بيروت الطبعة (3) 1974

(4) البلدان 2 / 487 صادر

وقال ضرار بن الأزور يذكر أهل الردّة :

عصيتهم ذوي البابكم وأطعتم ضُجِجًا ، وأمرُ ابن اللقيطة أشأم
وقد يَمَمُوا جيشاً إلى أرض دومة . فقُبُح من وفده وما قد تيمموا⁽¹⁾

لقد أخضع سنحاريب « ادومو » هذه سنة 688 ق . م وحمل الهتها الى
نينوى وأسر ملكتها « تَعْلَخَنو »⁽²⁾ « تَبْؤة »⁽³⁾ . وأراد اسرحدون ابن
سنحاريب وخليفته على آشور تنصيب الأميرة « تَبْؤة » ملكة على « أريبي » بلاد
العرب ليضمن موالاتهم وفرض سلطانه عليهم بعد أن تربست هذه الأميرة
تربية آشورية وبعد أن أصلح ما بلي من الأصنام وبعد أن نقشت عليها كتابة
تظهر تفوق إله آشور على تلك الأصنام ، واعادتها الى اصحابها لتنصب في
أماكنها وتُعبَد⁽⁴⁾ .

ولكن العداء كان مستحكماً بين العرب والأشوريين فلم تنفع تربية
ملكة العرب في قصور الأشوريين ولا إخضاع الهتهم لإله آشور فعاد العرب
من جديد لمناهضة الأشوريين . . . فترى ملكهم « آشور بانيبال » يخرج بحملة
عسكرية لتأديب القبائل العربية . فيلقي القبض على أويتع بعد عراك
طويل . يقول النص « اشتدت عليهم وطأة الجوع . ولكي يسدوا رمقهم
أكلوا لحوم صغارهم . . . وكان تسأول أهل بلاد العرب فيما بينهم ، فقال
الواحد لأخيه : « ما بال بلاد العرب قد أحرق بها هذا الشر المستطير ! »
فأجابه قائلاً : تلك عاقبة نكثنا العهد الوثيق الذي قطعناه لأشور .

(1) البلدان 2 / 488 - 89

(2) حتى 67

(3) ج علي : 1 / 592

(4) المصدر نفسه عن Pritchard p.295

ويتابع النص : خبر الأسير « أويتع » حليف « أبيتع » سيد الأنباط بعد أن زحف آشور بانيبال وقواته عليهم وطاردوهم « في رمضاء البادية وقيظها حيث لا ترى طيور السماء وحيث لا يرى العير ولا الغزال » ويتابع بعد أن يقبض عليه : « حبسته في مربوط الكلاب . أويته مع بنات أوى . أقمته على حراسة الباب في نينوى⁽¹⁾ .

هذا ويظهر من نصوص آشورية أخرى أن هؤلاء قاموا بعدة حملات عسكرية لتأديب الأعراب بلغ عددها التسع . كما تشير الرسوم التي عثر عليها في قصر الملك (آشور بانيبال) في نينوى إلى أعراب يقبلون أرجل الملك وهم يحملون الهدايا من ذهب وطيب ولبان وجمال . كما تصور الآشوريين وهم يحرقون خيام الأعراب . ويطاردون جماهم وهم على ظهور خيولهم⁽²⁾ .

مما تقدم يظهر لنا بوضوح علاقة العرب بالآشوريين ، هذه العلاقة التي كانت في أحسن أيامها عهد سلام وعدم تعدي وفي أسوأها كانت مقارعة وحروب ولكنها مع هذا ، ولطول سنين حكم الآشوريين لا بد أن تكون قد تركت أثراً مباشراً أو غير مباشر في حياة العرب الدينية والفكرية والاجتماعية .

3 - بالكلدانيين :

لم تكن علاقة العرب بالكلدانيين بأحسن منها عند الآشوريين فقد توارث الكلدان أملاك دولة آشور ومنها طبعاً أقطار الشام وشمال الجزيرة ولا بد لهذا الشعب الناشئ ككل أمة تنشأ جديداً من أن يبطش ليفرض هيئته على

(1) حتى 68 عن Luckenbill 858.

(2) جواد علي 1 دار العلم للملايين اللوحات ص 577، 583، 595.

شعبه وعلى الشعوب الخاضعة لسلطانه وهذا ما فعله أحد ملوكهم « نبونيد » ، حيث جرّد حملة على بلاد العرب ، 552 ق . م وفتك بأمير تيماء وأعمل به ، وبرقاب رعيته السيف ، وابتنى مسكناً له في تلك المدينة وجعله كالقصر الذي في بابل⁽¹⁾. وتيماء هذه التي جعلها هذا الملك مستقراً له هي المدينة في بلاد العرب الواقعة على منتصف الطريق بين دمشق ومكة وعلى مسافة متساوية من بابل إلى مصر⁽²⁾ . وسماًها ياقوت « تيماء اليهودي » لأن الأبلق الفرد الحصن المعروف بحصن السموأل بن عاديا اليهودي كان مشرفاً عليها . وفيها يقول الأعشى :

ولا عاديا لم يمتنع الموت ماله ، ووردُ بتيماء اليهودي أبلقُ

كما قال بعض الأعراب :

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس ، أنني بتيماء تيماء اليهود غريباً⁽³⁾

وفي حصن السموأل هذا ودّعَ أمرؤ القيس املاكه فضحى السموأل بابنه يُقتل على مرأى منه ولم يسلم الوديعه الى الحارث وفي ذلك يقول السموأل :

بنسى لي عاديا حصنا حصينا وعينا كلما شئت استقيتُ
واوصى عاديا يوماً بأن لا تهدمُ يا سموأل ما بنيتُ
وفيتُ بأدرع الكندي ، إني إذا ما خان أقوامُ وفيتُ⁽⁴⁾

إن تيماء هذه التي ورد ذكرها في التوراة « وحي من جهة بلاد العرب .

(1) حتى 69 عن R.P. Dougherty P. 106

(2) أشعياء 21: 14 ورمياء 25: 23

(3) البلدان 2 / 67 صادر .

(4) الديوان ص 69 صادر

في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتسوا ماءً لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء⁽¹⁾ ، ربما سميت كذلك نسبة إلى تيماء أحد أبناء اسماعيل بن ابراهيم⁽²⁾ .

مما تقدم يظهر أثر تيماء الكبير في علاقات العرب بالأمم المجاورة فهي تقع في شمالي الحجاز على طريق تجاري هام يصل خليج العقبة والبتراء غرباً بالخليج العربي شرقاً . وهي محط القوافل الآتية من الشام والشمال الى اليمن في الجنوب .

ولم تكن حملة نبونيد هي الوحيدة على بلاد العرب فقد أشارت الكتابات البابلية الى أن « بختنصر » أرسل في سنة 599 ق . م . حملة على عرب البادية نهبت ماشيتهم وسرقت ألهتهم ثم عادت⁽³⁾ وقد فعل هذا الملك ما فعله ملوك آشور من قبله ، وذلك لإكراه القبائل على الإستسلام والخضوع .

ويروي (اكسينوفون) أن بختنصر قد أخضع ملك العربية سنة 567 قبل الميلاد⁽⁴⁾ ، عندما حمل على مصر لإخضاعها .

أما الملك الكلداني « نبوخذ نصر » فقد هاجم قبائل قيدار وممالك حاصور التي كانت قائمة في مقاطعات من الصحراء العربية شرقي فلسطين⁽⁵⁾ . أما قيدار فهو ابن اسماعيل الثاني⁽⁶⁾ . وهو أب لأشهر قبائل

(1) اشعياء 21: 13-14

(2) تك 15: 25

(3) ج . علي : 1 / 609 عن (ويزمن) 31-48-71

(4) نفس المصدر عن Xenophon

(5) قاموس الكتاب المقدس 283

(6) تك 13: 25

العرب التي كانت تعيش متبدية في خيام سود⁽¹⁾ . وقد أشارت المخطوطة الأرمية التي وُجدت في وادي « طوميلات » بمصر والمنقوشة على وعاء من فضة إلى اسم أحد ملوك قيذار⁽²⁾ ، قينو بن جشم ملك قيذار : ومن هذا النقش نعلم أن جشم الذي ذكره نحميا النبي⁽³⁾ ، كان ملكاً على قيذار وقد امتدت سلطته من شرق الأردن الى تخوم مصر .

وهناك كتابة أرمية ثانية عثر عليها في (خربة تيماء) في القرن الخامس قبل الميلاد ، ورد فيها أن أحد الكهنة استورد صنماً الى تيماء ، وبني له معبداً ، وعيّن له كهنة لخدمته ، كما عثر مع النص على رسم (« صلح هجم » بمعنى صنم اسمه هجم مثل في زي آشوري . ويرى « سيدني سميث : أن تاريخ هذا الأثر الهام يعود الى أيام نبونيد مما يشير بوضوح الى تأثر سكان تيماء وعلى الأرجح أنهم كانوا عرباً بعبادة الاشوريين والكلدانيين الى جانب تأثرهم بأزيائهم في اللباس⁽⁴⁾ .

والذي يراجع « النص⁽⁵⁾ » الذي يحدثنا عن نبونيد وتيماء يرى أن هذا الملك قد نقل معه عندما اتخذ تيماء عاصمة له أقواماً من العراقيين واليهود « يهود بابل ويهود فلسطين » وأسكنهم المناطق الحجازية فأقاموا ، وخاصة اليهود ، في خيبر وتيماء ويثرب وبقوا هناك حتى ظهور الاسلام، الدين الذي أخرجهم اتباعه من كل الحجاز .

(1) قاموس الكتاب المقدس 751 واش : 16: 21 وارميا، 28: 49 وما بعدها .

(2) نفس المصدر 751

(3) نحميا : 2: 19 ، 6: 1 ، 2

(4) جواد علي 1 / 613 عن Smith Hist. 79

(5) جواد علي 1 / 618 عن A. Studies: 84

هيرودوتس⁽¹⁾ المؤرخ الاغريقي في صدد كلامه عن داريوس ما نصه : لقد اعترف بسلطانه جميع اقوام اسيه الذين كان قد ذلهم قورش ثم قممير بعده إلا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا البتة لسلطان فارس انما كانوا أحلافها ، ولقد مهّدوا لقممير سبيل التوصل الى مصر ، ولولاهم لما أمكنه القيام بهذه المهمة والذي نتبينه من هذا النص أن العرب ، وقبل الميلاد بقرون عدة ، كانوا في هذه المنطقة الممتدة من فلسطين وعبراً في طور سيناء حتى مشارف النيل في مصر . ولكن هيرودتس نفسه يعود فيذكر أن العرب كانوا يقدمون الجزية سنوياً إلى (دارا) وهي من الطيب⁽²⁾ . ولكن ورود لفظة الطيب هنا تبين لنا أشياء كثيرة وهي أن العرب كانوا تجاراً يحملون الطيوب وغيرها ، وربما قدموا هذا الطيب الى (دارا) كعربون عهد تجاري بينهم وبينه أو كضريبة مرور نعرفها بمصطلحنا الحديث « بالترانزيت » .

وقد بقيت صلاة العرب بالفرس مستمرة ، يتناوبها الصفاء والموالاة تارة والفتور والنزاع الحربي طوراً ، إلى زمن متأخر وحتى ظهور الاسلام وفيما بعده وإلى يومنا هذا .

وإذا ما سرنا والقرون الأولى للمسيحية نجد أن الرومان ومن بعدهم بيزنطة خليفتهم في بلاد المشرق من جهة والفرس من جهة أخرى يتسابقون لاسترضائهم فلا بُدّ لكليهما من التعامل مع العرب لحماية حدودهما الواسعة معهم ، ولكثرة القبائل العربية التي كانت تظعن وتقيم في أرضيهما . ومن خلال الظروف العسكرية والسياسية لهاتين الامبراطوريتين ظهرت امارتان وربما مملكتان عربيتان في شمالي الجزيرة ، الغساسنة في الشام ويدورون في

(1) فيليب حتي 70 عن BK. 3, ch. 88

(2) نفس المصدر 91-97 BK. 3:

فلك بيزنطة ، وسرى مدى هذه العلاقة عند بحثنا لدولة الغساسنة ،
واللخميون في الحيرة وسنتكلم عن علاقتهم ببلاد فارس عند بحثنا لمملكة
الحيرة .

ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى شقين شرقي وعاصمته
القسطنطينية وقد عرف باسم بيزنطة وغربي وعاصمته روما وبقي على اسمه
القديس ، تدخل العامل الديني في نسيج العلاقات العربية مع الفرس
وبيزنطة . وهذا الاتجاه ظهر بوضوح خاص في الصراع الثنائي بين الدولتين
العظميين للسيطرة على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية . وبطلب من
بيزنطة تدخل الأحباش في اليمن ، (وسرى ذلك في صلة العرب
بالأحباش) ، لحماية النصارى من اليهود ومن أميرهم ذي نواس الذي حفر
الأخدود وأحرق فيه نصارى نجران⁽¹⁾ فعبث الأحباش البحر وبسطوا نفوذهم
على اليمن وجوارها زهاء نصف قرن حتى أخرجهم « ذي يزن » بمساعدة
الفرس . يقول الطبري⁽²⁾ :

إن « سيف بن ذي يزن » خرج الى الروم يطلب مساعدتهم ، وتجنب
كسرى لكونه قد صدأ أباه ولم يساعده ، فخذله ملك الروم ، فانكفا راجعا
الى الفرس فأرسل معه كسرى قائده « وهرز » وجندا كثيرا - عددهم فيليب
حتى بشماني مائة محارب⁽³⁾ - وبهذا الجيش اندحر الأحباش وأخرجوا من
اليمن سنة 575 م . ونشأت بعد ذلك في اليمن بجنوبي الجزيرة العربية
حكومة مزدوجة ، تقلد فيها « ذي يزن » ولاية اسمية وحكم الفرس البلاد

(1) سورة البروج 85 / 4

(2) تاريخ الطبري 2 / 144 وما بعد دار المعارف .

(3) تاريخ العرب حتى 101

فعلياً . وبقوا فيها حتى الفتح الاسلامي حين أسلم (الباذان) حاكم اليمن الفارسي عام 628 م .

إن العرب وقد عاشوا مع الفرس هذه القرون الطويلة لا بُدَّ أن يكونوا قد تأثروا بهم اجتماعياً وحضارياً . فمن الناحية الاجتماعية دخل العرب في ديانة الفرس وتزندقوا معهم⁽¹⁾ . ومن الناحية الحضارية بنوا المدن وسكنوا القصور .

عندما نتكلم عن علاقة العرب بالفرس ، نقصد بالفرس ، البارثيين (الفرث) الذين زالت حكومتهم حوالي عام (226 ب . م) ، والساسانيين الذين أسس دولتهم في بلاد فارس (أردشير الأول) 226 - 241 م⁽²⁾ . لقد قصدت قوافل الساسانيين بلاد العرب ووصلت حتى العربية الجنوبية، وأوكل حراستها جماعة من سادات القبائل . كما قصدت قوافل العرب وخاصة قافلة أهل مكة العراق ووصلت الى المدائن⁽³⁾ . ويذكر أن (اردشير) بنى مدينة بالبحرين سماها « بتن أردشير » وأقام سورها على جثث أبنائها ، مما يدل على أن ملوك الفرس قد استولوا على بلاد الخليج العربي وضموها لهم⁽⁴⁾ .

إن البدوي « العربي » الذي كانت طباعه كطبيعة الصحراء والذي كان يثور كما تثور الرياح فتذري الرمال وتحولها الى كثبان ، كانت علاقته بحكام فارس تارة علاقة ود وصداقة وطوراً علاقة مشحونة بالبغض والنفور حتى تصل الى الغزو والحرب وهذا ما حدث على أيام كسرى ، حين عبرت « اباد »

(1) راجع كتابنا عن مملكة الحيرة وكيف استبدل قباذ ملك الحيرة بالحارث أحد أولاد أكل المرار .

(2) ج . علي 2 / 633

(3) نفس المصدر .

(4) نفس المصدر .

شَطَّ الفرات وغزوا الأعاجم ، يعني « الفرس » ، وأصابوا بغزوتهم هذه « عروساً » من أشراف فارس ، فغضب كسرى وأرسل جيشاً لتأديبهم . وهذا ما حدا الشاعر لقيط الأيادي الذي كان أسير كسرى أن يرسل رسالة الى العرب بني قومه يحذرهم فيها من الحملة عليهم ويجعل عنوان الرسالة (1) .

سلام في الصَّحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد آتاكم فلا يحبسكم سوق النقاد (2)

ويقول في رسالته التي هي قصيدة شعرية رائعة :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غييراً على نسائكم ، كسرى وما جمعاً

ويسير في القصيدة « الرسالة » الى أن ينهيها بقوله :

وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعاً

ولكن الحملة تأتي وتقضي على إياد ، وهذا ما ذكره علي بن أبي طالب :

لقريباً من الهلاك كما أهـ لك سابور بالسواد إياداً (3)

ولكننا نرى أن لقيطاً يذكر أن صاحب الحملة هو كسرى والشعر المنسوب الى علي يذكر أنه سابور وربما كان « ذا الأكتاف » وسواء أكان كسرى أم سابور فالوقية وقعت والعرب على اتصال مع الفرس : « سلمى وحربي » بالمفهوم الحالي . ولقد تطورت العلاقات العربية الفارسية عند ظهور دولة

(1) أغاني 22 / 358 مؤسسة جمال / بيروت /

(2) النقاد : جنس من الغنم قبيح الشكل .

(3) ج . علي 2 / 637 عن : Ency V.4.P. 315

الحيرة ، وما كان لملوك الحيرة من أيادٍ بيضاء على المتنافسين للوصول الى عرش ساسان من أبناء العائلة المالكة أنفسهم . ومثالنا على ذلك تربية (بهرام جور) في الحيرة وفي البادية وبين الأعراب وبناء الخورنق لاستقباله وإقامته ، ومن ثم مساعدته للرجوع وتسلم العرش⁽¹⁾ .

5 - بالأحباش :

لقد كان للعرب صلات قديمة بالأحباش ، والعكس كذلك ، وكيف لا وقد امدى العرب جيران الأحباش ، ولا يفصل بينهم ، سوى البحر الأحمر ، المعروف قديماً « بالبحر الاريتيري » وللشعبين مصالح تجارية وتطلعات سياسية توسعية ، ربما نكون قد ظلمناهم بهذه النعوت حيث يكون هدفهم آنذاك الغزو للغزو فقط أو لجذب أصاب أرضهم أو لكارثة طبيعية ، فضاقت سبل العيش في وجوههم ، مما اضطرهم لركوب هذا البحر والنزول على الشاطئ المقابل .

لقد هاجر العرب الى الحبشة ، ونزلوا الساحل الاريتيري ، وكونوا مملكة هناك . وإلى العرب الجنوبيين (الجعز) تُنسب اللغة الحبشية التي عُرفت بالجعزية⁽²⁾ . وقد تقلصت هجرات العرب الى الحبشة زمن ساد البطالة في مصر وتدخلهم في مياه البحر الأحمر . ولكن (بليّني)⁽³⁾ يرى أن تلك الهجرة بقيت واستمرت فيما بعد الميلاد ، فقد ركب عرب الجنوب البحر عام 232 و 250 ب . م . ونزلوا السواحل الافريقية⁽⁴⁾ . ومما يثبت هجرة عرب الجنوب الى الحبشة عثور الباحثين على كتابة « سبئية » ، منقوشة على حجر ، وُجد هذا

(1) ج . علي 2 / 646 عن ايران في عهد الساسانيين (ص 260) .

(2) جواد علي 3 / 449 عن (بليّني) Die Araber I, 114. II. 274

(3) نفس المصدر

(4) نفس المصدر I, S, 126

الحجر في حائط كنيسة قديمة بالقرب من « أكسوم » ، وفيها اسم الالهة « ذات بعدن » « ذات البعد » ، كما عثروا على مذبح سبئي خُصص لعبادة الإله « سن »-والإله « ذات بعدن » و « سن » شاعت عبادتهما في سبأ وحير وبقية الممالك الجنوبية⁽¹⁾ . وهذا دليل قاطع على وجود العرب في افريقيا الشرقية .

وكما تدخل العرب في الشؤون الافريقية ، كان العكس صحيحاً ، فقد تدخل الحبش مراراً في الشؤون العربية الجنوبية ، وحكموا مواضع منها وتوغلوا في الداخل حتى بلغوا نجران .

ويبدو من الكتابات التي تركوها أنهم كانوا في اليمن وغيرها من أرض الجنوب في القرنين الأول والثاني للميلاد⁽²⁾ . وفيما بعد أيضاً . فقد جاء في نص من النصوص الحبشية القديمة والتي عثر عليها المنقبون : أن ملك أكسوم أخضع السواحل المقابلة لسواحله ، « يعني بذلك أرض اليمن » وأجبر ملوك الـ «Arhabite»⁽³⁾ والـ «Kinaidokolpite» ، على دفع الجزية . ويرى بعض العلماء والمهتمين بشؤون هذه الشعوب القديمة ، أن المقصود بهذين الاسمين « بدو الحجاز وكنانة »⁽⁴⁾ .

لقد كان اتصال الأحباش بالعرب اتصالاً شبه دائم كما ذكرنا أيضاً في القرون الخمسة الأولى للميلاد . عندما كان الحبش عبدة أوثنان وبعد تنصرهم . فقد دخل مبشرو النصرانية الحبشة وتنصّر ملكهم « عيزانا » بتأثير « فرومنتيوس » المبشر الذي أرسله « قسطنطين » امبراطور بيزنطية عام 350

(1) جواد علي 3 / 451 عن Handbueh I, S. 34.

(2) جواد علي 3 / 451 وما بعدها عن Le Muséon 3-4. p. 498

(3) خلافاً لليمن معجم البلدان 1 / 644

(4) جواد علي 3 / 453 عن Beitrage . 119

م ، والذي جعل النصرانية الديانة الرسمية لمملكته وللعربية الجنوبية^(١) .
ولكن بعضهم يرى أن الذي نصّر عرب اليمن ، هو « ثيوفيلس » عام 354 م ، والذي أنشأ كنيسة في ظفار وأصبح رئيس أساقفتها ومشرفاً في الوقت نفسه على جميع الكنائس المنشأة والتي هي قيد البناء في اليمن والعربية الجنوبية والخليج ومن ضمن هذه الكنائس كنيسة نجران^(٢) ، التي عُرِفَت فيما بعد بـ « كعبة نجران » لما كان لها من تأثير على النصارى العرب والتي قال فيها الأعشى^(٣) :

وكعبة نجران حتمٌ عليّ —————
نزورُ يزيدا وعبد المسيح وقيسا هم خيرُ أربابها

إن كعبة نجران هذه بيعة بناها بنو عبد مدان بن الديان الحارثي وعظموها مضاهاةً للكعبة وسموها « كعبة نجران » وكان فيها اساقفة معتمون وهم الذين جاؤوا إلى النبي للمباهلة^(٤) .

أما تدخل الأحباش في اليمن على زمن « ذي نواس » ملكها اليهودي المتعصب ، الذي سار إلى نجران ودعا أهلها إلى اليهودية وخيرهم بين دينه والقتل ، فاختاروا القتل فأحرق من أحرق وخذ الأخدود^(٥) وفي ذي نواس وأصحاب الأخدود نزلت الآية الكريمة : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾^(٦) .

(1) نفس المصدر عن Handbuch 1,5,35

(2) نفس المصدر عن Graham 5, 29

(3) معجم البلدان 5 / 268 (صادر)

(4) نفس المصدر

(5) نفس المصدر

(6) سورة البروج أية 2-6

إن الأحباش أتوا اليمن بحملة عسكرية كبيرة ، قوامها سبعون ألف رجل ، بقيادة « أرياط » ومعه أبرهة الأشرم كجندي مقاتل ، والذي عُرف فيما بعد بـ « صاحب الفيل » وبحملته على مكة لهدم الكعبة (1) . وفيه وفي أصحابه نزلت « سورة الفيل » :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ﴾ (2) .

إن أكثر المؤرخين يرون أن حملة الأحباش النصاري على اليمن كانت أبان حكم الامبراطور البيزنطي « يوستينيانوس » . كما يرون أن سبب هذه الحملة كان تعذيب ملك حمير « ذي نواس » لنصاري نجران (3) . ولا أظن أن هذا هو السبب الوحيد لتجنيد سبعين ألف مقاتل وإرسالهم الى ما وراء البحر بل لا بُدَّ أن يكون هناك سبب أهم هو السيطرة على الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر مما يؤدي الى التحكم بالطرق التجارية البحرية والبرية ، والتي كانت العربية الجنوبية آنذاك عقدتها لا بل ركيزتها .

وقد ذكر المؤرخ (بروكوبيوس) أن الذي حكم حمير بعد مقتل ذي نواس على أيدي الحبش هو « السميفع أشوع » نصبه النجاشي ملكاً على حمير من نصاري حمير ولكن جنود الحبشة ثاروا عليه وخلعوه وعينوا مكانه « أبرهة الأشرم » (4) . لقد وجد العالم البلجيكي « ريكمنس » ذكراً لهذا الملك

(1) الأزرقى أخبار مكلة تحقيق رشدي الصالح ملخص دار الأندلس 1 / 136, 148, 176

(2) سورة الفيل آية 1-5

(3) جواد علي 3 / 462 عن Gosmas p. 141

(4) نفس المصدر عن 20 / 1 Procopius

النصراني عند ترجمته لنص محفوظ في متحف استانبول والموسوم بـ «Osma»
«Mus N. 281 جاء فيه :

« نفس قدس سميفع أشوع ملك سبأ » و « بسم رحمن وبنهوكر شتش
غلبن » (1) ومعناه : « بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب » .

إن هذا النص يعود بنا إلى نصارى عرب الجنوب وبالتحديد إلى نصارى
حمير وسبأ فنرى أن أحدهم قد وصل إلى رتبة ملك وهو السميفع أشوع وإن كان
بإرادة خارجية فلا يمكن أن يكون راعياً بدون رعية ولا ملكاً بدون شعب
والعرف التقليدي المتبع قديماً وحديثاً ، هو : الناس على دين ملوكها . وهذا ما
يؤكد أن النصرانية قد أصبحت في العربية الجنوبية عميقة الجزور . كما يرينا
هذا النص إيمان هذا الملك وإيمان شعبه من ورائه ، حيث يقول : بسم الرحمن
وابنه المسيح الغالب . لقد ذكر هذا النص صفة من صفات الله « الرحمن » ولم
يذكر اسمه كما ذكر الاقنوم الثاني وهو الابن المسيح وأعطاه صفة الغالب ،
ومعناه المنتصر على الخطيئة والذي غلب الموت والجحيم وقام من القبر .
و « المسيح الغالب » شعار لا يزال المسيحيون يستعملونه حتى اليوم وخاصة
« الأرثوذكس » حيث يوجد على خبز التقدمة « القربسان » . وإني أرى أن هذا
النص ربما يكون قد كُتب بعد المجمع الكنسي الأول المنعقد في مدينة نيقية (2)
ووضع فيه دستور الايمان من : أومن بإله واحد . . . وحتى . . . الذي لا
فناء لملكه ونوقش فيه الايمان بالمسيح . وقبل المجمع الثاني (3) الذي عالج

(1) نفس المصدر 3 / 477 عن Le Muséon LIX

(2) انعقد هذا المجلس عام 325 م بدعوة من الامبراطور قسطنطين الكبير وحضره 318 اسقفاً للنظر في ولادة
الابن وخلقه وجوهه وللدرد على أريوس القس الاسكندري . راجع قصة الحضارة « ول ديورانت »
ترجمة محمد بدران ج 11 ص 394

(3) انعقد هذا المجمع في مدينة القسطنطينية سنة 385

قضية الروح القدس . لأن النص المذكور يذكر الله الأب والمسيح الابن ولا يذكر الروح القدس الأقسام الثالث في العقيدة المسيحية المشرقية « الأرثوذكسية » . إيمان آباء الكنيسة في ذلك التاريخ .

كما نلاحظ في النص لفظة « كرشتش » وهي لفظة يونانية «Xpistos» « خريستوس » وتعني المسيح . مما يظهر أن هذه اللفظة دخلت في لغة الأحباش « لا زالوا يستعملونها » ومنهم انتقلت الى مملكة سبأ .

إن أبرهة الملقب « أبويكسوم » قد ملك مكان « السميعع أشوع » على حسب رأي « بروكوبيوس » وبأبرهة هذا ضرب الشاعر « لبيد بن ربيعة العامري » ، المثل في الاتعاظ بهذه الدنيا الفانية :

لو كان حي في الحياة مخلداً في السدهر القاه أبسو يكسوم
والتبسمان كلاهما ومحرّق وأبسو قبيس فارس اليعموم⁽¹⁾

إن أبرهة هذا قد ترك نصاً طويلاً ومهماً وُسِم بـ «Glasser 618»⁽²⁾ افتتح : « بخيل وردا ورحمت رحمن ومسحو روح قدس سطر وذن مزندن . إن إبره عزلى ملكن أجعر بن رعر زبيمن ، ملك سبأ وذو ريدن وحضر موت ويمنت وأعر بهمو طودم وتهمت »⁽³⁾ . أي : « بحول وقوة ورحمة الرحمن ومسيحه وروح القدس سطرخوا هذه الكتابة . إن أبرهة نائب ملك الجعزيين رعر زبيمان ، ملك سبأ وذو ريدان وحضر موت وأعرابها في النجاد وفي تهامة » .

(1) جواد علي 3 / 483 عن الأكليل 2 / 159

(2) نفس المصدر عن . Die Araber 1, S. 587

(3) جواد علي 3 / 483 عن Die Araber 587

نرى في هذا النص ذكرا للروح القدس لم يرد في نص السميّفع أشوع
وكانني به قد كتب بعد المجمع الثاني⁽¹⁾ الذي اعترف بالروح القدس مساوياً
للأب والابن في الجوهر . . . كما نرى أن حكم الأحباش لم يقتصر على اليمن
وحسب بل تعداه إلى ذي ريدان وحضرموت وإلى الأعراب في النجاش
وتهامة . . . وقد ورد في النص أيضاً أن أبرهة أمر بإعادة ترميم سد مأرب
بعدهما سمع بتهدمه وافتتح كنيسة في مدينة مأرب يخدمها جماعة من متنصرة
سبأ . ونلاحظ كذلك أن أبرهة الحبشي قد لُقّب نفسه بالقاب ملوك
حمير . . . ولأبرهة هذا ، نص ثانٍ لا يقل أهمية عن الأول . عثرت عليه بعثة
(ريكنس) مدوناً على صخرة بالقرب من بشر (مريغان)⁽²⁾ ويشير هذا
النص إلى اتصال الحبش بملوك الحيرة وإلى بسط سلطانهم على القبائل العربية
ككندة ومعد وسعد⁽³⁾ . . . وينتهي النص بانتصار (أبرهة) ورجوعه من
(حلبان) بحول الرحمن . بتاريخ اثنين وستين وست مائة (حميري) . وهذا
التاريخ يوافق سنة (547) أو (535) م على حسب رأي العلماء . وحلبان هذه
موضع باليمن قرب نجران ، أو موضع ماء في أرض (بني قُشير)⁽⁴⁾ وقد روى
أهل الأخبار شعراً للمخبل السعدي يذكر فيه أبرهة وحلبان :

صرمُوا لأبرهة الأمور ، محلّها حلبان ، فانطلقوا مع الأقوال⁽⁵⁾

إن أبرهة هذا هو (صاحب الفيل) المشهور في التاريخ والذي نزلت فيه

(1) الذي ناقش قضية الروح القدس وأكمل دستور الإيمان (وبالروح القدس . . . الخ .)

(2) راجع النص وترجمته جواد علي 3 / 494 ، 495

(3) راجع النص

(4) معجم البلدان 2 / 281 (صادر)

(5) اللسان 1 / 334 (صادر)

الآيات الكريمة⁽¹⁾ عندما قصد مع جنده مكة المكرمة ليهدم الكعبة ويكره الناس على الحج إلى « القُلَيْس » الكنيسة التي بناها في صنعاء والتي كتب إلى نجاشي الحبشة عندما انتهى من بنائها ما يلي :

« إني قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبني العرب ولا العجم مثله . ولن أنتهي حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم⁽²⁾ وقد ذكر ياقوت الحموي القليس والكتابة على بابها : « بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه اسمك وأنا عبدك »⁽³⁾ . ولكن أبرهة فشل في مشروعه الرامي إلى هدم الكعبة فعاد أدراجة إلى صنعاء وهلك فيها عام 570 م تقريباً .

إن الأحباش طوال مدة مكثهم في اليمن سعوا إلى نشر عقيدتهم بين الناس . فكانت النصرانية دائبهم وديدهم يعملون جاهدين لترسيخها في نفوس العرب . وما تركوا وسيلة إلا اتبعوها . فالمبشرون يجوبون الأصقاع والبناءون يشيدون الكنائس بأمر من ولاية الأمر وبمساعدة أناس سخروا لهذا العمل طوعاً كان أو كرهاً . فاشتهرت كنائس (نجران) و (صنعاء) و (ظفار) وأقيم عليها الأساقفة فكثرت عددهم بين الحميريين والنبط⁽⁴⁾ ، أشهرهم كان أسقف ظفار « جرجنسيوس » الموقر من النجاشي والمساعد الأكبر في تنصير الحميريين⁽⁵⁾ .

إن جواد علي يذكر أن القيصر « يوسطين » قد أرسل من الاسكندرية أسقفاً هو « كريكتيوس » ليرعى نصارى (ظفار) وقد تناظر هذا الأسقف

(1) سورة الفيل آية 1-5

(2) أخبار مكة « الأزرقى » 1 / 138 وما بعدها . دار الأندلس .

(3) البلدان 4 / 394 (صادر)

(4) النصرانية 1 / 65

(5) نفس المصدر 1 / 64

عند قدومه مع حبر يهودي فيها فغلبه (1) .

لا شك أن الأحباش دخلوا العربية الجنوبية الغربية ومنها توغلوا في قلب الجزيرة وكادوا يصلون إلى مكة لولا تدخل العناية الإلهية (2) وارتدادهم عن كعبة ابراهيم أقدم مقدسات العرب قديماً وحديثاً أي في العصر الجاهلي وفيما بعد عند ظهور الإسلام وبعده .

إن حملة أبرهة على مكة ، كانت على حسب الرأي الغالب قبل مبعث الرسول العربي محمد بن عبد الله (ﷺ) بزهاء أربعين سنة أو في عام ميلاد الرسول وهذا ما يوافق عام 571 م تقريباً ، وكان ذلك أيام عبد المطلب جد الرسول الذي قال قوله الشهير عندما لم يستطع اقناع أبرهة بعدم هدم البيت العتيق :

« إن للبيت رباً سيمنعه » (3) وتوسّل عبد المطلب شريف مكة ، إلى ربّه وناجاه ، عندما قرب أبرهة من مكة ، أن يحمي بيته بقوله :

يا ربّ لا أرجو لهم سواك يا رب ، فامنع منهم ما
إن عدوّ البيت من عاداك إمنعهم أن يخربوا قراكا (4)

ويقول أيضاً وهو يمسك بحلقة باب الكعبة :

يا رب إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك
إن كنت تاركهم وقـ بلتنا فنامر ما بدالك
ولئن فعلت فائمه أمر يتم به فعالك (5)

(1) 506 / 3 عن Bury 11, p. 327.

(2) الفيل آية 1-5

(3) الأزرقى « أخبار مكة » 1 / 144 (الأندلس)

(4) جواد علي 3 / 516

(5) الأزرقى 1 / 145

لقد بقي الأحباش في اليمن والعربية الجنوبية حتى أخرجهم عنها « سيف بن ذي يزن » وهو « معد يكرب بن أبي مرة » بمساعدة الفرس وقائدهم « وهرز »⁽¹⁾ وما يُروى عن « سيف » هذا أنه تربى عند أبرهة مع أمه ریحانة التي انتزعها أبرهة من زوجها « أبي مرة » الذي فرّ تاركاً « سيف » مع أمه والزوج المغتصب⁽²⁾ .

لقد دام حكم الأحباش في اليمن زهاء خمسين عاماً أو أكثر . اتصل هؤلاء بالقبائل العربية وتدخلوا في شؤونها وعزلوا وأمروا عليها من شاؤوا . فقد رأينا أن « كندة » و « سعد » و « معد » كانوا معهم في حربهم ضدّ « بني عامر »⁽³⁾ كذلك سعى الأحباش جهدهم لتنصير القبائل العربية ، فشادوا الكنائس في ظفار وصنعاء ومأرب وغيرها وزينوها بالفسيفساء والذهب ليهيروا أنظار العرب وقد تنصّر الكثير من العرب ويقوا في المدن العربية الجنوبية وفي مكة نفسها حتى البعثة النبوية والفتح الإسلامي وقد روي عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت في حادثة سنّها : « لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين ببطن مكة يستطعمان »⁽⁴⁾ . كما ذكر القرآن الكريم⁽⁵⁾ أن الرسول كان يدخل على قين نصراني فاتهمه أبناء عشيرته أنه يتعلم من هذا القين : ﴿ ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما تعلّمه بشرّ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

(1) جواد علي 3 / 522 وما بعدها .

(2) نفس المصدر .

(3) راجع نص أبرهة جواد علي 3 / 495

(4) الأزرقي 1 / 154

(5) النحل 103

6 - بالرومان :

إن الامبراطورية الرومانية قد سادت العالم القديم وورثت املاك الامبراطورية اليونانية « امبراطورية الاسكندر وخلفائه » .

استولى الرومان أبان ضعف خلفاء « ذي القرنين » على بلاد الاسكندر الأم ، وعلى اليونان وآسيا الصغرى وبلاد الشام وشمالى وشرقى القارة الافريقية وأصبحوا على اتصال مباشر بالعرب .

ففي سنة (64 ق . م) شخص الامبراطور الروماني « بومبيوس » إلى سوريا وأخضع جميع أجزائها تقريباً ، وأرسل حملة إلى أرض (Aretas) الحارث ملك العرب النبطاء فكان نتيجة ذلك اتصال الرومان بالعرب .

لقد كان العرب في بادىء حكم الرومان لبلادهم خير معين لهم في حروبهم ضد (الفرث) . فقد ساعدوا (كاسيوس) و (كراسوس) سنة (53 ق . م)⁽¹⁾ ، لقد نصَّب الرومان ، والروم من بعدهم ، ملوكاً وأمراء ورؤساء قبائل من العرب ليكونوا عمالهم في أرض العرب وحماة الحدود لصد هجمات الفرس من الشرق .

ففي سنة (47 ق . م) عيَّن يوليوس قيصر (انتيباثر) ، والد الملك هيرودس الكبير والذي ولد السيد المسيح في أواخر أيامه⁽²⁾ ، بمنصب على اليهودية . وانتيباثر هذا هو من أصل أدومي عربي⁽³⁾ . إن الملك (مالك

(1) ج . علي 2 / 39 عن Dubnow. II, S. 154

(2) نفس المصدر عن Arabian S. 23.

(3) متى 2: 1 ولوقا 5:

(4) قاموس الكتاب المقدس ص 1008 وج . علي 2 / 40

الأول بن عبادة) قد انقذ (يوليوس قيصر) من مأزقه الحرج عند استيلائه على الاسكندرية (1) . كما أنجد العرب (هيركانوس) الذي فر من القدس إلى بطرا حينما هاجمه الفرس (2) .

ولم يكتفِ الرومان بشمال جزيرة العرب وبسط سلطانهم عليها بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، فقد نزعت نفس « أغسطس قيصر روما » لغزو جزيرة العرب في داخلها فأوعز إلى واليه على مصر (أليوس غالوس) بتجريد حملة عليها واحتلالها وبسط نفوذهم على شعبها والاستيلاء على طرق النقل التي احتكرها العرب وخاصة عرب الجنوب . ودخلت هذه الحملة الرومانية والتي انطلقت من مصر عام 24 ق . م (3) أرض الجزيرة بمساعدة الأنباط العرب (4) ، ووصلت إلى نجران ومريابا (5) ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً ، وعادت تجر أذيال الخزي والخيبة ، بدل الاستيلاء على أرض الطيب والبحور . إن « سترابون » مؤرخ تلك الحملة وصديق قائدها ، يقسم هذه الأرض إلى أربعة أقسام : معين وعاصمتها «Carna» وسبأ وعاصمتها « ماريابا » و « قتبان » وعاصمتها « تمنع » وحضرموت وعاصمتها « شبا » (6) . ولكن اخفاق حملة الرومان على قلب جزيرة العرب لم يصرف نظرهم عنها ، فما لم يستطيعوا تحقيقه برأ سعوا إليه بحراً . وقد احتلوا ميناء عدن وأقاموا فيه حامية دائمة لما كان لهذا الميناء من أهمية لا تزال قيمتها الاستراتيجية حتى يومنا هذا . ولعل أهمية هذه هي التي

(1) ج . علي 2 / 42 / عن Murry, p. 102

(2) نفس المصدر عن Dubnow 11, S, 250.

(3) حتى 77

(4) راجع مملكة الأنباط - فيما بعد .

(5) حتى 77

(6) ج . علي 2 / 59 / عن Straho 3 / 190

حملت قيصر بيزنطة (356 م) فيما بعد « قسطنطين الثاني » على إرسال بعثة نصرانية تبشر بالدين المسيحي وربما بالسياسة في « عدن » (1) .

ولم ييأس الرومان من فشل حملة ايليوس غالوس فقد أرسل القيصر « سبتيموس سيفيروس » حملة عسكرية ثانية (201 م) يقودها ابنه بالذات مما يظهر مدى اهتمامهم بجزيرة العرب . وتوغلت الحملة في العربية السعيدة وأنزلت الضربات بعرب البادية ، سكان الخيام ، ولكنها لم تحقق حلمها المنشود (2) .

إن هدف هذه الحملات جميعاً هو الاستيلاء على أرض البخور واللبان التي يقول عنها هيرودتس (3) بلاد « السبأي » أخصب تلك الأراضي « ثمارها المر واللبان والقرفة » . وقال عنها سترابو (4) : « ولقد أصبحت « السبأي » و « الجرعاء » بما لها من نصيب في تجارة الطيوب أغنى القبائل عامة . وقد روى بلينوس (5) عن آيليوس غالوس ما يلي : « فاقت « السبأي » الجميع ثروة لما في أرضها من أدغال ذات عطور ومناجم ذهب وهي تنتج العسل والشمع وإنها أغنى بلدان الأرض قاطبة » .

هذا عن اتصال الرومان بعرب الجنوب أما عن اتصالهم بعرب الشمال وخاصة عرب الشام فيمكننا الاستدلال على ذلك من الآثار التي تركها الرومان من بعدهم والتي لا تزال شاهداً حياً على وجودهم في هذه الديار . لقد ساد الرومان على هذه الأرض مدةً طويلة من الزمن وبنوا القلاع والحصون

(1) نفس المصدر : 2 / 63 عن Sanger p. 203

(2) نفس المصدر 2 / 67 عن Die Araber I,44

(3) حتى 77 عنه BK, XVI 4 / 25

(4) حتى 78 عن BK. XVI CH 19

(5) نفس المصدر عن BK 6 / 32

والمعابد في مدينة جرش « شرقي الاردن » ومدينة بعلبك « لبنان » ودير البلمند قرب طرابلس في شمالي لبنان أيضاً⁽¹⁾ . ورب سائل يقول : هل كان سكان منطقة جرش والبقاع وشمالي لبنان آنذاك من العرب ؟ إن الجواب على ذلك نستخلصه من أقوال المؤرخين . فجواد علي يقول : كان العرب يقيمون في لبنان وسوريا قبل الميلاد بزمان طويل . اشتغل قسم منهم بالزراعة فاستوطنوا وتولى قسم منهم حماية الطرق وحراسة القوافل وخاصة طريق الشام - تدمر - العراق⁽²⁾ . كما يؤيد ذلك اسم حاكم دمشق تحت امرة (الحارث) ، العربي ، على زمن بولس الرسول والذي سعى للقبض عليه ، فدلوه من كوة في زنبيل من السور ، لا يزال مكانها محجاً يزوره الناس⁽³⁾ .

كما أن في تاريخ الامبراطورية الرومانية اسماء رجال يرى بعض الباحثين من المؤرخين أنهم كانوا من أصل عربي منهم : الكسندر سيفيروس وفيليب العربي اللذان توليا عرش روما ، وعدد من أسرة « الزباء » ملكة تدمر وقد نالوا مراكز مرموقة في روما⁽⁴⁾ .

لقد كان لوجود الرومان في ديار العرب وخاصة في بلاد الشام وحملاتهم المتواصلة على العربية السعيدة تأثير كبير في مجالات شتى وخاصة في طرق العبادة .

(1) زيارة شخصية لجرش عام 1967 مع دليل وزارة السياحة الأردنية - زيارات متعددة لمياكل بعلبك ومشاهدة الآثار مع دليل وزارة السياحة اللبنانية - مقابلة مع بطريرك الروم الأرثوذكس (الكسندر طحان) عام 1958 وتحدثه عن تاريخ دير البلمند بحضور ملك اليونان بول والرئيس كميل شمعون .

(2) ج . علي 2 / 38

(3) 2 كورنثوس : 11 : 32

(4) ج . علي : 2 / 68 عن Die Araber 1, S. 4.

لقد عبد الرومان الأصنام وأهلوا الشمس وغيرها وربما تكون عبادة الشمس قد انتقلت الى العرب عن طريقهم .

7 - باليونان :

في أواخر القرن الرابع ق . م . شهدت بلاد العرب ، وخاصة الشمالية منها ، زحفاً عسكرياً غربياً ، على رأسه رجل جبار غريب الأطوار هو الاسكندر الكبير الذي قضى وبسرعة البرق على الامبراطورية الفارسية زعيمة بلاد الشرق واستولى على ارض واسعة مؤسساً امبراطورية يونانية تضم بلاد الرافدين ومصر والهلل الخصب وتنفذ من خلال هذه الأرض على البحر الأحمر والخليج العربي ومن ثم على أرض الجزيرة العربية .

إن الدراسات تشير إلى أن أول يوناني اتصل بالعرب وكان له علاقات معهم هو الاسكندر الكبير⁽¹⁾ ، الذي ، وبعد أن تخلص من الامبراطورية الفارسية ، أراد احتلال جزيرة العرب . إما طمعاً بالتوسع والسيطرة على بلاد الطيوب لما كان قد سمعه عنها ، أو ليجعل نفسه إلهاً ثالثاً للعرب كما يقول « أريان »⁽²⁾ حيث أن العرب كانوا يتعبدون لإلهين : « أورانسوس » و « ديونيسوس » بالإضافة الى جميع الكواكب وخاصة الشمس . وقد بادر الاسكندر بارسال قواده وخبرائه لاستكشاف أحوال الجزيرة ، وخاصة سواحلها ، ليتمم مشروعه ، فوصل بعضهم الى جزر « البحرين » والبعض الآخر الى « السويس » ولكن المنية عاجلته وهو في شرح شبابه فتوفي عام 323 ق . م . قبل أن يحقق هدفه .

(1) ج . علي : 2 / 5 وما بعدها عن F. Arrianus Book VII, 19 / 5 للكاتب .

(2) نفس المصدر

إن « أريان » يذكر مقاومة العرب لالاسكندر فيقول : عندما أراد هذا الفاتح احتلال غزة وهو في طريقه الى مصر قاومه رجل اسمه « باتس » ، ربما يكون في العربية ، باطش أي الفاتك ، مقاومة شديدة مدة خمسة شهور ، مستعيناً بجيوش عربية⁽¹⁾ . ويذكر المؤرخ هيرودوتس أن قبائل عربية كانت تحل ما بين غزة و « جانبسيس » ويحكمها ملك عربي⁽²⁾ وهذه القبائل على اتصال بطور سيناء منذ القديم . لقد كان الاسكندر رجلاً عمرانياً محباً للبناء ، وقد بنى وهو في بلاد المشرق عدة مدن منها : « Charax » على ملتقى نهر (كارون) بدجلة⁽³⁾ . وأسكن هذه المدينة اتباعه وجنوده ومواطنيه . ويظن المؤرخ (بلينيوس)⁽⁴⁾ أن « شاركس » هذه ربما تكون « المحمرة » الواقعة في النهاية القصوى من الخليج العربي على تخوم العربية السعيدة وقد عرفت باسم « كرخا » ومن الممكن أن يكون سبب بنائها ليس لسكنى الجنود والأتباع وحسب ، بل لتزاحم « جرها » في التجارة تستقبل بضائع افريقيا والهند والعربية الجنوبية ، وتعيد تصديرها بواسطة القوافل البرية عن طريق حائل - تيماء الى موانئ المتوسط ومصر ، أو الى العراق ومنه إلى الشام⁽⁵⁾ .

و « جرها » هذه رجّح بعض الباحثين أنها « الجرعاء » لسبب ورود اسم « Thaémon » وهو تميم معها⁽⁶⁾ . وقد ذكرها الهمداني فقال : « ثم ترجع الى البحرين والاحساء لتجد منازل ودوراً لبني تميم ثم لسعد من تميم ،

(1) نفس المصدر عن Arrianus: 1, p. 219.

(2) نفس المصدر عن Herodotus 1, p. 212.

(3) ج . علي 2 / 12

(4) نفس المصدر عن Persian. Gulf. p. 30

(5) نفس المصدر عن Cornwall بكتابه Ancient Arabia p. 30

(6) نفس المصدر 2 / 18 عن Forster II, p. 209

وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتبايع عليه العرب» (1) .

وإلى جانب هذه المدينة فقد بنى الاسكندر عدة مدن وأسكنها اتباعه ، كما حمل الفرس عدداً من أسرى اليونان وأسكنوهم في ساحل الخليج وأماكن أخرى . ومن الطبيعي لا بل من البديهي أن تترك سكنى هؤلاء أثراً في الشرق وأبنائه ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وحضارياً .

لم ينته أثر اليونان في المشرق بموت الاسكندر ، وقد انقسمت امبراطوريتهم الى شقين السلوقيون في الهلال الخصيب والبطالمة في مصر . وفي الحرب التي دارت بين (أنطيوخوس الثالث) ملك المشرق و « بطليموس » ملك مصر نرى العرب يساعدون أنطيوخوس فقد اشترك في القتال (218) قبيلة عربية إلى جانبه (2) . وعشرة آلاف عربي بإمرة « زبدائل » حاصروا معه مدينة غزة .

لقد كانت بعض أجزاء جزيرة العرب مسرحاً لجيوش المملكتين اليونانيتين تتسابقان لاحتلالها أو على الأقل للسيطرة على طرق القوافل والتجارة (3) . ويحدثنا المؤرخون والكتاب أن ملك مصر من البطالمة « بطليموس ساطر » أرسل جيشاً لمحاربة نده السلوقي « سلوقي نيقاطور » فاجتاز هذا الجيش سيناء الى غزة ومنها إلى « بطرا » قاطعاً بادية السماوة الى العراق (4) .

إن البطالمة اليونان قد حذوا حذو الاسكندر الكبير ، فأسكنوا مواطنيهم أماكن متعددة من السواحل العربية لحماية سفنهم التجارية ، كما فعل هو من

(1) نفس المصدر 2 / 18 عن الصفحة 173

(2) ج . علي 2 / 21 عن Araber: I, S: 24

(3) انظر خريطة رقم (5) على الصفحة التالية .

(4) نفس المصدر عن الطبري 1 / 703 « ليدن »



قبل حيث اسكن اليونان ، « كرخا » وجزيرة « سُقطري » بتأثير معلمه أرسطاطاليس ، الذين طردوا الهنود منها حاملين معهم صنمهم العظيم إلى بلادهم وبقي اليونانيون في سُقطري حتى مجيء المسيح فتنصروا جميعهم⁽¹⁾ .

لقد حمل اليونان معهم إلى بلاد العرب ثقافتهم وفلسفتهم ومعتقداتهم الدينية ، وحضارتهم . ولقد عُثر في خرائب « تمنع » على تماثيل وفخار . وفي مواضع أخرى عُثر على ضرب من النقود صُكَّ بعضه على زمن الاسكندر والبعض الآخر على أيام خلفائه⁽²⁾ . كما وُجدت في جزيرة « فيلكا » الكويتية كتابة يونانية على حجر ، احتفظ بها أحد الانكليز ، تشير إلى مقدمة من أحد اليونانيين واسمه « سوتيلس » ومن رفاقه الجنود إلى آلهتهم « زيوس المخلص وأرتيمس المخلصة وبوزيدون »⁽³⁾ .

كما عثرت بعثة دانمركية على كتابة مدونة على حجر مؤلفة من (44) سطراً تحمل اسراراً تاريخية مهمة ، منها رسالة من الملك السلوقي حوالى سنة 239 ق . م . إلى سكان جزيرة « فيلكا » الكويتية من اليونان تبين موافقته على رسالتهم في شأن عزمهم على اقامة معبد لهم وتعيين كهان لهذا المعبد⁽⁴⁾ .

من هذه الآثار التي عثر عليها المنقبون والعلماء ومن آثار عثروا عليها في الجزيرة بمصر ترجع بتاريخها إلى عهد البطالمة بمصر ، ومن وجود كتابات المسند في مصر ، نستدل على الصلات الوثيقة التي كانت بين العرب واليونان من جهة وبين العرب والمصريين من جهة ثانية وقد يرى الباحث إحدى هذه الكتابات

(1) البلدان : 3 / 227 صادر

(2) جواد علي : 2 / 31 / عن Boasoor 119

(3) نفس المصدر عن تقرير أناري من وزارة التربية الكويت ص 9 ، 27

(4) نفس المصدر عن Die Arabier 4, S, 68

وقد دونها رجل اسمه « زد ال بن زد » زيد ايل بن زيد من « آل ظرن » وقد كان كاهناً في معبد مصري ، يعترف بوجود دين عليه وواجب لتزويد بيوت آلهة مصر بالمرّ وقصب الطيب الذي كان يحرق في مذابح الهياكل^(١) .

الفصل الرابع

العرب والنصرانية

لقد عُرف « اتباع المسيح » بالمسيحيين والناصريين « النصارى » في كل الأجيال . فلماذا دُعوا كذلك ؟ ومن أين واتتهم هذه التسمية ؟

لا شك أنهم سُموا « مسيحيين » نسبة الى المسيح « له المجد » . والمسيح سُمي كذلك لأنه مقررز ومكرّس للخدمة والفداء⁽¹⁾ ودُعي المسيح « ناصرياً » لأن الملاك بشرَّ به ، مريم أمّه ، في مدينة الناصرة⁽²⁾ ، وإلى هذه المدينة عاد يسوع مع مريم أمّه ويوسف خطيبها من مصر⁽³⁾ . وفيها صرف يسوع القسم الأكبر من الثلاثين سنة الأولى من حياته⁽⁴⁾ ، ولهذا لُقّب ناصرياً ، نسبة إليها⁽⁵⁾ ، ولهذا لُقّب تلاميذه بالناصريين ومن بعدهم وإلى يومنا هذا عُرف المسيحيون بهذا الاسم . إن بطرس دعا يسوع ناصرياً⁽⁶⁾ ، وكذلك بولس⁽⁷⁾ ، وكُتب فوق رأسه على خشبة الصليب « يسوع الناصري ملك اليهود »⁽⁸⁾ . هذا عن تسمية اتباع المسيح كما ورد في الكتاب المقدس .

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 860

(2) لوقا 1: 26

(3) متى : 2 : 23

(4) لوقا : 3 : 23 ومرقس 1 : 9

(5) متى : 21 : 11 ومرقس 1 : 24

(6) أعمال : 2 : 22

(7) متى : 26 : 9

(8) يوحنا 19 : 19

أما القرآن الكريم فقد سُمّاهم النصاري ، وقد ذكر اسمهم في سورة البقرة⁽¹⁾ ثماني مرات ، وفي سورة المائدة⁽²⁾ خمس مرات ، ومرة واحدة في سورتي التوبة والحج⁽³⁾ ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصاري⁽⁴⁾ .

إن المدن التي عاش فيها المسيح وجاب شوارعها ووكد ومات فيها بعد أن أتم ما قد جاء لأجله ، كالناصرية وبيت لحم وأورشليم وأريحا وصور وصيدا ، هي مدن كان يسكنها ويقيم في جوارها عرب كما بيّنا وسنبين فيما بعد . ونستنتج من هذا أن أول اتصال للنصاري بالعرب تم بمؤسس المسيحية « يسوع الناصري » . والذي يتتبع أحداث العالم المسيحي من بعد ارتقاء السيد المسيح إلى السماء يرى « صفا » « بطرس » « الصخرة »⁽⁵⁾ وفي يوم الخميس ، لصعود المسيح إلى السماء ، يتكلم بلغة العرب إلى رجال عرب أتوا من كل حذب وصوب إلى أورشليم بمناسبة العيد⁽⁶⁾ وربما كانوا عرباً من اليهود ، فيقبل بعضهم كلامه بفرح ، ويعتمد وينضم إلى اتباع الديانة الجديدة⁽⁷⁾ . وهكذا نرى أن أساسات النصرانية قد وُضعت وبدأ اليهود بالتنصّر وكذلك الأمم⁽⁸⁾ . وتولى بولس « شاول »⁽⁹⁾ الرسول توصيل بشرى

(1) البقرة : 2: 62 و 111 و 113 و 120 و 135 و 140

(2) المائدة : 5: 14، 18، 51- 69- 82

(3) التوبة 9: 30 الحج 22: 17

(4) المائدة 5: 82

(5) متى : 16: 18 يوحنا : 1: 42

(6) أعمال 1: 12- 2

(7) أعمال 2: 41

(8) المقصود بالأمم كل انسان غير يهودي من أي جنس أو عرق أو نسب كان .

(9) شاول اسم بولس الرسول قبل تنصره . أعمال 8: 3

النصرانية الى أمم الأرض المعروفة آنذاك وبعد أن تحوّل بولس من مضطهد للمسيحيين⁽¹⁾ إلى مدافع عنهم من بعد تنصره⁽²⁾ قصد العربية وأقام فيها ثلاث سنوات⁽³⁾ ، ولم يُحدد الكتاب المقدس في أي منطقة من العربية أقام بولس ، أفى شهاها حيث كانت مملكة الأنباط تسود أم في عمقها . . . والمهم هو أن بولس الرسول اتصل بأناش عرب لدى انتقاله من دمشق الى أورشلیم ، ولا شك أنه كان يبذر بذاره ، الذي تلقاه من سيده « المسيح » ، ومن معلمه النصراني الدمشقي « حنانيا » ، في نفوس من اتصل بهم وصادفهم في مسيرته هذه . وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن مقام حنانيا لا يزال معروفاً في دمشق حتى الآن والكوة التي أنزل منها بولس في « زنبيل » لا تزال أيضاً معروفة في سور دمشق⁽⁴⁾ .

ولكن انتشار النصرانية لاقى من الصعوبات ما يحده عن سرعة التقدم ، فسار سير السلحفاة في القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وما ذلك إلا لوقوف الوثنيين من جهة وعلى رأسهم أباطرة روما ، والعبرانيين ، من جهة ثانية ، وتعصبهم ليهوديتهم . وكلا الفريقين رأى في الدين الجديد انهياراً لمعتقدات آبائهم وأجدادهم . ولكن قطار النصرانية لم يتوقف في هذه القرون الثلاثة ، وإن كان يسير ببطء فقد انتشرت النصرانية في كل أنحاء المملكة الرومانية في آسيا وأفريقيا وأوروبا⁽⁵⁾ . وقد ساح أحد معلمي كنيسة الاسكندرية في النصف

(1) أعمال 8: 3

(2) أعمال 9: 3 وما بعدها .

(3) غلاطية 1: 16-22

(4) كنيسة القديس حنانيا حيث كان يقيم والكوة ، قرب « باب شرقي » في سور دمشق قمت بزيارتها عدة

مرات آخرها عام 1979 م .

(5) تاريخ الكنيسة ص 38-39 عرّبه عن الروسية . الكسندروس مطران حص

الأول من القرن الثالث واسمه « أوريجان » في العربية واعظاً ومبشراً ، ومن جملة من وعظهم أحد امراء العرب (١) . ولما استتب الأمن والسلام للنصرانية وأخذت حرية تحركها بمرسوم امبراطوري من قسطنطين الكبير عام 313 م (٢) بدأت تقيم لها مراكز دينية ثابتة ينتشر منها المبشرون الى من جاورهم من الأمم . وقد كان هناك ثلاثة مراكز نصرانية مجاورة لبلاد العرب ، هي : سورية في الشمال الغربي ، والعراق في الشمال الشرقي ، والحبشة في الغرب والجنوب (٣) . فمن بيت المقدس ودمشق وانطاكية انطلق المبشرون إلى حيث العرب ، وبدأنا نسمع عن أساقفة بصرى وتدمر ، وذلك قبل نهاية القرن الثالث الميلادي (٤) وانتشرت النصرانية بين العرب المقيمين في بلاد الشام ، عمال بيزنطية ، عنيت بهم الغساسنة والذي قال في مدحهم حسان بن ثابت :

لله درُّ عصابة نادمتهُم يوماً بجلُّ في الزمان الأول (٥)

وفي الشمال الشرقي من الجزيرة العربية ، تأصلت المسيحية في الرها ونصيبين وإربل وجنديسابور وسلوقية طيسفون التي أصبحت مركزاً لبطاركة « النساطرة » (٦) . ومن هناك انتشرت في بلاد البحرين وعمان ، وتحول الكثير من عرب الحيرة الى النصرانية وعُرفوا بالعباد (٧) وقد دان بالنصرانية بعض قبائل

(1) نفس المصدر 40

(2) نفس المصدر 64

(3) تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص 482 . عبد العزيز سالم

(4) تاريخ العرب في العصر الجاهلي د . عبد العزيز سالم ص 482

(5) البلدان 2 / 154 صادر .

(6) نسطور بطريك القسطنطينية قال بالطبيعة الواحدة الانسانية للمسيح حكم عليه بمجمع افسس عام 431

(7) أديان العرب في الجاهلية 204

محمد نعيان الجارم ، القاهرة 1923

العرب النازلة بجوار الحيرة وبلاد الشام . منهم : غسان وتغلب وتنوخ ولخم وجذام وسليح وعاملة (١) .

لقد كان للهاريين من المملكة البيزنطية بسبب الاضطهاد « الهراطي » ، فضل كبير في نشر المسيحية في البلاد العربية ، وفي القرنين الرابع والخامس للميلاد امتدت جذور المسيحية الى أقصى جنوبي غربي الجزيرة ، الى العربية السعيدة ، فقد أشار تاريخ الكنيسة الى أن الامبراطور « قسطنطين » قد أرسل في عام 320 م تيوفيل الهندي ، الذي تربى في القسطنطينية تربية مسيحية أريوسية (٢) بعد أن سيم أسقفاً ، الى اليمن إلى « الحميريين » القبيلة المتحضرة ، وذلك لتأمين حرية المعتقد للتجار المسيحيين وقد نجح هذا الرسول واستطاع أن يُنصّر رئيس القبيلة على الطريقة الأريوسية (٣) . أما النساك ساكنو القفار ، والرهبان ، فقد استطاعوا تنصير الكثير من القبائل العربية البدوية نذكر منهم الناسك موسى الذي نصّر بعض البدو حتى إن ملكة إحدى القبائل « ما في » والتي كانت بحروب مع الرومان طلبت تنصيبه أسقفاً عند عقد الصلح معهم عام 372 م . وكذلك فعل البار افثيموس في بداية القرن الخامس الميلادي فقد نصّر قائد إحدى القبائل العربية ، وعمل على سياحته أسقفاً تحت اسم بطرس « للكنائس الحربية » (٤) والمقصود بالكنائس الحربية القبائل الغازية وغير المستقرة . هذا فضلاً عن رهبان جبل سيناء وما قاموا به من بشارة بين من جاورهم من القبائل العربية

(١) ج . علي 6 / 599

(٢) نسبة الى أريوس الذي لم يقتنع بأن الأب والابن من جوهر واحد إذ أن المسيح مخلوق وقد حكم عليه

في مجمع نيقية عام 325 م قصة الحضارة 11 / 395

(٣) تاريخ الكنيسة المسيحية ص 194 قصة الحضارة 11 / 395

(٤) تاريخ الكنيسة المسيحية 195

وسمعان العامودي ناسك حلب أدهش البدو بورعه وتقواه فنصّر
الكثيرين (1) .

وقد وصلت النصرانية الى بلاد الحبشة في افريقيا . والحبشة جارة
الجزيرة من الغرب ولها صلات قديمة بها (2) ومن الحبشة انتقلت المسيحية
اليها ، كما ورد لها بعض المبشرين من الشمال للتبشير فيها ، نذكر منهم فيميون
الراهب الذي حمل أهل نجران على النصرانية وأسس بها كنيسة يعقوبية (3) .
وقد تركزت النصرانية في نجران وصنعاء وخاصة عند الغزو الحبشي الثاني
لليمن عام 525 م . ولقد أراد أبرهة الحبشي أن يجعل من كنيسة نجران كعبة
يجج إليها العرب ليصرف أنظارهم عن كعبة ابراهيم في مكة (4) . وفي هذه
الكعبة يقول الأعشى :

وكعبة نجران حتمٌ عليَّ كِ حتسى ثناخسى بأبوابها
زورُ يزيداً وعبد المسيح وقيساً همُ خيرُ أربابها (5)

والسبب المباشر لمجيء حملة أبرهة إلى اليمن فيما يبدو هو قتل أهل نجران
النصارى ، الذين بشرهم فيميون ، على يد ذي نوّاس الحميري اليهودي
المتعصب صاحب الأخدود ، الذي ذكره القرآن الكريم ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ
الْأَخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . . . ﴾ الخ الآية (6) .

(1) نفس المصدر

(2) انظر صلة العرب بالحبشة فيما تقدم

(3) سيرة ابن هشام 1 / 33 وما بعد .

(4) انظر صلة قدامى العرب بالأحباش .

(5) البلدان : 5 / 268 صادر .

(6) البروج 4-8

وقد روى « ابن هشام » أن ابن اسحاق قال : كان فيمن قتل ذو نواس عبد الله بن الثامر ، رأسهم وإمامهم . وقد وجدت رفات ابن الثامر هذا في خربة من خرب نجران زمن عمر بن الخطاب والرجل قاعد يضع يده على ضربة في رأسه ، فإذا أزيحت يده سال الدم من موضع الضربة ، وإذا تركت أمسك الدم ، وفي يده خاتم مكتوب فيه « ربِّي الله » ، وكتب الى عمر في أمره ، فأمر أن يقرّوه على حاله ويردّوا عليه الدفن كما كان عليه (1) .

وبقصة عبد الله بن الثامر وإيجاد جسده بعد زمن ولم يبل وبروايات أخرى رواها الأخباريون عن حمزة بن عبد المطلب وغيره ، قورن القول في القرآن الكريم عند بعضهم ، ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يُرزقون ﴾ (2) .

وهكذا نرى أن النصرانية بدأت تتسرّب من الشمال ، والجنوب الغربي ، إلى أواسط الجزيرة العربية عن طريق من ذكرنا من المبشرين والرهبان والتجار النصارى . وهذه هي « دومة الجندل » في عهد محمد (ﷺ) الذي تصالح مع أميرها « الأكيدر » النصراني على الجزية بعد أن افتتحها خالد بن الوليد (3) .

أما مدينة « أيلة » الواقعة على ساحل بحر « القلزم » (4) « الأحمر » فقد كان اسم صاحبها على زمن الرسول « يوحنا بن رؤبة » ومن اسمه يُستدل على نصرانيته ، وقد تصالح يوحنا هذا مع الرسول على الجزية (5) . وقد ورد اسم

(1) السيرة النبوية 1 / 36

(2) سورة آل عمران 3 / 169 والسيرة 1 / 37

(3) البلدان 2 / 487

(4) البلدان 1 / 292

(5) نفس المصدر

يوحنا في بعض المجامع الدينية على أنه اسقف أيلة والشرارة (1) .

وقد كان في وادي القرى جماعة من الرهبان نستدل على وجودهم من شعر جعفر بن سراقه أحد بني قرة الذي يقول :

فريقان : رهبان بأسفل ذي القرى وبالشام عرافون فيمن تنصّرا (2)

أما قبيلة طيء فقد وجدت النصرانية إليها سبيلاً ، وقد كان عدي بن حاتم الطائي نصرانياً ، ولما جاء الاسلام دخل في الدين الجديد (3) .

ومدينة يثرب ! ألم تدخل النصرانية إليها ؟ إنه كان يسكنها بعض المسيحيين وبقوا فيها حتى الهجرة وبعد موت الرسول وهذا ما نفهمه من شعر لحسان بن ثابت الشاعر المخضرم في رثائه للنبي :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد (4)

وكان من بين سكان مكة ، عند ظهور الاسلام ، غرباء مستوطنون بعضهم من النصارى ، ومن المرجّح أنهم دخلوا هذه المدينة تجاراً ومبشرين وحرفيين وأيضاً أرقاء ، وكان بعضهم يعرف القراءة والكتابة ولا يستبعد أن يكونوا قد أثروا في محيطهم ونصّروا البعض من أهل مكة . فقد كان الناس يختلفون إلى مجالسهم ومساكنهم لسماع قصص الأقدمين من الأنبياء ومن المرجّح أن الرسول كان يُعرّج على منازل بعضهم كما يروي ابن هشام « وكان رسول الله (ﷺ) - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المرأة إلى مبيعة غلام

(1) النصرانية 448

(2) الأغاني 7 / 101 دار الفكر بيروت

(3) المشرق : السنة الثامنة العدد 11

(4) ديوان حسّان ص 64 دار احياء التراث العربي « بيروت » .

نصراني ، يقال له : جَبْرٌ ، عبد لبني الحضرَمي ، فكانوا يقولون : والله ما
يعلمُ محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جَبْرُ النصراني « (1) وقد اتُّهم من أهل
مكة ، إنما يتلقى رسالته من جبر هذا الذي سمَّاه بعضهم سلمان ، ويسار ،
ويعيش وبلعام (2) وقد ردَّ القرآن الكريم على القرشيين بقوله : ﴿ ولقد نعلم
أنَّهُم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا
لسان عربي مبين ﴾ (3)
وأيضاً :

﴿ وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم
آخرون ﴾ (4)

لقد كانت مكة عند ظهور الإسلام تحتوي على عدد كبير من العبيد من
جملتهم الأحباش النصارى وقد ترك هؤلاء أثراً في لغة أهل مكة تدل على أثرهم
في المجتمع . وقد أشار العلماء الى ورود بعض ألفاظهم في القرآن
والحديث (5) . ويقول ابن هشام : إن شماساً قدم مكة في الجاهلية فعجب
الناس منه (6) .

وكان في مدينة الطائف نفر من الموالي النصارى منهم « عداس »
النينوي الأصل والذي كان مملوكاً لعبة بن ربيعة ، والذي قابل الرسول عند

(1) السيرة النبوية 1 / 393

(2) ج . علي 6 / 603

(3) سورة النحل 16 / 103

(4) الفرقان 25 / 4

(5) ج . علي 6 / 606 عن المعرب 202

(6) السيرة 1 / 326

ذهابه الى ثقيف (1)

أما اليمامة والتي عدّها ياقوت من نجد وسمّاها (جوا) (2) فقد دخلتها النصرانية ووصلت الى حكامها ونستدل على ذلك من شعر للأعشى يمدح فيه (هودة بن علي) حاكمها الذي منّ على الشاعر ففكّ وثاق قوم من تميم يوم الفصح تقرباً للإله .

بهم تقرب يوم الفصح ضاحية ، يرجو الإله بما سدّى وما صنعاً (3)

أما العربية الشرقية فقد دخلتها النصرانية من الشمال من « الحيرة » ومن البحر من تجار الروم ، فوجدت سبيلاً الى البحرين وقطر وهجر وبعض جزر الخليج وكانت النصرانية في هذه البلاد على المذهب النسطوري ، مذهب نصارى العراق وفارس . والذي كان منتشراً في تلك البقاع ، وكان لأتباعه عدة أساقفة في مواقع من الخليج العربي (4) .

أما العربية الجنوبية فقد رأى بعضهم أن « ثيوفيلوس » رسول قسطنطين الكبير ملك بيزنطية ، هو صاحب الفضل الأكبر بحمل رسالة النصرانية الى تلك البقاع . فقد نصّر هذا الأسقف عرب اليمن وأنشأ كنيسة في ظفار وأصبح رئيس أساقفتها مما يوحي بأنه أقام أساقفة آخرين للاهتمام بشؤون الكنائس المنشأة ومن ظفار كان يشرف على كنائس اليمن والعربية الجنوبية والخليج ومن ضمنها كنيسة نجران (5) .

(1) السيرة 2، 1 / 421 دار الكنوز الأدبية .

(2) البلدان 5 / 442

(3) الديوان 110 المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت

(4) ج . علي 2 / 648 عن Belgrave p. 61

(5) ج . علي 3 / 457 عن Grohman S, 29.

وقد ترك النصارى بصمات عديدة تدل على وجودهم في أرض العرب الجنوبية مدة طويلة من الزمن^(١) . كما أن آثار الكنائس لا تزال موجودة هناك وفي أماكن أخرى كمدينة جرش^(٢) الواقعة اليوم في شرقي الأردن . وهي إحدى مدن الكورة العربية على زمن الرومان والتي كانت مركزاً لأسقفية معروفة قبل الإسلام^(٣) .

قلنا سابقاً أن النصرانية وجدت سبيلاً إلى عدة قبائل عربية كانت تقيم في نجد والحجاز وقرب الحيرة وبر الشام ، نذكر منها على سبيل المثال قبائل بكر وتغلب^(٤) وكندة . فمن بكر كان جساس ومن تغلب كليب وأخوه المهلهل وجساس وكليب هما سبب حرب البسوس التي عملت على تفتح عبقرية المهلهل الشعرية فكان كما قيل عنه أول من قصّد القصائد وأطالها . . . وإذا صحت هذه الرواية فيكون المهلهل الشاعر النصراني من أقدم شعراء العربية الذين طبقت شهرتهم الآفاق

أما كندة فقد أنجبنا امرأ القيس أمير شعراء الجاهلية والذي قال فيه الفرزدق : « امرؤ القيس أشعر الناس »^(٥) .

وعنزة العبسي ويظهر أنه انتمى إلى النصرانية^(٦) فقد خلدت ذكره

(١) راجع صلة قدامى العرب بالأحباش .

(٢) قمت بزيارة المدينة عام ١٩٦٧ وشاهدت كنيسة البيزنطية « القالب » والتي لا تزال سمات النصرانية في أرض الكنيسة بين أحجار الفسيفساء .

(٣) ج . علي ٦٧ / ٣ عن Ency l, p. 1017

(٤) حتى ١٣١

(٥) أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي جهرة أشعار العرب ص ٨٠ دار بيروت

(٦) حتى ١٤٠

ملحمته التي لا يزال العرب وعلى مر عصورهم يتناشدونها وهي نموذج البطولة والفروسية .

إن هؤلاء الشعراء وغيرهم كعدي بن زيد العبادي وورقة بن نوفل ، إن صحت نصرانيتهم فيكونوا قد وضعوا مع غيرهم أسس التراث العربي وبذور حضارتهم ألا وهو الشعر العربي ديوان علوم العرب ومرآة حياتهم وسجل أعمالهم الخالد . وسوف نرى في فصول لاحقة مدى تأثير النصرانية على نفوس العرب من خلال شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم وكما يُعرف عن الشاعر القديم إنه لسان القوم وناقل أحاسيسهم ومشاعرهم ومصور حياتهم . ولننظر إلى بعض قول ورقة بن نوفل⁽¹⁾:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يفسركم أحد ⁽²⁾
لا تعبدون إلها غير خالقكم	فان دعوكم فقولوا بيننا جدد
سيحان ذي العرش سيحانا نعوذ به	وقبل قد سبّح الجسودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له	لا ينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شيء مما نرى تبقى بشاشته	يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عادُ فما خلدو ⁽³⁾

(1) هو ابن عم خديجة ، زوجة الرسول ، أخي أبيها . وكان قد تنصر في الجاهلية وكان يقرأ و يكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء . الأغاني 3 / 14 دار الفكر للجميع (بيروت) .

(2) كلمة أحد كان يرددها بلال قبل الاسلام عندما يعذبه أهل مكة برمضاء مكة . نفس المصدر

(3) الأغاني 3 / 14 دار الفكر للجميع بيروت .

ويقول أيضاً

أدينُ لربِّ يستجيب ولا أرى أدين لمن لا يسمع الدهر داعياً
أقول إذا صليتُ في كل بيعة تباركتَ قد أكثرتُ باسمك داعياً⁽¹⁾
وعدي بن زيد الذي قال فيه الأصمعي وأبو عبيدة « إنه في الشعراء
بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها »⁽²⁾ قال وهو في سجنه
الذي وضعه فيه النعمان ملك الحيرة .

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك وربُّ مكة والصليب
فإنني قد وكلت اليوم أمري إلى ربِّ قريب مستجيب⁽³⁾
ويقول أيضاً يعاتب النعمان ويعتذر :

أبلغ النعمان عني مالِكاً قول من قد خاف ظناً فاعتذر
إنني والله فاقبل حلفي لأبيل كلما صلَّى جأراً⁽⁴⁾
وهكذا نرى عدداً بن زيد يشير في شعره إلى عقيدته بوجود رب واحد
مستجيب مسبِّح « هو الله » فيقول أيضاً مشيراً إلى الموت الذي لا يبقى ولا يذر
والى الجنة والنار ذاكراً إبليس ولأول مرة في الشعر الجاهلي وربما قد عرف هذه
التسمية للشيطان من الروم عندما كان رسول كسرى إليهم « هرمر بن أنو
شروان »⁽⁵⁾ وإبليس في اليونانية « ديابولس » وقد ترجمت الى العربية بكلمة
إبليس⁽⁶⁾ .

(1) الأغاني 3 / 16 دار الفكر للجمع بيروت .

(2) الأغاني 2 / 18

(3) الأغاني 2 / 24

(4) الأغاني 2 / 25 أبيل « اسم للمسيح » .

(5) ج . علي 6 / 663

(6) قاموس الكتاب المقدس ص 15

وهكذا وردت في انجيل متى⁽¹⁾ : إبليس - الروح - المجرّب -
شيطان ،

إن عدياً بن زيد يقول :

وأهبط الله إبليساً وأوعده نارا تلهبُ بالأسعار والشرر⁽²⁾
كما يذكر عدي كتابه الذي يؤمن به فيسميه كتاب الله .

ناشدتنا بكتاب الله حرمتنا ولم تكن بكتاب الله تقتنع⁽³⁾

ويروي لنا حكاية الخلق كما عرفها من التوراة ولم ينفِ المسيحيون يوماً
من الأيام ما جاء في التوراة من أمور إلهية . فيقول :

كانت رياحاً وماء ذا عرائية	وظلمة لم يدع فتقاً ولا خلا
فأمر الظلمة السوداء فأنكشفت	وعسزل الماء عما كان قد شغلا
وبسط الأرض بسطاً ثم قدرها	تحست السماء سواء مثل ما فعلا
وجعل الشمس مصراً لاخفاء به	بين النهار وبين الليل قد فصلا
قضى لستة أيام خلألقه	وكان آخر شيء صور الرجال
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له	بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا ⁽⁴⁾

وهذا الكلام نراه موافقاً لما ورد في الكتاب المقدس⁽⁵⁾ . والقرآن
الكريم⁽⁶⁾ وإذا وافقت كلمات الشاعر ما ورد في القرآن الكريم ، فلا يعني

(1) متى 4: 1-11

(2) النصرانية (168)

(3) شعراء النصرانية 472

(4) النصرانية (254)

(5) تك 2 / 7

(6) أنظر مادة « يَسُطُ » في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

هذا بنظرنا أن هذا الشعر منحول وقد قيل بعد الاسلام . فسؤالنا على هذا . ما الغاية من نحله ونسبه الى عدي بن زيد ؟ ألأن الشاعر كان على مذهب القائلين بالقضاء والقدر ؟ ان هذا لا ينفي نسبة الشعر إليه فبعض النصاري على زمن عدي وقبله وبعده وحتى يومنا هذا يعتقدون بالقضاء والقدر استناداً الى قول السيد المسيح ، « شعور رؤوسكم أيضاً جميعها محصاة »⁽¹⁾ « ولكن شعرة من رؤوسكم لا تهلك »⁽²⁾ إلا بإذن أبيكم الذي في السماوات .

(1) لوقا 12 / 7

(2) لوقا 21 : 18



خارطة رقم (6)

الفصل الخامس :

دول نشأت في شبه جزيرة العرب ما قبل الاسلام

1 - السبئيون :

إن كلمة سبأ قد وردت في القرآن الكريم في موضعين : ﴿م﴾ - ﴿فمكت غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين﴾ ﴿١١١﴾ . ب - ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ ﴿١٢﴾ .

كما وردت في الكتاب المقدس بمواضع كثيرة . وقد عزا نسب « سبأ » الى كوش بن حام بن نوح^(١) . وذكر أن بلاد سبأ واقعة في جنوب جزيرة العرب وقد ورد ذكرها مع مصر والحبشة . وقد حكى الكتاب المقدس أن ملكة سبأ قد زارت الملك سليمان بعدما سمعت عن حكمته وسماها ملكة التيمن أي ملكة الجنوب . والتقاليد العربية تسميها بلقيس وتولدها ابناً من سليمان كما يرجع التقليد الحبشي سلسلة ملوك الحبشة الى سليمان عن طريق هذه الملكة^(٤) .

لقد كان سكان سبأ أهل حضارة وما بقاياهم^(٥) إلا دليلنا القاطع على

(١) س النمل 27: 22

(٢) س سبأ 34 / 15

(٣) تك 10: 7

(٤) قاموس الكتاب المقدس ص 452 وما بعدها

(٥) آثار بسند مأرب وآثار الهياكل

ذلك اشتغلوا بتجارة الذهب والعطور وحاصلات الهند والحبشة وانتشروا في الأراضي المحيطة بهم فوصلوا شمال غربي بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد ووصلوا الى شمال الصحراء الى بلاد الشام⁽¹⁾ في أيام الآشوريين .

لقد عبد السبئيون الشمس وأقاموا بعاصمتهم مأرب سداً عظيماً ذا شهرة واسعة وبنوا بعاصمتهم هيكلاً للآله « المقة » أي القمر . وقد اكتشف هذا الهيكل حديثاً ووجدت فيه أعمدة ضخمة وأسوار منيعة وتماثيل رائعة وأشياء تدل على بدائع الفن⁽²⁾ ، مما يشهد على عظم حضارة هذا الشعب .

(ح) « وسبأ عند الأخباريين هو » سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان « ومن أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده ، وقد قالوا : إن اسمه الحقيقي عبد شمس وأما سبأ فلقب له ، لأنه أول من سبأ ، وأدخل السبايا اليمن . وقد روى الأخباريون شعراً على لسان علقمة بن ذي جدن في هذا المعنى :

ومنا الذي لم يسبأ قبل سبائه سبأ ، ومن دان الملوكة مرارا⁽³⁾

ومما جاء في « اللسان » عن سبأ : أنها حي من اليمن واسم لقبيلة . وضرب المثل بفرقهم بعد سيل العرم فقيل : ذهبوا أيدي سبأ وقد قال ذو الرمة :

فيا لك من دارٍ تحمّل أهلها أيادي سبا بعدي ، وطال اجتناها⁽⁴⁾

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 453 و ملوك أول 10: 1

(2) نفس المصدر

(3) تاج العروس 10 / 169

(4) اللسان 14 / 37 مادة (س ب ي) صادر

إن سبأ كانت مملكة في جنوبي الجزيرة العربية وقد حكمها ملوك تلقبوا بـ(مكرب سبأ) و (ملك سبأ) وقد توسّع حكمهم وامتد ويفسر هذا التوسع لنا النقوش التي دلت على ألقاب ملوكهم : « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمن وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم » .

كما تدلنا الكتابات التي عثر عليها المنقبون أن ملوك سبأ كانوا على علاقة ما بملك أشور وخاصة « سرجون الثاني » الذي تسلم هدايا من عدد من الملوك ، من جملتهم الملك « يثع أمر » السبئي والملكة « شمس » ملكة (عريبي) ربما كانت علاقات صداقة وحسن جوار وربما كانت علاقات رهبة وخوف . ومثال ثان على علاقة السبئيين بملوك أشور وخاصة سنحاريب ، تسلم هذا الأخير أحجاراً كريمة وعطوراً من « كرب إيلو »⁽¹⁾ .

إن أهم الوثائق التي تتعلق بأخبار سبأ والتي تُعد من أهم ما وصلنا عن أخبار الحكام الجاهليين ، هي الكتابة التي عثر عليها في مدينة « صرواح » وتتعلق بأعمال المكرب (كرب ايل وتر) ، بدأها بذكر الآلهة والثناء عليها وذكر تقديم الذبائح لها واكساء الأصنام ثم ذكر الأعمال العمرانية والحربية⁽²⁾ .

من أشهر مدن السبئيين بعد مأرب مدينة « صرواح » التي أصبحت عاصمتهم ومقر سكن ملوكهم . . . فيها معبد الإله « المقه » القمر إله سبأ .

وقال « أبو الدمينه » سعد بن خولان منشداً لبعض أهل خولان :

وعلى السذي قهر البلاد بعزة سعد بن خولان أخي صرواح

(1) جواد علي : 2 / 280 عن Eney. Brita. Vol: 19.

(2) نفس المصدر 2 / 287 عن النص .

وقال عمرو بن زيد الغالبي :

أبونا السدي أهدي السروح بمأرب فأبت الى صرواح يوماً نوافلة
لسعد بن خولان رسا الملك واستوى ثمانسين حولا ثم رجّت زلازله

وقال آخر فيهم :

تششوا على صرواح خمسين حجة ومأرب صافوا ريفها ، وتربعوا (1)

٢ - مملكة حضر موت :

لقد ظهرت هذه المملكة ، قبل الميلاد ، في العربية الجنوبية معاصرة مملكتي معين وقبآن ، وما زال اسمها حياً يطلق على مساحة واسعة من الأرض و « حَضْرَ مَوْت » اسم عبري معناه « قسرية الموت » وحضر موت ولد لـ « يقطان » « بن عابر » بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح (2) وقد سكن أبناء يقطان مقاطعة في الجزيرة العربية يكثر فيها اللبان والمر يمكن هواءها ليس صحيحاً ، لذلك سميت بهذا الاسم (3) .

وقد عرف الرومان واليونان بها فوردت عند مؤرخيهم بـ (Hadramyta) (4) و (Chathramétae) (5) وقال مؤلف كتاب « الطواف حول البحر الاريثيري » إن في حضر موت مناطق موبوءة يتجنبها الناس (6) .

(1) البلدان 3 / 403

(2) تك 10: 26

(3) قاموس الكتاب المقدس : 310

(4) ج . علي 2 / 129 عن (تيوفراستوس)

(5) نفس المصدر عن بطليموس .

(6) نفس المصدر عن Beiträge S. 87

وقد قال ياقوت عنها أنها ناحية واسعة في شرقي عَدَن بقرب البحر ، وبها قبر « هود » وفيها يقول عمرو بن معدي يكرب :

والأشعثُ الكنديُّ ، حينَ إذْ سَمَّالنا من حضر موت ، مُجَنَّبُ الذِّكرانِ
قَادَ الجِيَادَ ، عَلَى وَجَاهِهَا أَشْرِيَا قُبَّ البطونِ نَوَاحِلَ الأبدانِ⁽¹⁾

وعند ظهور النبي (ﷺ) دخل أهل حضر موت في طاعته ولكن بعضهم ارتد عن الاسلام بعد موت النبي بقيادة حارثة بن سراقة بن معدي مكرب الذي قال :

أطعنا رسول الله ما دام بيننا فيا قومُ ما شَأني وشَأْنُ أبي بكر ؟
أيورثها بكرا ، إذا مات ، بعده فتلِكَ ، لعمرُ الله ، قاصمةُ الظهر⁽²⁾

عاصمة حضر موت مدينة « شبوة » وربما أتت هذه التسمية من « شبا » وهو أحد أبناء يقطان⁽³⁾ . وقد ذكرها الشاعر بشر بن أبي خازم بقوله :

ألا ظعنَ الخليطُ غداة ريعوا بشبوة ، والحطِيْ لَنَا خضوع⁽⁴⁾

لقد كان أهل حضر موت تحاراً ماهرين ، وكان لمينائهم البحري (Cana) (قنا) شهرة واسعة ، فيه يُجمع اللبان والبخور وترسو فيه السفن الآتية من مصر والهند ومنه تنطلق القوافل البرية المتجهة الى الغرب والشمال وقد سماه بعضهم اليوم بحصن غراب .

(1) البلدان 22 / 270 صادر

(2) البلدان 2 / 271

(3) تك 10 / 26

(4) البلدان 3 / 323

لقد عُثر على كتابات تدل على اسماء ملوك حكموا حضر موت منهم (صدق آل) و (معد يكرب) و (أب يزع) ، كما ذكرت بعض هذه الكتابات اسم إحدى مدنها وهي « حصن أنود » وأن الملك (العزيط) المقيم في هذه المدينة قد استقبل ضيوفاً وفدوا عليه من (هند) و (تدمر) ، وآراميين جاءوا من (كشد) فاستقبلهم ومعه عشر نساء قرشيات في الحصن (1) .

والمتبصر بهذه الكتابة يستخلص دروساً وعبراً كثيرة ، ويرى مدى أهمية هذا النص من حيث اتصال شعب حضر موت بسكان الهند وتدمر والآراميين . وهل يعقل أن تكون هناك علاقات بشرية بين شعب وشعب هدفها التجارة للتجارة فقط ؟ أم لا بُدَّ أن تترك هذه العلائق بصمات انسانية في طرق العيش والعادات والتقاليد وطقوس العبادات وغيرها ؟

لا شك أن عرب الجاهلية بمجملهم كانت لهم مثل هذه العلاقات فأثروا وتأثروا وإن كان الجواب عن أسئلتنا بلا فليهاذا يحتضن قصر هذا الملك عشر نساء قرشيات ؟ وما هو عمل أولات النساء ؟

لقد نشأت مملكة حضر موت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت بنهاية القرن الأول للميلاد (2) .

3 - دولة قتيان :

لقد ظهرت هذه الدولة في القرن الرابع قبل الميلاد (350-400 ق . م) ولم تعمّر طويلاً وقد عاصرت مملكة معين وكان موطنها في نواحي عدن (3) .

(1) ج . علي 2 / 145 عن Le Muséon 1964

(2) حتي : 89

(3) البلدان : 4 / 310 صادر

كما يقول ياقوت الحموي ، وفي القسم الغربي من العربية الجنوبية ، وغرب وجنوب مملكة سبأ⁽¹⁾ ، وشرقي عدن على حسب رأي فيليب حتي⁽²⁾ ، الذي حدد مدة وجودها بخمسين عاماً وذكر عاصمتها تمنع (كحلان اليوم) التي قال عنها ياقوت أنها من أشهر مخاليف اليمن وفيها « بينون ورعين » وهما قصران عجيبان . وقد ذكر امرؤ القيس قصر رعين في شعره إذ قال :

ودار بني سؤاسة في رعين تحرّ على جوانبه الشمال⁽³⁾

وإلى جانب تمنع العاصمة التي طبقت شهرتها الآفاق ووصلت أخبارها إلى اليونان والرومان ، هناك مدينتا « شور » و « حريب »⁽⁴⁾ .

لقد عثر المنقبون على رسوم وتمائيل في مدينة تمنع تشبه إلى حد بعيد تماثيل الآلهة اليونانية⁽⁵⁾ . وهذا دليلنا على أن العرب كان لهم صلات وعلاقات بالشعوب القديمة « اليونان والرومان » وغيرهم ، مما يشير على تأثيرهم بعبادات تلك الشعوب وتأثيرهم فيها .

لقد تلقب حكام قتيان ، كحكام سبأ ، بلقب « مكرب » وترجم هذه الكلمة إلى « مقرب » في عربيتنا الحاضرة ، وتعبر عن التقرب إلى الآلهة والهيكل . وما المكرب سوى الكاهن الحاكم باسم الآلهة⁽⁶⁾ . وقد عبد

(1) ج . علي 2 / 171 عن Ency: 2-810

(2) تاريخ العرب 89

(3) البلدان : 4 / 439 صادر

(4) ج . علي : 2 / 223 عن Ency : 2-811

(5) قارن ذلك بين لوحات 8 أ و 8 ب و 8 ج و 8 د في كتاب العرب في العصور القديمة للطفي عبد الوهاب

يحيى .

(6) ج . علي 2 / 172 عن Handbuck

القتبانيون الإله « عما » الذي عبده أيضاً المعينيون والسبئيون الذين انتسبوا إليه فسموا أنفسهم بـ « ولد عم » كما عبدوا آلهة أخرى عُرفت أسماؤها من النقوش المتبقية من آثارهم وهي : « أبني » و « ذات صنتسم » و « ذات ظهران »⁽¹⁾ .

لقد كان للقتبانيين شأن كبير في تنظيم تجارة الأفافية التي أوصلوها الى شمالي الجزيرة وإلى الحبشة .

4 - الدولة المعنية :

تُعد هذه الدولة من أقدم الدول في العربية الجنوبية التي بلغنا خبرها (1300- 630 ق . م) على رأي بعض العلماء وما جاء في كتابات المسند والكتب الكلاسيكية⁽²⁾ . نشأت وازدهرت في جوف اليمن ، وغطت سلطتها في أوج عزها معظم أرض الجزيرة الجنوبية . وقد حدّد موقعها « سترابون »⁽³⁾ فهي بنظره تقع شمالي بلاد سبأ وأرض (قتبان) وغربي حضرموت وذكر عاصمتها « Karna » التي سماها فيليب حتي « قرناو » حيث يقول : « أما قرناو العاصمة المعنية التي زارها هاليفي سنة 1870 م فهي معين في جنوبي الجوف الى الشمال الشرقي من صنعاء »⁽⁴⁾ . وقد حصل هاليفي هذا على عدد كبير من الكتابات أثناء سياحته في الجوف⁽⁵⁾ كما صوّر بعض هذه الكتابات « محمد توفيق » مندوب جامعة فؤاد الأول المصرية ، ومواطنه أحمد فخري من

(1) نفس المصدر عن Handbuck S: 660.

(2) ج . علي 2 / 73 عن Background.

(3) نفس المصدر عن Strabo 16: 768.

(4) تاريخ العرب ص 88.

(5) ج . علي 2 / 75.

بعده . وربما دلتنا هذه الكتابات وغيرها في المستقبل عن أهمية معين والدول التي نشأت في الجوف وزالت ، وعلاقتها بالعالم الخارجي الى جانب علاقة مأرب عاصمة سبأ التي بلغ صيتها اليونان والرومان كما ذكرنا عند كلامنا عن دولة سبأ . وقد ذكرت معين في الكتاب المقدس تحت اسم « معون » ومعين ومعونيون (1) وقال الأزهري معين مدينة باليمن تذكر في براقش ، يقول عمرو بن معدي كرب :

ينادي من براقش أو معين ، فاسمُع واتلأب بنا مليع (2)
وبراقش ومعين حصنان باليمن بناهما أحد التبابعة كما يروي ياقوت
وقد قال فروة بن مسيكة المرادي :

أحلُّ بحاجر جدِّي غطيفاً ، معين الملك من بين البنينا
وملكننا براقش دون أعلى وأنعم إخوتي وبنى أبينا
وفيها يقول علقمة :

وهل أسوى براقش ، حين أسوى ، يلقعة ومُنْبَسِط أنيق
وحلوا من معين يوم حلوا لعزهم لدى الفج العميق (3)

وربما تحدّر اسم معين الى بلدة معان الحديثة الواقعة جنوبي شرقي البتراء ومعان هذه مدينة في طرف بادية الشام لجهة الحجاز وصلتها الجيوش الاسلامية على عهد الرسول (ﷺ) وفيها زيد بن حارثة وجعفر ابن أبي طالب

(1) قضاة 10: 12 وقاموس الكتاب المقدس 909

(2) البلدان 5 / 160 صادر

(3) البلدان 1 / 364 صادر

وعبد الله بن ربيعة الذي نهى زميليه في الكتابة الى الرسول ، عندما رأوا تجمع جيوش الروم والعرب المشركين وقد روا عددها بمائتي ألف مقاتل ، وقال : إنما هي الشهادة أو الطعن ، ثم قال :

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجْلِ وَفَرَعِ . ثَغُرْتُ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ
أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ مِنْ مُعَانٍ فَأَعْقَبَ بَعْدَ فِتْرَتِهَا جُومُ
فَلَا وَابِي مَابَ لَا تَيْنَهَا وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومُ⁽¹⁾

إن الرقم المعينية تحتوي على نقوش قتبانية ملكية ، وبعض نصوص حميرية كما تمثل الرسوم المحفورة في هيكل « الحظم »⁽²⁾ حاضرة الجوف ، الكثير من عادات وتقاليد وطرق عبادة شعب معين . فهناك تقدمات خمر ، وحيوانات كالغزلان وغيرها للقرايين ، وأفاعي هي رموز إلهية ، ونساء راقصات كُنَّ خادِمات الهيكل وصور حداثق مقدسة تحيط بالهيكل تسرح فيها طيور النعام .

إن مثل هذه الرسوم لعل جانب كبير من الأهمية فهي وأمثالها مما سيعثر عليه الباحثون في المستقبل تعطينا صورة حية عن ديانة عرب معين في زمن الجاهلية . . .

لقد كان للمعنيين علاقات بالعالم الخارجي ربما كانت تجارية وخير دليل على قولنا هذا الكتابات التي عُثِرَ عليها في الجوف وفي مدينة ديدان وفي الجزيرة « مصر » وجزيرة (ديلوس) من جزر اليونان ، وفيها أسماء ملوك معين منهم

(1) البلدان 5 / 153

(2) حتى : 89

« أليفق وقه » و« يتع ايل صديق » و« أليفق يشع » ومعد يكرب (1) .

وهناك نص كتابة آخر عُثر عليه في « السوداء » والسوداء هي مدينة « نشن » في الكتابات المعينية (2) ، يذكر الملك « أليفق وقه » ويقول النص : إن الملك « أليفق وقه » ملك معين ، وشعب معين ، قدما بأيديهم الى معبد الإله (عم) نذورا وهدايا وقرايين ، تقرباً اليه ، وقد تسلم (ر) رشو) ، أي الكاهن تلك الهدايا وهذا ما يوحي الينا أن المعينين كباقي الشعب الجاهلي قد تعبدوا للأصنام فبنوا لها الهياكل تخدمها الكهنة وندروا لها وحملوا الهدايا والقرايين تيمناً وتعبداً .

إن معين الدولة العربية الجنوبية قد ورد ذكرها في القرآن الكريم في اربعة مواضع (3) .

5 - دولة حمير :

إن حمير من القبائل العربية المعروفة في العربية الجنوبية عند الميلاد وقد وصل خبرها إلى اليونان والرومان فسموها «Homeritai» , «Omyritai» (4) وقد ذكرهم « بليني » وذكر عاصمتهم «Sapphar» « ظفار » (5) وقد جاء في « اللسان » أن حمير هو أبوقبيلة من اليمن ، وهو « حمير بن سبأ بن يشجب بن

(1) ج . علي 2 / 86 عن Background P. 141

(2) ج . علي 2 / 83 عن تاريخ اليمن القديم لزيد علي عنان ص 97

(3) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : 671

(4) جواد علي 2 / 510 عن Pliny 6: 28

(5) نفس المصدر 104 : 6

يعرب بن قحطان « (1) واسم حمير العرنجج (2) .

إن أهل الأخبار يطلقون لفظة (تبّع) على الملوك الذين حكموا اليمن سموًا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضًا . وقد ذكرهم الشاعر أبو ذؤيب :
وعليها ماذيتان قضاها داود ، أو صنع السوابغ تبّع (3)

وقد أشار القرآن الكريم الى التبابعة في آيتين فقط :

1 - ﴿أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم﴾ (4)

2 - ﴿وأصحاب الأيكة وقوم تبّع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ (5)

وقد قال ياقوت الحموي عن ظفار عاصمة التبابعة : إنها مدينة قرب صنعاء ، مسكن ملوك حمير وقد قيل أن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبالها (6)
وأورد الأخباريون كثيراً من قصص التبابعة وديانتهم وقالوا : إن أحد ملوكهم « التبّع أسعد أبو كرب بن ملكي كرب » ، آمن بالرسول قبل مبعثه فقال :

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمري الى عمره	لكنت وزيراً له وابن عم
وجنعت بالسيف أعداءه	وفرّجت عن صورة كل هم (7)

(1) اللسان 4 / 215 دار صادر مادة « حمير » .

(2) اللسان 2 / 323 دار صادر مادة « عرج » وجمهرة انساب العرب ص 329 تحقيق عبد السلام هارون .

(3) اللسان 8 / 31 دار صادر مادة (تبّع) .

(4) الدخان 44 / 37

(5) ق . 5 / 14

(6) البلدان 4 / 60 صاصر

(7) أخبار مكة للأزرقي ص (84)

لقد حكم الحميريون في جنوبي غربي العربية الجنوبية وسواحلها .
كما سيطروا على ظفار وجعلوها عاصمتهم في زمن مؤلف كتاب « الطواف
حول البحر الاريثري » .

لقد أبان لنا « فوز ويزمن » أن حكم الحميريين قد بدأ بملكهم « ياسر
يهصدق » عام 75 ب . م وانتهى بملكهم « شرحب آل يعفر » (1) ويقول
(فوز ويزمن) أيضاً أن ملكهم (ذمر علي يهر) وابنه « ثارن يهنعم » قد
بشرهما (تيوفيلوس) ودخلا في النصرانية وذلك في منتصف القرن الرابع ب .
م (2) .

6 - مملكة لحيان :

لم تكن لحيان كنظيراتها من ممالك الجنوب في العظمة والاتساع بل انها
كانت مملكة صغيرة تقع أرضها جنوب أرض حكومة النبط ومن أشهر مدنها
(ددان) و (الحجر) . وددان هذه هي خرائب (العلا) في الزمن
الحاضر (3) . وقد وردت في الكتاب المقدس أنها اسم لشعب كوشي سكن في
جنوبي الجزيرة العربية ، وهم من نسل إبراهيم من زوجته قطورة (4) .
وشعب هذه المدينة ، كان له مكانة مرموقة في تجارة العاج والأبنوس والطنافس
في العالم القديم (5) .

(1) جواد علي 2 / 529 عن 3-4 Le Muséon 1964.

(2) نفس المصدر .

(3) ج . علي 2 / 244 عن Die Araber I, S, 94.

(4) تلك 10: 7 وتلك 25: 3

(5) حزقيال 27: 15, 20, 38: 13

إن شعب لحيان كان يقيم على الساحل على مقربة من (دَدَن) . وكان لهذا الشعب صلات وثيقة بمصر وقد تأثر بالثقافة اليونانية (1) . وددن هذه قال عنها ياقوت أنها موضع في قول ابن مقبل :

يثنين اعنساك آدم يختلين بها حب الأراك وحب الضال من ددن (2)

ويرى (كاسكل) أن هذه المملكة قد استقلت عند ضعف المعينيين ، وكان ذلك في القرن الثاني قبل الميلاد (3) .

لقد كان لشعب لحيان علاقات تجارية هامة مع المصريين والأحباش ومع اليونان « البطالمة » . ولما لا ! ومدينتهم « ددان » العُلا حديثا ، تقع في طريق القوافل الآتية من جنوبي ووسط الجزيرة ، ومن اليمن والهند إلى سواحل المتوسط (4) . كما كان لهم علاقات سياسية بالرومان ليحموهم من (النبط) جيرانهم (5) . مما يوحى بالتأثير المتسبب من علاقة اللحيانيين بالمصريين والهنود واليونان والرومان في شتى مجالات الحياة . لقد عبد اللحيانيون الأصنام وقدموا لها النذور والقرايين البشرية وتعبدوا للإله « ذو غابة » وها هو ملكهم (شامت جشن بن لذن) يقدم أحد الأشخاص ذبيحة للصنم المعبود (6) .

ولقد أشار مؤلف كتاب «Lihyaniseh» إلى بعض أسماء ملوكهم

(1) ج . علي : 2 / 244 عن Die Araber I, S- 102.

(2) البلدان : 2 / 446

(3) ج . علي : 2 / 245 عن Die Araber: I, S. 94

(4) قاموس الكتاب المقدس : 370

(5) ج . علي : 2 / 246 عن Die Araber 104

(6) نفس المصدر عن Lihiyanisch. S, 88- 89

« هانوس بن شهر » و (ذ شفعن تحمي بن لذن) و (شامت جشن بن لذن) .

إن النبط قضوا على اللحيانيين في القرن الأول ق . م فاستولوا على « الحجر » ثم وصلوا منها إلى تيماء⁽¹⁾ . وبنو لحيان هم : « بني لحيان بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر » عدنانيون كانوا ينزلون في شمالي شرقي مكة⁽²⁾ . وبقوا حتى ظهور الاسلام قبائل غير قوية وقد غزاهم الرسول (ﷺ) (غزوة بني لحيان) وهجاهم حسان فرماهم بالغدر ، حيث يقول ذاكرأ موضعهم الرجيع :

إن سرك الفساد صرفاً لا مزاج له فأت الرجيع وسئل عن دار لحيان
قومٌ تواصوا بأكل الجار كلهم فخيرهم رجلاً والتيس مثلاً⁽³⁾

والحجر التي ذكرنا قال عنها ياقوت أنها قرية صغيرة قليلة السكان ، وهي من وادي القرى على يوم بين الجبال بها عيون وآبار وفيها قبر هاجر أم اسماعيل . وهي التي عنها جميل بقوله :

أقول لداعي الحب ، والحجر بيننا ووادي القرى ، لبيك المادعانيا⁽⁴⁾

وقد ذكرها القرآن الكريم في ثلاثة مواضع⁽⁵⁾ منها قوله تعالى : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ .

(1) نفس المصدر 2 / 249 عن Lyhianisch. S. p. 40-42

(2) تاج العروس 10 / 324 مادة (ل ح ي)

(3) الديوان ص 253 دار احياء التراث العربي .

(4) البلدان 2 / 221 . صادر

(5) أنعام 138 والحجر 80 والفجر (5)

7 - مملكة ديدان :

كانت ديدان مستوطنة معينة في الأصل ثم استقلت عند ضعفهم . وقد لفت الأنظار الى هذه المملكة السائح (جارلوس مونتاكودوتي)⁽¹⁾ وديدان هذه هي ددن⁽²⁾ ، والعلا حالياً وتقع خرائبها في وادي العلا . كانت « الخريبة » مركزاً لهذه الدولة التي لم تعمر أكثر من نصف قرن (160 - 115 ق . م)⁽³⁾ . وقد عُثر على كتابة تدل على اسم أحد ملوكها وهي (كهف كبرال بن متعال ملك ددن) ومعناها : « قبر كبرال بن متع ايل ملك ديدان »⁽⁴⁾ .

8 - مملكة النبط :

نشأت هذه الدولة ، قبل الميلاد ، في شمالي غربي جزيرة العرب وفي شرقي الأردن . وكان لموقعها الجغرافي المهم أثر كبير في نموها وتطورها وازدهارها ، حيث استغل الأنباط هذا الموقع كممر تجاري تعبره قوافل التجار من العربية الجنوبية الى بلاد الشام . وقد اتصل الأنباط بالبحر المتوسط لسهولة أعمالهم التجارية فكان ميناء غزة ميناءهم المفضل⁽⁵⁾ . وقد برع الأنباط بأعمالهم التجارية وكانت لهم علاقات طيبة بالعالم المحيط بهم ، ومما يثبت وجود مثل هذه العلاقات العثور على كتابات نبطية ليس في « بطرا » البتراء عاصمتهم ، وهذا شيء مألوف ، بل في « العلا » و « تيماء » و « خيبر » و « صيدا » و « دمشق » و « حوران » و « طور سينا » و « الجوف » و « مصر » وفي ايطاليا أيضاً⁽⁶⁾ .

(1) ج . علي 2 / 241

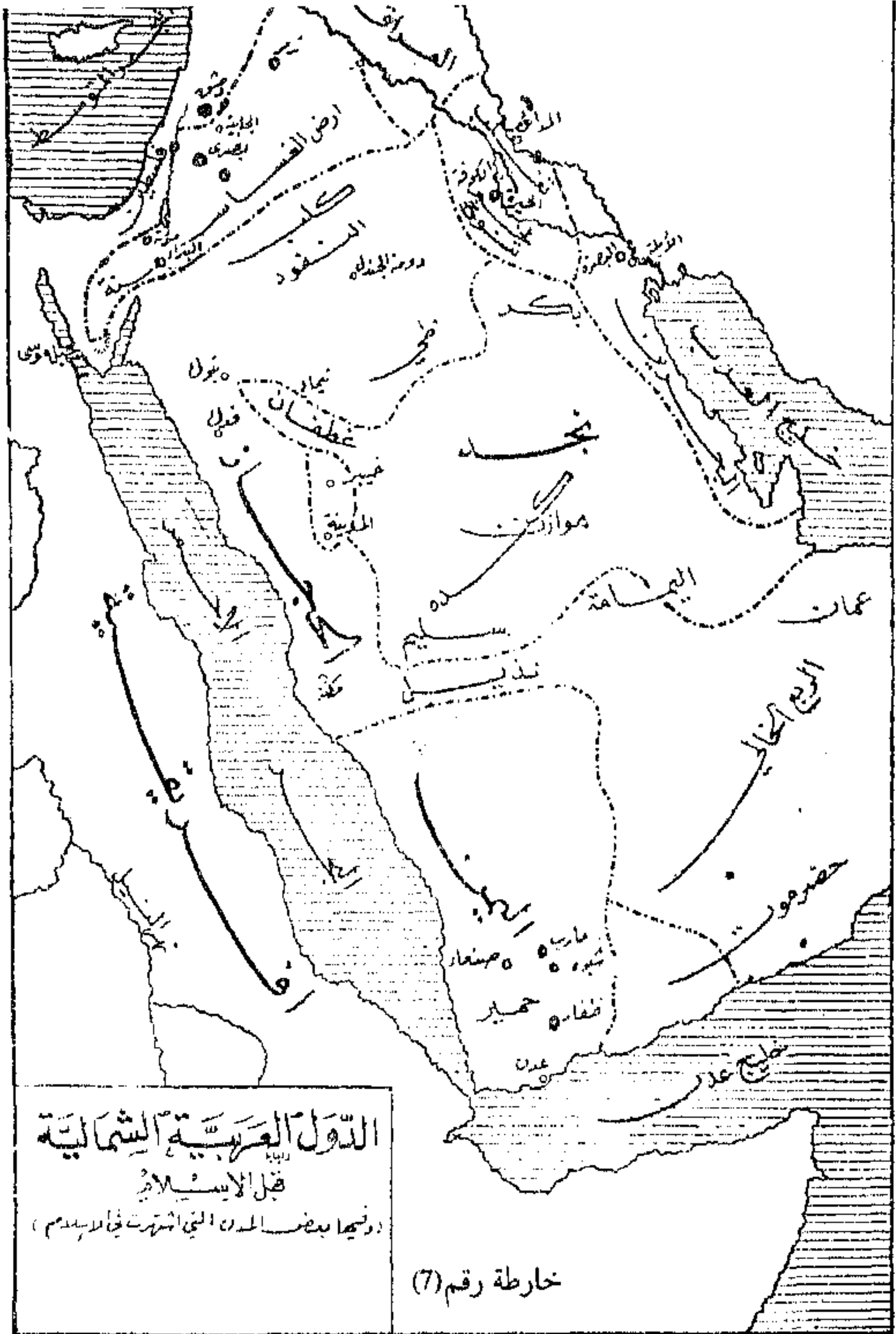
(2) البلدان 2 / 446 صادر

(3) جواد علي 2 / 243 عن Lyhianisch S 37

(4) نفس المصدر S. 78

(5) جواد علي 3 / 6

(6) ج . علي 3 / 7 عن Musil Deserta p. 471



إن الرأي السائد عند أكثر العلماء هو أن النبط عرب بدليل أسمائهم ، ولغتهم لغة « بني إرم » وقد كتبوا بالقلم الإرمي الذي أطلق عليه المستشرقون اسم « القلم النبطي » (1) .

لقد كان الأنباط يتفاهمون باللغة العربية ويكتبون باللغة الإرمية التي أخذوها عن جيرانهم في الشمال (2) . ويقول الدكتور فيليب حتي : إن الخط النبطي الذي نقل عن الإرمي قد أصبح في القرن الثالث للميلاد الخط المؤلف في لغة عرب الشمال أي لغة القرآن الكريم ولغة العصر الحاضر (3) .

لقد كانت مملكة الأنباط مملكة ذات قوة في القرن الثاني قبل الميلاد ، وقفت في وجه حملة « انتفونس » خليفة ذي القرنين في سورية (4) وقد بلغت هذه المملكة « بلاد العرب الصحرية » كما يسميها فيليب حتي ، أوج عزها في أيام ملكها الحارث الرابع (9 ق . م إلى 40 ب . م) وامتدت هذه المملكة شمالاً إلى دمشق في عصر السيد المسيح وإلى سهل البقاع في لبنان أيضاً ، وإن حاكم دمشق الذي أراد القبض على بولس الرسول هو عامل الحارثة الرابع (5) .

أما كلمة « نبط » فقد اختلف العلماء في تعليلها . فمنهم من ردها إلى « نبيط » أو « نبايوت » وهو الابن البكر لاسماعيل بن إبراهيم الخليل من زوجته هاجر (6) أو لكثرة النبط عندهم وهو الماء (7) . ويقول الدكتور جواد علي

(1) نفس المصدر عن الطبري 1 / 220 « ليدن »

(2) فيليب حتي 105

(3) نفس مصدر : 105

(4) نفس مصدر 104 عن Diodoross

(5) 2 كورنثوس 11 : 32

(6) تك 28:9، 3: 25، 13: 16 . أخبار أيام أول 1 : 29

(7) اللسان مادة (ن ب ط) . 7 / 410 صادر

في أصل الأنباط : « وعندي أن النبط عرب ، بل هم أقرب الناس إلى قريش من العرب الجنوبيين . فهم يشاركون قريشاً في أكثر أسماء الأشخاص ويشاركونهم في عبادة أكثر الأصنام . ذي الشرى واللات والعزى وخط النبط قريب جداً من خط كتبة الوحي (1) » .

لقد كان للأنباط علائق حسن جوار مع جيرانهم العبرانيين (2) ، وعلائق سياسية ظهرت بحبهم للتوسع والسيطرة فضموا إلى مملكتهم دمشق والبقاع وهوران وجنوبي وشرقي فلسطين وأدوم ومدين إلى « ددن » وسواحل البحر الأحمر ، وقد ثبت وجودهم أيضاً في شرقي دلتا النيل (3) .

إن النبط كانوا في بادئ أمرهم أعراباً رعاة ماشية ، ومنهم أصحاب قوافل تجارية يستخرجون الأسفلت من شواطئ البحر الميت الشرقية ويحملونه إلى مصر لاستعماله في (المومياء) ، وهذا العمل قد درّ عليهم ربحاً مادياً وفيراً (4) .

إن التاريخ يذكر لنا علاقة النبط بجيرانهم العبرانيين . وقد كانت هذه العلاقة بين مد وجزر فتارة هي حسنة وطوراً في حرب طاحنة . ومن أمثلة العلاقة الطيبة بين الشعبين زواج الملك العبراني « انتيباتر » من امرأة عربية من أسرة كبيرة وهذا ما يوطّد العلاقة الحميمة بين الملك المذكور وبين ملك النبط مالك (5) . أما العلاقة السيئة فقد سادت بينهما زمن هيرودس انتيباس

(1) الفصل 3 / 14

(2) مكابيون أول 5: 25، 9: 35

(3) ج . علي : 3 / 15 عن Ency: 3: 801

(4) نفس المصدر: عن Die Araber I: 34

(5) جواد علي عن يوسفوس 146

ملك اليهود الذي ترك زوجته العربية ابنة ملك النبط (الحارث) وتزوج زوجة أخيه « هيروديا » (1) . وربما يكون هذا « الحارث » هو الذي ذكره بولس الرسول (2) والذي كانت دمشق آنذاك تتبع له . وفي رسالة بولس إلى أهل غلاطية نراه يقول : « ولم أصعد من دمشق إلى أورشليم بل انطلقت إلى ديار العرب . . . » (3) فربما كانت هذه الديار هي ديار مملكة الأنباط أو ربما كانت البادية .

إن البتراء الواقعة اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية والتي لا تزال آثارها تشهد بعظمة تلك الدولة كانت عاصمة النبط وتعني « الصخر » وقد سماها الكتاب المقدس « يقيثييل » (4) . ومن مدنها مدينة « الحجر » . وهي مدينة مهمة تقع على شريان التجارة . أشار إليها « سترابو » وهو يذكر حملة « أليوس غالوس » (5) على العربية . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المدينة بقوله : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » (6) وقد انتهت هذه المملكة كدولة مستقلة ذات سيادة وضُمت أرضها إلى الكورة العربية كولاية رومانية عام 105 م (7) . ومن مدن الكورة العربية « أذرعات » وهي مشهورة عند العرب في الجاهلية والاسلام وقد وردت في التوراة تحت اسم « أذرعي » نعرفها اليوم باسم درعا (8) .

(1) جواد علي 3 / 39 عن بوسيفوس 283 وأنجيل مرقس 6 / 17 وما بعدها

(2) 2 كور 11: 32

(3) غلاطية 1 / 17

(4) قاموس الكتاب المقدس ص 1080

(5) ج . علي : عن 291 Musil

(6) الحجر 15 / 79

(7) جواد علي 3 / 57

(8) البلدان 1 / 130 وقاموس الكتاب المقدس 42

ما دمنا في ذكر « أذرعات » فقد ورد اسمها في الكتاب المقدس تحت
باشان أكثر من ستين مرة⁽¹⁾ . وذكر اسم ملك لها « عوج » جعلها عاصمة له
وكان ملكاً على الأموريين قتله بنو إسرائيل⁽²⁾ . وجاء في اللسان أن أذرعات
بلد يُنسب إليه الخمر . ويقول الشاعر في ذلك :
تنورثها من أذرعات ، وأهلها يشرب أدنى دارها نظراً عالي⁽³⁾

وقيل أيضاً : أذرعات موضعان ينسب اليهما الخمر ، وقيل موضع
بالشام . قال أبو ذؤيب

فما إن رحيق سبّثها التجا رُ من أذرعات ، فعادي حذر⁽⁴⁾

ومن المدن أيضاً مدينة « بصرى » وهي عاصمة الكورة العربية ، على
أيام الامبراطور الروماني « ديوفليتيان » 286-337 م ، ومركز هام من مراكز
النصرانية وكانت على طريق القوافل من مكة إلى أرض الشام وبها كان يقيم
الراهب « بحيري » عندما خرج « أبو طالب » عم الرسول بتجارته إلى الشام
ومعه الفتى محمد⁽⁵⁾ .

ومدينة جرش الأثرية والتي لا تزال الأعمدة الرومانية قائمة فيها إلى
يومنا هذا وتقع اليوم في المملكة الأردنية ولا تبعد كثيراً عن عمان العاصمة .
ومن يتفحص آثار هذه المدينة يجد أيضاً بقايا البيزنطيين موسومة في أرض

(1) قاموس الكتاب المقدس 159

(2) نفس المصدر 646

(3) اللسان 8: 97 « صادر » .

(4) نفس المصدر .

(5) السيرة لابن هشام 1 / 180-81 دار الكنوز الأدبية

كنيسة تزيينها أحجار الفسيفساء . وقد نسب ياقوت هذه المدينة الى جرش بن عبد الله بن عليم بن جناب . . . بن كليب بن وبرة (1) . وقال فيها تليد الضبي الذي اتهم باللصوصية على أيام عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي :

يقولون جاهرنا تليد بتوبة ، وفي النفس مني عودة سأعودها
الأتيت شعري ! هل أقودن عصابة قليل لرب العالمين سجودها
وهل أطردن الدهر ، ماعشت هجمة معرضة الأفخاذ سجعها خدودها
قضاعة حم الذرى ، فتربعت حتى جرش قد طار عنها لبودها (2)

لقد كان في جرش اسقفية معروفة قبل الاسلام ولا تزال آثار الكنائس تشاهد فيها حتى يومنا هذا (3) .

ونستدل من كل ما تقدم أن مملكة النبط قد كان لشعبها علاقات انسانية مع العبرانيين والرومان واليونان وسكان العربية الجنوبية وبلاد مصر . وهذا ما بسبب تأثر النبط بعبادات وأديان تلك الشعوب . وقد رأينا فيما سبق أن النبط قد بدوا « ذو الشرى » واللوات والعزى وان منهم النصارى وربما يكون آخرون قد تهودوا .

9 - دولة تدمر

تدمر مدينة قديمة مشهورة في برية الشام قيل سُميت بـ « تدمر بنت حسّان ابن أذينة بن السميدع . . . ابن سام بن نوح » (4) وزعم قوم أنها مما بنته

(1) البلدان 2 / 127 « صادر »

(2) نفس مصر

(3) جواد علي 3 / 67 عن 7: 10 Eney

(4) البلدان 2 / 17

الجنُّ لسليمان بن داود ، ويقول النابغة الذبياني في ذلك :

إلا سليمان ، إذ قال الاله له : قم في البرية فاحددوها عن الفند
وخيَّس الجنَّ ، إنسي قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد⁽¹⁾

وقد ورد ذكرها في التوراة التي نسبت بناءها الى سليمان⁽²⁾ . كانت تدمر مستقلة جزئياً من سنة 251 م إلى 273 م ثم بعد وقت استقلت استقلالاً تاماً ، وقد سماها الاسكندر « بالميرا » أي مدينة النخل عندما احتل بلادنا⁽³⁾ .

لقد كانت غالبية أهل تدمر ، رغم كتابتهم بالإرامية ، من العرب على رأي أكثر الباحثين⁽⁴⁾ . ويرى هؤلاء الباحثون أن القبائل العربية ، التي هاجرت شمالاً ، وسكنت الأماكن الخصبة ، في شرقي أرض كنعان ، بعد زوال الدولة البابلية ، قد كتبت بالإرامية لغة الكتابة آنذاك⁽⁵⁾ وثقافة تدمر هي خلاصة عدة ثقافات : عربية وإرامية ويونانية ولاتينية . وقد عُثر حتى الآن على أقدم كتابة فيها يعود تاريخها للعام 9 ق . م . وقد دلت الكتابة على أسماء أصنام عربية مع أسماء أصنام إرامية⁽⁶⁾ .

كانت تدمر ذات أهمية كبيرة بالنسبة لموقعها الجغرافي المميز . فهي عقدة مواصلات هذه المنطقة في القرون الأولى للميلاد ، تصل أسواق العراق وما يصلها من الهند وإيران والعربية الشرقية ، ببلاد الشام ومصر والعربية الجنوبية

(1) البلدان 2 / 17

(2) أخبار 8: 4 وامل 9 / 18 تحت اسم عبري (تمار)

(3) قاموس الكتاب المقدس ص 213

(4) ج . علي : 3 / 80 وعدنان الهني . تدمر والتدمريون

(5) ج . علي عن 161-17 Ency. Britania

(6) ج . علي 3 / 81 عن كتاب Syria لـ تولدكه ،

والغربية . فلهذا الموقع الممتاز ولأعمالها التجارية كونت تدمير علاقات حسنة سياسية واقتصادية واجتماعية مع الفرس والرومان والروم⁽¹⁾ ، وسكان تدمير كانوا خليطاً من تجار ومزارعين ، أما سكان الضواحي والأطراف فكانوا أعراباً ورعاة⁽²⁾ بالإضافة الى جاليات رومانية ويونانية وكذلك اليهود الذين قدموها للتبشير فتهود أناس منها ورحل بعضهم الى القدس قبل خراب الهيكل عام 72 م⁽³⁾ . وإلى جانب مركز تدمير التجاري فقد أصبحت ، وسكانها هذه هويتهم بعد هذا الاختلاط ، مركزاً دينياً مهماً عُبِدت فيها الأصنام وحجَّ إليها أعراب البادية⁽⁴⁾ ولثقلها السياسي في عالم الرومان زارها الامبراطور « هدريانوس » بعد استيلائهم عليها ، واعتنى بها عناية فائقة وقد منحها درجة مستعمرة رومانية .

أول من عرفنا من ملوكها هو « أذينة » من « بني السميدع » من العماليق⁽⁵⁾ . الذي حارب الفرس بقيادة ملكهم « سابور » وانتصر عليه ، وكان حليفاً للرومان . وخلفته زوجته الزباء وقد كانت وصية على ابنها « وهب اللات » الصغير السن ، التي ذهبت الروايات الى أن هذه الملكة كانت يهودية⁽⁶⁾ ، وربما عزوا ذلك لحمايتها لأخبار اليهود⁽⁷⁾ . ولماذا تحمي الزباء أخبار اليهود ؟ ومن ؟ .

لقد كان اليهود أصحاب قلاقل للدولة الرومانية وقاموا بعدة ثورات ،

(1) تفسر مص من Die Araber 11. S. 61

(2) ج . علي د / 83

(3) ج . علي 3 / 84 عن Jewish Ency. 8- 381

(4) ج . علي 3 / 84 عن Ency Brita. 17 / 162

(5) تاريخ الطبري 1 / 354 « ليدن » ومروج الذهب 1 / 206 دار الرجاء .

(6) مجلة المشرق 204 / 924

(7) ج . علي : عن Talmud Jeru. Ter . 8 / 468 .

أهمها على أيام القائد الروماني « تيطس » الذي ضرب اليهود ضربة قاضية وشتتهم في أنغواء المعمورة وقوَّض أركان هيكل أورشليم عام 70 م⁽¹⁾ . وبذلك تمَّ قول السيد المسيح « الحق أقول لكم : إنه لا يترك ههنا حجر على حجر إلا يُنقض »⁽²⁾ وأيضاً : يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم من مرَّة أردت أن أجمع بينك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا . هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً⁽³⁾ .

وبقي اضطهاد الرومان لليهود زمناً بعد ذلك فربما حمت الزباء أحبار اليهود لكونها يهودية أو لأنها أرادت أن تستقل بمملكتها تُعتق من تشاء وتستعبد من تشاء وتقدم وتبعد الحماية لمن تشاء .

ولم تكن تدمر محل إقامة لجنالية يهودية وحسب بل كان هناك الكثيرون من المسيحيين يقيمون فيها وفي جوارها وقد ترك لنا التاريخ الكنسي أسماء أساقفة تدمريين حضروا مجمعي نيقية وخلقدونية المسكونيين . كالأسقف « مارنينوس » الذي حضر مجمع نيقية عام 325 م⁽⁴⁾ ويوحنا الذي حضر المجمع الخلقدوني المنعقد عام 451 م⁽⁵⁾ ويوحنا الثاني الذي قال بطبيعتين في السيد المسيح عام 518 م⁽⁶⁾ . ولا ريب أن تدمر قد عبدت الأوثان وإن آثار هيكل الشمس فيها لا تزال الى يومنا هذا . وقد ذكرت الكتابات التي عُثر عليها بين

(1) قاموس الكتاب المقدس ص 135

(2) متى 24 / 2

(3) متى 23 / 27-28

(4) المشرق 23 / 1063

(5) ج . علي : 3 / 130 عن Oberdiek 117

(6) المشرق 23 / 1063

أنقاضها أسماء « للآلهة » شمش « شمس » و « بل » أي بعل و « الت » أي اللات و « استر » أي عشتار .

وقد عُرِفَت هذه الآلهة جميعها عند العرب وتعبدوا لها وسوف نرى ذلك وطرق التعبد للآلهة في فصل لاحق .⁽¹⁾

10 - مملكة كندة :

كندة قبيلة عربية كما يعرفها النسابون ، وهي من عرب الجنوب ، عُرِفَت بكندة الملوك لأن أبناء كندة ملكوا على قبائل عدنانية وأخرى قحطانية⁽²⁾ . وقد ورد في النص الموسوم بـ (Janne 635) والمدون في أيام الملك « شعر أوثر » ملك سبأ وذو ريدان ما يلي : وكان يحكم (كدت) أي كندة ، في ذلك الوقت « ربعت » أي ربيعة من « ذثورم » أي من آل ثور وأنه ملك على (كدت) و (قحطن) أي كندة وقحطان⁽³⁾ .

كان ملوكهم عمالاً للتبابعة على الحجاز ، ومن ثم نراهم على علاقة طيبة مع الفرس إذ يذكر ابن الأثير : أن الملك قباذ طلب من ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء الدخول في مذهب مزدك وزندقته ، فامتنع المنذر ، فاغتاظ قباذ منه وعزله مستعملاً بدله ملكاً على الحيرة الحارث الكندي بعد أن أجابه إلى دعوته⁽⁴⁾ . وانتشر بعد ذلك ولده فملكوا على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد⁽⁵⁾

(1) عدنان النبي : تدمير والتدميريون . دمشق 1977 ص 152 وما بعدها .

(2) عبد الرحمن بن خلدون المغربي . تاريخ ابن خلدون أو كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت . لبنان 1971 ج 2 ص 257

(3) جواد علي 3 / 316 عن السطر 27 من النص .

(4) ابن الأثير . الكامل في التاريخ . دار الكتاب العربي بيروت 1 / 243 وما بعدها

(5) تاريخ ابن الأثير 1 / 305

وأشهر هؤلاء الأولاد حجر والد الشاعر امرئ القيس الذي ملك على بني أسد وقتلوه ، فقام ابنه امرؤ القيس يطالب بدمه . وحجر هذا هو الملقب بأكل المرار (1) .

إن امرأ القيس الفتى الذي طرده والده من حجره لأنه قرظ الشعر ، يتبلغ خبر مقتل أبيه فيقول قولته الشهيرة : « ضيعني صغيراً وجمّلني دمه كبيراً لا صحو اليوم ، ولا سكر غدا ، اليوم خمّر ، وغدا أمر » فذهبت مثلاً ثم قال :

خليلي ، لا في اليوم مصحى لشارب ولا في غمد إذ ذاك ما كان يُشرب (2)

إن كندة الملوك القبيلة العربية المعروفة كان لها علاقة بالتبابعة ، وأيضاً بالفرس وحكموا قبائل عدة فاتصلوا بالحيرة وغسان ومن المرجح أن يتأثروا بمذهب من ولّوهم ومن والوهم فترى آخر ملوكهم ذا القروح وقد كان على أغلب الظن نصرانياً . . .

11 - « مملكة الحيرة »

إن للعلماء آراء كثيرة في مصدر اسمها . فابن منظور يقول : « والحيرة بلد بجانب الكوفة ينزلها نصارى العباد » (3) . وياقوت الحموي يقول : « والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة . . . وبها الخورنق والسدير . وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ، ثم من لخم ، النعمان وآبائه . ويقال لها الحيرة الروحاء . . . ويقول فيها عاصم بن عمرو » :

(1) الأغاني 8 / 62 انظر سبب تسميته بأكل المرار .

(2) اغاني 8 / 68 .

(3) اللسان مادة « حير » 4 / 225 صادر

« صَبَحْنَا الحيرة الروحاء خيلاً ورَجُلًا ، فوق أثباج الركاب
حَضَرْنَا في نواحيها قصورا مشرفّة كأضراس الكلاب (1) »

وقيل سُميت الحيرة لأن تَبَعاً الأكبر لما قصد خراسان خَلَف ضِعَاف
الجنود فيها قائلاً لهم حَيِّروا بها ، أي أقيموا بهذا الموضع . وفي ذلك يقول
كعب بن جُعَيْل :

وغزانا ثُبُعٌ من خَيْرٍ ، نازل الحيرة من أرض عدن (2)

ويتابع ياقوت فيقول : وصار في الحيرة من جميع القبائل ، من مذحج
وحمير وطيء وكلب وقيم ، ونزلت تنوخ الأنبار والحيرة . وأول ملوك الحيرة
من تنوخ ، مالك بن فهم أبو جذيمة الأبرش المشهور وصاحب الزبَاء ملكة
تدمر وبعد هلاك جذيمة ملك ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي
وهو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من الملوك . ويقول ابن رومانوس الكلبي في
ذلك :

ما فلاحني بعد الألى عمروا الـ حيرة ما أن أرى لهم من باق
ولهم كان كل من ضرب العيب رَبنجد إلى تخوم العراق (3)
وقد ذكر اسم الحيرة المؤرخ « يوحنا الأفسسي » المتوفي عام 585 م
فيقول :

« حير تود نعمان دبيت بورسوبي » . أي « حيرة النعمان التي في بلاد

(1) البلدان 2 / 328 (صادر)

(2) البلدان 2 / 330 (صادر)

(3) البلدان 2 / 331 (صادر)

فارس « (1) كما ورد اسم الحيرة في المجمع الكنسي المنعقد عام 410 م حيث وقَّع قرارات هذا المجمع الأسقف « هوشع » تحت اسم « أسقف حيرته » (2) .

والحيرة هذه ، التي لم يبق منها الآن سوى اطلال دارسة كان لها في الأدب العربي الجاهلي شهرة واسعة بحسن هوائها وطيب مناخها حتى قيل عنها : « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة » (3) . وقد عُرِفَ ملوك الحيرة بـ « آل لحم وآل نصر والنعامنة والمناذرة وآل محرق » . وفي آل محرق يقول الأسود بن يعفر :

ماذا أوْمَلُ بعد آل محرق تركوا منازلهم ، وبعد إياد أرض الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد (4)

ومن العلماء والمؤرخين والأخباريين من يرجع عهد بنائها الى بختنصر (5) وبعضهم يرجع ذلك إلى النبط وآخرون يقولون أن بانيها هو تبَّع الذي حَيَّرَ بها بعض ضعاف جنده (6) .

إن جواد علي في مؤلفه « المفصل في تاريخ العرب » يرى أن أهل الحيرة عرب ، قسمهم الأخباريون الى طبقات ثلاث : تنوخ ، العباد ، والأحلاف (7) .

(1) ج . علي 3 / 157 عن J. Obereyer 234

(2) نفس المصدر عن Musil p. 20

(3) نفس المصدر 3 / 158 عن المسالك (82)

(4) المعارف لابن قتيبة 647 دار المعارف طبعة ثانية منقحة (مصر) 1969

(5) تاريخ الطبري : 1 / 558 وما بعدها دار المعارف

(6) البلدان : 2 / 330 « صادر »

(7) ج . علي 3 / 166 عن حمزة 66

والعباد هم عباد المسيح أو عباد الله وهم النصارى ومن قبائل مختلفة .
إن حمزة الأصفهاني يقول : أن « مالك بن فهم » أول من تملك على
تنوخ في العراق . ومالك هذا هو القائل عندما رماه ابنه « سليمة » بالسهم :
جزائي ، لا جزاء الله خيرا سليمة ، إنه شرا جزائي
أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى (1)

ثم تملك من بعده جذيمة المعروف بالأبرش وقصته مع الزباء معروفة .
فابن أخته عمرو بن عدي . . . بن لحسم . ثم ابن عمرو « امرؤ القيس
الأول » على حسب رواية حمزة . وربما كان هذا صاحب كتابة « النارة » .

وكتابة النارة هي شاهد قبر ملك عربي يدعى « امرؤ القيس » ، عُثِرَ
عليها في موضع النارة في الحرة الشرقية من جبل الدروز ويرجع تاريخها الى
اليوم السابع من شهر ك 1 عام 328 م (2) دُوِّنت على ضريح الملك وتتألف من
خمس أسطر :

- أ - تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اسراتج .
- ب - ملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مدحجو عكدي وجا .
- ج - يزجي في صبح نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .
- د - الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
- هـ - عكدي . هلك سنة 223 يوم بكسلول بلسعد ذو ولده (3) .

(1) نفس المصدر عن حمزة 64

(2) نفس المصدر عن 3 / 191 عن Rep. Epig I-7p. 36

(3) ج . علي 3 / 191 عن جرجي زيدان « العرب قبل الاسلام » 203

وهذا معنى النص في عربيتنا اليوم .

- 1 - هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ، ملك العرب كلهم الذي نال التاج ،
- 2 - وملك الأسدين ونزار وملوكهم . وهزم مذحجا بقوته وقاد ،
- 3 - الظفر إلى أسوار نجران ، مدينة شمر . وملك معدا واستعمل أبناءه على ،
- 4 - القبائل . ووكلهم لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه ،
- 5 - في القوة . هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول . ليسعد الذي ولده (1) .

إننا إذا تبحرنا قليلا في هذا النص نجد أن « امرأ القيس » هذا قد ملك على قبائل عربية كثيرة وقد وصلت سلطته الى قلب اليمن وقد استعمل التاج ، وكانت علاقته وصلة أبنائه بالفرس والروم صلة قوية .

ومن ملوك الحيرة العظام النعمان ابن امرئ القيس وهو صاحب الخورنق بناء ليستضيف ابن ملك الفرس « بهرام جور » لما للملوك الفرس من احترام وبجلة في نفوس ملوك الحيرة ولما كان بين التاجين من صلة دامت سنين طويلة

كما تُسبب بناء « السدير » للنعمان هذا وفي هذين القصرين يقول المنخل :

وإذا	صحوت	فإنني	رب	الشريرة	والبعير
وإذا	سكرت	فإنني	رب	الخورنق	والسدير

إن قصر الخورنق المشهور كثيراً في الشعر العربي « تراث العرب الكبير » قد بناه سنار الرومي الى النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن . . . بن

(1) إن ترجمات النص تختلف قليلا عن بعضها بسبب اختلاف قراءات العلماء .

سبأ بن يعرب بن قحطان في ستين سنة⁽¹⁾ . وقصة النعمان وسنمار بانيه مشهورة⁽²⁾ . وفي الخورنق وسنمار يقول الشاعر : .

جزائسي ، جزاه الله شرَّ جزائه ، جزاء سنمار ، وما كان ذا ذنب
سوى رمه البنيان ، ستين حجة ، يعلى عليه بالقسراميد والسكب
فلما رأى البنيان وتمَّ سحوقه ، واض كمثل الطود والشامخ الصعب
فظنَّ سنمارُ به كلَّ حبة ، وفاز لديه بالمودة والقرب

فقال : أقذفوا بالعلاج من فوق رأسه ! فهذا لعمرُ الله ، من أعجب الخطب⁽³⁾

وقد لقَّب النعمان بالسائح لما رواه عنه الأخباريون لسماحه من وزيره عندما سأله وهو على شرفة الخورنق : هل رأيت مثل هذا المنظر قط ؟ فقال الوزير : لا ، لو كان يدوم ! قال الملك : فما الذي يدوم ؟ قال : ما عند الله في الآخرة . قال : فيم يُنال ذلك ؟ قال : بترك الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده . فترك النعمان ملكه ولبس المسوح وساح في الدنيا⁽⁴⁾ . وفي ذلك يقول عدي بن زيد :

وتبين ربُّ الخورنق ، إذ سرَّه ما رأى وكثرة ما يم
فارعى قلبه وقال فما غب
ثم بعد الفلاح والملك والإم
ثم صاروا كأنهم ورق جف
أشرف يوماً ، وللهدى تفكير
لك ، والبحر ، معرضاً ، والسدير
طأة حي إلى الممات يصيراً
مة وارثهم هناك القبور
ف ، فألوت به الصبا والدبور⁽⁵⁾

(1) البلدان 2 / 401 « صادر »

(2) راجع البلدان 2 / 401-2

(3) نفس المصدر 2 / 402

(4) البلدان 2 / 402

(5) نفس مص 2 / 402

وهذا الشاعر عبد المسيح بن عمرو يبكي ملوك الحيرة وقصورهم وقد دخل خالد بن الوليد مدينة المناذرة فيقول :

أبعد المنذرين أرى سواما ثرؤح بالخورنق والسدير
تحاماه فوارس كل حي ، مخافة ضيفهم عالي الزئير
فصرنا ، بعد هلك أبي قبيس ، كمثل الشاء في اليوم المطير
تقسّمنا القبائل من معد كأنا بعض أجزاء الجزور⁽¹⁾

إن الأب لويس شيخو يعزو تنصّر النعمان إلى قديس حلب الشهير « سمعان العمودي »⁽²⁾ . ولا شك إن الحيرة كانت مربعاً من مراعٍ النصارى . وقد رأينا سابقاً أسقفها « هوشع » يمثلها في المجمع الكنيسي المنعقد عام 410 م . وهل يعقل أن يكون هناك أسقف بدون رعية وكنائس وأديرة ورهبان . إن التاريخ يذكر لنا « هنداً » والدة الملك « عمرو بن هند » وقد بنت ديراً وتنسكت فيه وعمّرت حتى أدركت الاسلام . وما دامت امهات الملوك نصرانيات ، فلما لا يكون الملك نصرانياً . إن شاعراً متأخراً ، هو علي بن محمد العلوي الكوفي المعروف بالحمّاني ، يحكي لنا حكاية الحيرة ونصرانيتها فيقول :

كم وقفة لك بالخور نق ما توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السدير إلى ديارات الأساقف
فمدارج الرهبان في أطمار خائفة وخائف
دمن . كأن رياضها يكسني أعلام المطارق⁽³⁾

(1) نفس مص 2 / 402

(2) النصرانية وأدائها ص 82

(3) البلدان 2 / 403

وربما كان بعضهم مجوسياً أو يهودياً . فهذا هو المنذر بن ماء السماء يكتب له « ذونوأس » ويحثه على أن يفعل بالنصارى كما عذب هو نصارى نجران ولكن ربما يكون هذا الالتباس لكون الملكين يتعاملان مع ملك وامبراطور واحد هو كسرى فارس ومما يؤيد رأينا هذا ما كان بين المنذر ملك الحيرة والحارث بن جبلة ملك غسان من مواقع عديدة وغزوات كثيرة ينتصر فيها الحارث عليه ويقتله في قنسرين⁽¹⁾ وكلا الملكين عربيان وأعتقد أن كليهما نصرانيان .

إن المنذر هو صاحب يومي البؤس والسعد ، واليه يُنسب بناء الغريين على جسدي نديميه . ويُقال إنه تنصّر في آخر أيامه لوفاء الرجل النصراني الذي أتى يطلب الموت⁽²⁾ .

ويملك بعد المنذر عمرو بن هند (بنت عمرو بن حجر الكندي أكل المرار) واليه يُرجع الأخباريون مقتل الشاعر الفتى « طرفة بن العبد » عندما كتب إلى عامله بالبحرين ليقضي على طرفة وعلى خاله المتلمس ويفض هذا الأخير صحيفته ويُقرئها إلى فتى من الحيرة ثم يلقيها في الماء ويقول :

وألقيتها بالثني من جنب « كافر » كذلك ألقى كل رأي مُضلل⁽³⁾
رضيت لها بالماء لما رأيته يحسول بها التيار في كل جدول

ويرجع غضب عمرو بن هند على طرفة لهجائه له حيث يقول :

(1) ج . علي : 3 / 223 عن أمراء غسان 18

(2) لويس شيخو شعراء النصرانية مطبعة الآباء المرسلين بيروت 1926 ص 89

(3) شرح المعلقات السبع للزوزني (58) دار الجليل بيروت

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثةا حول قُبْتنا تَحُورُ
لعمرك ! إن قابسوس بن هند ليخْلِسطُ مَلِكه نوْكُ كثيرُ⁽¹⁾

وقد قُتل عمرو هذا على يد عمرو بن كلثوم التغلبي حفيد المهلهل من
جهة أمه ليلي بقصة (خدمة أمه ليلي بنت المهلهل وصياحها : واذلاه ! يا آل
تغلب !)⁽²⁾ وإلى أم الملك ، عمرو ، هند يُنسب الدير المشهور في الحيرة وقد
بُني على عهد الأسقف « مار افرام »⁽³⁾ .

وما دمنا في ذكر ملوك الحيرة فلا بُد من ذكر ملك آخر هو النعمان بن
المنذر صنيعة عدي بن زيد الشاعر الجاهلي النصراني المعروف⁽⁴⁾ والذي لاقى
جزاء صنعه الموت الزؤام فكان جزاؤه كجزاء سنار . ولكن ابنه زيدا أخذ بثأره
إذ أوغر قلب كسرى على قاتل أبيه فاستدرجه وقتله حبساً أو تحت أرجل
الفيلة⁽⁵⁾ .

ويقول الأخباريون أن النعمان كان في أول أمره عابد وثن يتعبد
« للعزى » ويذبح للأوثان ، ولكنه غير دينه وتنصّر وطرده اليعاقبة وحى
النساطرة . وما يُذكر عنه ، أنه خرج ذات يوم راكباً ومعه عدي بن زيد ،
فوقف على مقابر بظاهر الحيرة . فقال له عدي : أبيت اللعن ، أتدري ما
تقول هذه المقابر ؟ قال : لا ! قال : إنها تقول :

أيها الراكب المخبّون على الأرض المنجدون
فكما أنتم كنّا وكما نحن نكونون

(1) شرح المعلقات السبع للزوزني (58) دار الجيل بيروت

(2) انظر الأغاني 9 / 182 طبعة بولاق .

(3) ج . علي 3 / 257 عن الحيرة ص 47

(4) أغاني 2 / 18 بولاق

(5) أغاني 2 / 18 بولاق

ثم قال :

رباً ركب قد أناخسوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فأنقضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

فأثر هذا القول بالنعمان فارعوى وتنصّر⁽¹⁾ حوالى سنة 593 م وأصبح
من حماة المذهب النسطوري . وصارت الحيرة منذ ذلك التاريخ معقلاً من
معقل هذا المذهب ومنها خرج المبشرون ينشرون تعاليم نسطوريوس ، التي
تنفي ألوهية الروح القدس ، ومنهم (سرجيوس) الذي توجه الى نجران في
اليمن في أواسط القرن السادس الميلادي حيث بشر ومات هناك⁽²⁾ .

وينسب إلى الملك النعمان دير اللج . كما ينسب إليه حمزة⁽³⁾ ، أربع
بنات ، هن : حرقة وحرقة وعنفقر وهند التي عاشت وأدركت الاسلام
وكانت مترهبة وماتت فدفنت بديرها الى جانب قبر والدها . وحرقة هي التي
تقول بعد أن عدا عليها وعلى أهلها الزمان :

فبينا نسوس الناس ، والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سومة نتنصف
فأف لدينا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

وبعد النعمان هذا ملك أياس بن قبيصة الطائي الذي وجهه كسرى
أبرويز لقتال الروم⁽⁴⁾ .

(1) الأغاني 2 / 18 بولاق .

(2) ج . علي 3 / 285 عن Die Araber I, S. 198

(3) ج علي 3 / 285 عن حمزة 74 .

(4) البلدان 3 / 169 انظر (سائيدما) .

12 - مملكة الغساسنة

لقد حكم عرب الشام عربٌ عُرفوا بـ «آل غسان» و «آل جفنة» ، وقد استمر ملكهم إلى الإسلام . وكلمة « غسان » على حسب رأي الإخباريين أتت من اسم ماء نزل عليه القوم ، وهم من الأزد ، بعد خروجهم من اليمن فسموا « غسان »⁽¹⁾ قال حسان :

إِذَا سَأَلْتَ ، فَإِنَّا مَعشَرٌ نُجَبَا ، الْأَزْدُ نَسِيتُنَا ، وَالْمَاءُ غَسَانُ⁽²⁾

وقد نسبهم بعض الأخباريين لجد اسمه « جفنة بن عمرو مزريقاء بن عامر »⁽³⁾ فسموهم آل جفنة . وفيهم يقول حسان⁽⁴⁾ .

لِلَّهِ دَرُّ عَصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ يَوْمًا بَجَلَّتْ فِي الزَّمَانِ الْأُولِ
أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرَ ابْنِ مَارِيَةِ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ

وعمر و هذا أبو جفنة ، ربُّما سُمي مزريقا لأن العرب في زمنه وعند سيل العرم تمزقوا شرمزق ، وساحوا في الأرض . وقد يوافق هذا الرأي رأي (نولدكه)⁽⁵⁾ الذي رأى من الآية ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور⁽⁶⁾ .

ويظهر من كتابات بعض الأخباريين أن عرباً حكموا ، بلاد الشام ،

(1) ج . علي 3 / 387 عن حمزة (ص 67)

(2) اللسان مادة (غ . س . ن) 13 / 313 صادر

(3) اللسان مادة (ج ف ن) 13 / 90 صادر

(4) الديوان 183 دار احياء التراث العربي .

(5) ج . علي : 3 / 391 عن امراء غسان ص 3

(6) سبأ 34 / 18

قبل آل جفنه وهم (الضجاعة) . ومن هؤلاء داود اللثق ، الذي اعتنق النصرانية ، ونُسب إليه دير داود . كما يظهر أيضاً أن ضجعم أمير الضجاعة لم يكن منجياً وليس له من ولد وريث فدعا النساك النصاري لإلهم من أجل الأمير فرزق ولداً ولأجل هذا الحدث تنصّر وقبيلته⁽¹⁾ .

ولقد أشار المؤرخون اليونان والسرّيان إلى ملكة عربية دعوها (Mauia) (ماوية) حكمت القبائل العربية الضاربة في بلاد الشام وقد حاربت الروم مراراً وانتصرت أكثر من مرة ثم تصالحت معهم شرط تولية الراهب (موسى) الأسقفية على عربها . وكان هذا الراهب معارضاً لمذهب آريوس ، ونشيطاً في نشر النصرانية بين صفوف عرب الشام والجوار⁽²⁾ . ولعلّ (ماوية) هذه هي مارية أم جفنة والتي ذكرها حسّان في شعره سابقاً وقد أصاب الكلمة بعض التحريف لانتقالها من لغة إلى أخرى . لقد كان ملوك الغساسنة نصاري ، وقد كان الحارث بن جبلة من أنصار « المنوفسيّتين » (Monophysites) أي القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح ، وقد قيل عن هذا الملك أنه سعى لدى الامبراطورة « تيودورة » لتعين « يعقوب البرادعي » ، ورفيقه « تيودورس » اسقفين على المقاطعات السورية العربية الخاضعة لنفوذ الروم وقد كلل مسعاه بالنجاح . وكان ذلك عام 542 للميلاد⁽³⁾ . والحارث هذا هو صاحب يوم حلّيمة الذي انتصر فيه على ملك آل لخم ملك الحيرة المنذر وقتله⁽⁴⁾ . وهو الذي قصده ذو القروح امرؤ القيس الكندي ، طالب ثار والده ، ليوصله إلى القيصر ليشكو ظلامته ويطلب مساعدته . ولما قُتل امرؤ القيس في برّ الأناضول

(1) ج . علي 3 / 395 عن Die Araber 2. S. 33 وعن أمراء غسّان (ص 3)

(2) مجلة المشرق السنة العاشرة عدد 11 حزيران 1907 ص 524

(3) ج . علي 3 / 408 عن François Nau: Les A. Chres; p. 52

(4) انظر ملكة المناذرة . (الحيرة) سابقاً .

أومات ، سار هذا الحارث إلى تيماء ليطلب وديعة امرئ القيس من السموأل ، ويقول السموأل بذلك . بعد أن يرفض تسليم الوديعة وهو ينظر إلى ابنه وقد شطره سيف الحارث إلى نصفين :

ينسى لي عاديا حصنا حصينا وعيننا كلما شئت استقيت
واوصي عاديا قدما بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
وفيت بأذرع الكندي . إني إذا ما خان أقسوام وفيت⁽¹⁾

وربما كان طالب الوديعة شخصاً آخر اسمه الحارث بن ظالم رسول ملك الحيرة المنذر والذي كان يتعقب الشاعر والملك الطريد ليقتله .

يتبين لنا مما تقدم أن الغساسنة العرب كانوا على علاقة وثيقة بالامبراطورية البيزنطية المغايرة لهم في العرق واللسان ، كما كانوا على علاقة سيئة بملوك الحيرة أبناء بجدتهم وهؤلاء كانوا بدورهم على علاقة طيبة بملوك فارس . وربما كان ذلك سببه العصبية القبلية والتنافر القبلي تغذيه القوى الخارجية لتوقع بين أبناء الأمة الواحدة وتجد بذلك سبيلاً لبسط نفوذها وسيطرتها . وهذا هو ديدن الممالك الكبيرة في المتقدم من التاريخ والمتأخر منه . . . والملاحظ أن الغساسنة كانوا نصارى والمناذرة كذلك فلماذا لا تجمعهم رابطة الدين مثلاً ، إن لم نقل رابطة العرق فيتحدون بدل تخاصمهم ويتآلفون بدل تباغضهم ، وآل ساسان مجوس وعبداء نار والبيزنطيون قوم غرباء .

أنا لا أرى أن العنصر الديني هو السبب في ميل الغساسنة إلى بيزنطة بل السبب الأهم والرئيسي هو النزاع القبلي المتأصل وحسب التسلط

(1) ديوان السموأل (المقدمة) ص 69 صادر بيروت

والظهور وشاهدي على ذلك أن المناذرة باعتراف أكثر المؤرخين كانوا نصارى وإن اختلفوا مذهبياً بعض الشيء عن الروم ، فلماذا يتقربون من الفرس المجوس ويتعدون عن الروم المسيحيين لولا احتضان الروم للغساسنة في بلاد الشام . وقد رأينا في كتابتنا عن المناذرة والغساسنة حروباً طاحنة نشبت بينهما وذهب ضحيتها أحياناً الملوك .

نعود لنتتبع تاريخ مملكة غسان فرى أن المنذر بن الحارث ملك بعد أبيه وكان كأبيه مذهبياً من أصحاب الطبيعة الواحدة . اهتم بالكنائس فبنى أو رمم كنيسة القديس « سرجيوس » في الرصافة ومن هذه الكنيسة أخذ التغالبة صورة هذا القديس عند غزوهم للمدينة⁽¹⁾ يقول الأخطل :

لما رأونا والصليب طالما ومار سرجيس وموتا ناقما
إن آخر ملوك الغساسنة ، كما هو معروف ، جبلة بن الأيهم الذي اسلم ثم ارتد وقصد القسطنطينية ومات فيها . وفيه يقول حسّان بن ثابت :

إن ابن جفنة من بقيّة معشر لم يغذهم أبؤهم باليوم
لم ينسني بالشام ، إذ هو ربّها ، كلا ولا متنعرا بالرؤم⁽²⁾ .

وفي مدح حسّان لآل غسان يقول :

« قدمت على عمرو بن الحارث ، فاعتاص الوصول إليه ، فقلت للحاجب بعد مدّة : إن أذنت لي عليه وإلا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت عنكم ، فأذن لي ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده النابغة ، وهو جالس عن

(1) ديوان الأخطل (309) طبعة الصالحاني

(2) الديوان ص 235 دار احياء التراث العربي / بيروت /

يمينه ، وعلقمة بن عبدة ، وهو جالس عن يساره ، فقال لي : يا ابن الفريعة !
قد عرفت عيصك ونسبك في غسان ، فارجع فإني باعث إليك بصلة سنية ولا
احتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين النابغة وعلقمة أن
يفضحاك ، وفضحتك فضيحتي وأنت والله لا تحسن أن تقول : الشعر
للنابغة في مدحهم .

رقساق النعمال طيب حُزرائهم .
يُحيون بالرَّيْحَان يوم السَّبَاسِ (1)
فأبيت وقلت : لا بد منه ، فقال عمرو : هات يا ابن الفريعة ،
فأنشأت :

أسألت رستم الدار أم لم تسأل	بين الجوابي . فالبضيع . فحؤمل
لله درُّ عصابة نادمتهُم .	يوما بخلق في الزمان الأول
أولادُ جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون ، حتى ما تهرُّ كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل (2)

ويقول النابغة الذبياني في مدح الحارث الأعرج الغساني :

لهم شيممة لم يُعطها الله غيرهم	من الجود . والأحلام غير عواذب
محلتهُم ذاتُ الإله ودينهم	قويم فما يرجسون غير العواقب
رقساق النعمال طيب حُزرائهم	يُحيون بالرَّيْحَان يوم السَّبَاسِ (3)

من شعر حسان ومن شعر النابغة ترى أن الغساسنة هم عرب نصارى
وربما يكون اتصالهم الوثيق بالروم هو سبب تنصُّرهم أو لعلهم قد أخذوا

(1) ديوان النابغة الذبياني - ص 12 .

(2) الديوان ص 179 وصادر ، بيروت

(3) الديوان ص 47 دار المعارف .

هذا المذهب من المبشرين النصارى الذين انطلقوا من جوارهم من فلسطين
مهد المسيحية يحملون تعاليم السيد المسيح الى « الأمم » ومن ضمنهم
العرب» .

الفصل السادس

التراث الديني والفكري والاجتماعي لهذه الشعوب

1 - التراث الديني

كان أكثر العرب في جاهليتهم وثنيين يؤمنون بقوى (إلهية) « متعددة تشمل الكواكب ومظاهر الطبيعة » . كما كانوا قريبين جدا من المذهب الطوطمي⁽¹⁾ ، نستدل على ذلك من أسماء بعضهم ومن أسماء قبائلهم كمثل : بنو أسد ، بنو فهد ، بنو كلب ، ثور ، ذئب ، عقاب ، نسر ، قريش ، حنظلة ، صخر ، حية ، وحنش . مما يشير إلى أن العرب تفاءلوا وتشاءموا بالحيوان والنبات والجماد فقدسوها لتحصيل البركة ولاعتقادهم أن الطوطم يحمي أهله عند الخطر المداهم ، وقد حمل العرب معهم هذه الطوطم إلى ساحات الوغى كما فعل أبو سفيان قبيل اسلامه عندما حمل « اللات والعزى » يستنصرهما في أحد على المسلمين ، وها هو الشاعر العربي يذكر أن « يغوث » يدافع عن قبيلته في ساحة القتال :

وسار بنا يغوث الى مراد فناجزناهم قبل الصباح⁽²⁾
لقد تفاءل العربي بالحمامة من الطيور ، وبنجاح الكلاب من الحيوانات

(1) أحد الكائنات يحترمه الناس ، ويعتمدون علاقة نسب بينهم وبينه ، وهو يحمي صاحبه ويدافع عنه ، ويكون حيوانا او نباتا .

تاريخ العرب في انعصر الجاهلي / 457 د . عبد العزيز سالم .
دار النهضة بيروت

(2) الأصنام ، لابن الكلبي ص 10

لاستجلاب الضيوف . وتشاءوا من الثور المكسور القرن ومن الغراب الذي لا يزال بعضنا حتى اليوم يتشاءم من صوته . وضربوا المثل في الشؤم منه . فقالوا : أشأم من غراب البين . ويذكر الألوسي أن الاسم لزمه لأنه لا يعتري ديار القوم إلا إذا بانوا عنها⁽¹⁾ . وكان العرب يحرمون لمس الطوطم⁽²⁾ خوفاً ورهبة وهذا ما يجعلنا نعتقد بتواتر هذه العادة أو الاعتقاد بها حتى يومنا هذا حيث يمتنع الناس عن لمس الأشجار، أو قطعها، القائمة قرب أماكن العبادة وأضرحة الأولياء وتطورت وثنية العربي إلى عبادة الكواكب والجماد . ويقول شوقي ضيف إن عبادة النجوم والكواكب دخلت إليهم من قديم وجاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين⁽³⁾ وربما صحّ كلامه ولكن العرب في جاهليتهم اتصلوا بأمم وشعوب كثيرة وكان لهم علاقات معها من بينها الصلوات الدينية . وقد رأينا ذلك في فصول سابقة ، وكما سنبين لاحقاً عندما نتكلم عن ديانات الجاهليين بالتفصيل . لقد عرف عرب الجنوب التثليث بعبادتهم للآلهة الثلاث : « ود » القمر ، « اللات » الشمس ، « العزى » الزهرة . فالقمر والشمس والزهرة ثالث مقدس لدى عرب الجنوب الجاهليين⁽⁴⁾ وهذا الثالث هو نفسه عند البابليين : الآله (سين) ، القمر و (شمش) الشمس ، و (عشتار) الزهر⁽⁵⁾ . وقد قدم العرب القمر على الشمس وهذا ما فعله البابليون والكلدان . لقد كانت عبادة الأصنام⁽⁶⁾ منتشرة بين عرب الجاهليين انتشاراً واسعاً وهي أحجار وأشجار وحيوانات وكواكب منها عبادة العزى « شجرة

(1) تاريخ العرب في العصر الجاهلي سالم عن الألوسي 2 / 235

(2) نفس المصدر عن الأساطير ص 78

(3) تاريخ الأدب العربي 1 / 89

(4) ج . علي الجزء السادس

(5) انظر فيما بعد (فصل الأصنام)

(6) سنبين فيما بعد الفرق بين الصنم والوثن وكيف عبدها العرب وابن .

بوادي نخلة شرقي مكة « التي قطعها خالد بن الوليد وهو يقول :

يا عَزُّ كُفْرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانِكَ⁽¹⁾

ومما يرويه العرب أن الذي أدخل عبادة الأصنام إلى بلاد العرب هو : عمرو بن لحي . منها ود وسواع⁽²⁾ ، الذي تعبدت له هذيل وفي ذلك يقول الشاعر :

تراهم حول قيلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع⁽³⁾

ولا مجال في هذا الفصل لذكر جميع أصنام العرب التي سنوردها مفصلة في فصول لاحقة .

هذا عن الوثنية أما عن النصرانية فقد دخلت « بلاد العرب منذ أن نادى بها مؤسسها « يسوع الناصري »⁽⁴⁾ وانتشرت بين الكثير من قبائل العرب والشعر الجاهلي يتضمن الشواهد العديدة على مدى انتشارها . من ذلك قول عدي بن زيد العبادي :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليّ وربّ مكة والصليب⁽⁵⁾

وقول امرئ القيس⁽⁶⁾ :

يُضيء سناه أو مصابيح راهب
أهان السليط في الذُّبَال المقتل

(1) الأصنام 9-11

(2) الأصنام 51

(3) نفس المصدر 57

(4) انظر صلة العرب بالنصرانية

(5) الأغاني 2 / 111 دار الكتب

(6) الديوان : 60 دار صعب « صادر » بيروت

وقول المرقش الأكبر يذكر النواقيس وهي تفرع في أواخر الليل تدعو
الناس إلى الصلاة :

وتسمع ترقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس⁽¹⁾

وقول النابغة الذبياني وهو يذكر عيد الشعانين عند بني غسان منوها بما
اعتاد الناس على فعله في هذا العيد وهو حمل الریحان وتحية الملوك به وبالطبع
عند سيرهم مارين بالناس لتأدية صلاة العيد :

رقاق النعال طيب حُزرائهم يخيون بالريحان يوم السباسب⁽²⁾

وقول أوس بن حجر ذاكراً عيد الفصح وكيفية احتفال المسيحيين به إذ
يوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، بالشموع وهو
تقليد لا يزال قائماً حتى إذ :

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذبال المفثلاً⁽³⁾

إن أشهر من أفصح عن عقيدة العرب النصاري ، الذين قال لهم
سيدهم ، « أحبوا أعداءكم أحسنوا إلى مبغضيك ، باركوا لأعدائكم ، من
ضربك على خدك فأعرض له الآخر أيضاً »⁽⁴⁾

هذه العقيدة التي لا تأمر بالقتل ، هو جابر بن حنّى الذي نستدل من
اسمه على نصرانيته : والذي يقول :

(1) مفضليات ص 229 و دار المعارف مصر ، تحقيق شاعر وهارون الطبعة الخامسة

(2) ديوان النابغة الذبياني . المؤسسة العربية / بيروت / ص 12

(3) ديوان أوس بن حجر تحقيق محمد يوسف نجم ص 84 / صادر / بيروت

(4) لوقا 6: 27-38

وقد زعمت بهسراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى دم⁽¹⁾

إن وجود النصرانية ما بين ظهرائي العرب قد أثر فيهم أي « بالنصاري العرب » أثاراً مختلفة ، ولم يقتصر هذا التأثير عليهم فقط بل ربما تعداهم إلى الوثنيين ولنسمع زهير بن أبي سلمى يقول :

فلا تكتمننَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتنم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم⁽²⁾

من شعر زهير نتساءل . هل آمن هذا الشاعر الحكيم بالآخرة ؟ ومن أين تعلمها لا شك أنه اختلط ببعض النصاري أو ببعض اليهود وسمع منهم إيمانهم وأعجبته عقيدتهم فتغنى بها .

إن لأديرة⁽³⁾ العرب وبيعتهم المنتشرة في أكثر من مكان في بلاد عرب الجاهليين من أرض غسان إلى الحيرة إلى اليمن وظفار والبحرين⁽⁴⁾ دور كبير في إيصال العقيدة المسيحية إلى العرب الجاهليين ، ونقلهم من الوثنية « عبادة الصنم والوثن » إلى عبادة الله . .

أما اليهودية فقد انساحت في ديار العرب ابتداءً بآبراهيم⁽⁵⁾ وأكثر ما عرفناها في اليمن والحجاز وفي المناطق الشمالية . وربما هاجر اليهود إلى الأرض المجاورة لفلسطين في القرون الأولى للمسيحية وخاصة في أواخر

(1) النصرانية 171

(2) شرح المعلقات للزورني 110 دار الجليل بيروت

(3) انظر ماده « دير » في معجم البلدان 2 / 495 وما بعدها « دار صادر »

(4) انظر العرب والنصرانية فيما سبق .

(5) انظر العرب واليهود فيما سبق أيضا .

القرن الأول الميلادي (70 م) أثناء تدمير الهيكل « هيكل سليمان » من قبل الامبراطور تيطس الروماني ، هذا في الأزمنة المتأخرة وقبل ظهور الإسلام إذا . . . جاز لنا أن نقول ذلك .

ولا شك أن اليهود قد تركوا بصماتهم في نفوس العرب . فأيوب النبي الذي انتجت قريحته من القريض بأنفس ما انتجته قريحة البشر كان عربياً يهودياً باعتراف فيليب حتي «، فإذا صحَّ ذلك يكون أيوب قد اتحفنا وخلف لنا كنزاً ثميناً من آداب عرب الشمال ، وتراثهم الديني .

ولنسمع ما يقول الشاعر اليهودي، السموأل : (2)

تُطْفِئُ ما نُنِيتُ يوم مُنِيتُ أَمَرْتُ أَمْرَهَا وفيها بُرِيتُ
كُنْتُهَا اللهُ في مكانٍ خفي وخَفِيتُ مكانَهَا لو خَفِيتُ
مِيتَ دَهْرٌ قد كُنْتُ ثم خِيتُ وحياتي رهسَ بآن ساموت
وأَتَانِي اليَقِينُ أَنِّي إذا مُدِّتُ وإن رَمُّ أعْظَمِي مَبْعُوتُ

وهذا الشعر إن صحَّ أن قائله السموأل نراه موافقاً لما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَتَخْرُجُ الْحَيَاتُ مِنَ الْحِيَّاتِ ﴾ (3) .

أما الحنفاء وهم ليسوا باليهود ولا النصارى (4) بل جماعة من العرب لم تعبد الأصنام وإنما اعتقدت بوجود إله واحد وقد عُرِفُوا بالأحناف أو الحنفاء

(1) تاريخ العرب ص 74

(2) الديوان ص 182 « صادر » .

(3) آل عمران 3: 27

(4) ج . علي 6 / 449

وهي جمع الحنيف « صفة ابراهيم »^(١) الواردة في القرآن الكريم : ﴿ وقالوا
كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من
المشركين ﴾^(٢) .

ولقد كان لأفكار الأحناف أثر في تقويض أركان الوثنية في شبه جزيرة
العرب من ذلك ما فعله امرؤ القيس عندما استقسم عند الصنم « ذي
الخلصة » وخرج السهم ينهائه عن ذلك فسب الصنم ، وكسر القداح ،
وضرب بها وجه الصنم وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زور^(٣)

وامرؤ القيس أول من أخفر الصنم فلم يستقسم به بعاد^(٤) . والرجل
الكناني الذي ورد بإياله إلى صنم يقال له « سعد » ليتبرك به فتنفر الإبل
وتتفرق ، فيأسف الرجل ويتناول حجراً ويرمي الصنم به وهو يقول : لا
بارك الله فيك إلها ، أنفرت علي إيلي ثم ينشد :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغى أو رشد^(٥)

(١) تاريخ العرب في العصر الجاهلي عبد العزيز سالم 486

(٢) البقرة : 2 : 135

(٣) الأصنام 35

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر 37

ومما يشير إلى عبادة الأحناف أيضاً قول زيد بن عمرو بن نفيل :

أربباً واحداً أم ألف رباً أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتها ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلاً أزور وكان رباً لنا في الدهر إذ حلمي صغير⁽¹⁾

ولقد آمن الأحناف بالله ويوم الحساب نستدل على ذلك من قول علاف بن شهاب التميمي :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخذت منه خطة المغتال
وعلمت أن الله جاز عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال⁽²⁾

إن للأحناف فضل كبير لتهيئة العرب واعدادهم لاستقبال الدين الجديد « الاسلام » ولنبدؤا الوثنية وإضعاف مثلها الدينية :

2 - التراث الفكري

بعد أن بيّنا بعضاً من التراث الديني لعرب الجاهلية ، وأوردنا بعض شذرات من الأشعار التي قالوها للإبانة والإفصاح عما تجيش به نفوسهم من إلهيات وطرق عبادة ، لا بُدَّ لنا أن نتوقف ولو قليلاً عند التراث الفكري لهؤلاء الناس لنرى مدى صحة قول من نعتهم بالجاهليين ، ومن نفى عنهم صفة الجاهلية في القول والمعرفة وأثبتها من الناحية الدينية فقط ، ومن قال أن لفظة جاهلية هي مجاز للقول وليست حقيقة . . .

(1) نفس المصدر 22

(2) عبد العزيز سالم ص 490 عن الأرسني ص 276

لقد ذهب الباحثون الى القول : بأن الجاهلية هي « عصر الجهل والهمجية » بيد أن الحقيقة خلاف ذلك . فالجاهلية بالواقع هي ذلك الزمن « ما قبل الاسلام » الذي لم يكن فيه لأكثرية شعب بلاد العرب ناموس وازع ، ولا نبيٌ مُلهم ولا كتابٌ مُنزل⁽¹⁾ . ولكن هذه الجاهلية لا تصل الى ثقافة وحضارة هذا الشعب⁽²⁾ . إن حياة العرب في الجاهلية لبعيدة كل البعد عما يتوهمه البعض من أنهم قوم بدائيون يعيشون في معزل عن غيرهم من أمم الأرض . لقد كانوا اصحاب حضارات نشأت وتعاقت في معين وسبأ وبين الأنباط والتدمريين وفي الحيرة والشام⁽³⁾ . وكذلك في مدن الحجاز وخاصة مكة محجّ العرب الجاهليين وقبله العرب المسلمون . . صحيح أن العرب لم يبدعوا أو ينشئوا فناً عظيماً خاصاً بهم كما فعل اليونان والرومان والفراعنة والكلدانيون « سكان ما بين النهرين » ، ولكنهم عبروا عن غريزتهم الفنية بصورة واحدة هي « الكلام » . وقلما نجد بين أمم الأرض شعباً كالعرب - قديماً وحديثاً - في شدة إعجابهم بالأدب وتأثرهم بالكلام الأنيق ، شعراً كان أم نثراً فسيطر « اللسان » واستولى على العقول والأفئدة . ومن أمثال العرب ما يؤكد هذا الكلام : « جمال المرء في فصاحة لسانه » . ولقد قالت العرب أيضاً : إن الحكمة وقعت على ثلاث : عقل الأفرنج وأيدي أهل الصين ولسان العرب⁽⁴⁾ .

لقد كانت مزايا انسان الجاهلية تشمل الفصاحة أي المقدرة على الكلام والاجادة فيه نثراً وشعراً⁽⁵⁾ فانقادت اللغة واحتبك الكلام معبراً عن الأفكار

(1) حتي 128

(2) انظر العرب في العصور القديمة للطفي عبد الوهاب يحيى ص 121 وما بعدها دار النهضة / بيروت /

(3) انظر ما كتبناه عن هذه الدول فيما سبق .

(4) حتي 133 عن الجاحظ مجموعة رسائل القاهرة .

(5) حتي 133

وجاء أنيقاً رائعاً . وجاء القرآن الكريم في لسان عربي مبين وجمع ما في اللغة من بيان رائع وما في أفكار العرب من نضوج وذكاء ، ولذا كان اعجازاً وحجة يتمسك به المسلمون العرب في الدفاع عن صحة القرآن .

إن الأدب العربي برز إلى الوجود بانفجار شعري ، لأن العربي وكما عرفنا لم يتفوق في العصر الجاهلي إلا في ميدان القريض ، وفي القريض عبّر الشاعر للملأ عن أفكاره وأفكار قومه . فجاء الشعر الجاهلي بقصائده الرائعة والتي لم يأت العرب ، على مرّ عصورهم ، بمثلها ، جاء تراثاً لهم ، كما أن القرآن هو تراث الاسلام الأول والأهم .

لقد كان الشعر في العصور الجاهلية ، « عصور البطولة والفروسية » ، السبيل الوحيد للتعبير عن أفكار القوم ، كما كانت القصيدة تُعتبر الطراز الأمثل في الفن الشعري . وفي رأيي أن القصيدة لم تولد هكذا فجأة بل بلت بها قريحة العربي لا تسعة أشهر وحسب بل أعواماً عديدة ثم انجبتها وتعهدها بالإرضاع ، ورافقتها وهي تدب وتنمو حتى عهد الفطام ، فجاءت على هذه الصورة التي ألفناها وعرفناها .

لقد عرفنا من هذه القصائد ، التي هي وليدة أفكار الجاهليين ، المعلقات وأشهرها معلقة أمريء القيس أمير شعراء الجاهلية (1) ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات والمراثي ، والمشوبات (2) . أما الأفكار التي حوتها هذه القصائد فأشهرها الوصف والمدح والرثاء والهجاء والفخر والغزل والخمر والزهد والحكمة .

(1) نفس المصدر 136

(2) جهرة أشعار العرب (دار بيروت)

لقد كان لأشعار العرب ولا يزال ، قيمة عظيمة ، فهي من أهم وثائق تاريخ تلك الأعصر ، لأنها تجمع لنا من المعارف ما يجعلنا نسميها بحق « ديوان العرب » . إنها المرآة التي تعكس لنا أحوال الجزيرة الطبيعية وجغرافيتها ، وأحوال العرب الاجتماعية والعقلية باسطةً لنا أخلاقهم وأنسابهم ومآثرهم وأيامهم ، كما نرى في هذه المرآة لباسهم وحليهم وأزياءهم ومآكلهم ومشربهم ، والمناحي الدينية لهم وطرق عبادتهم ، وما ألوا به من علوم ومعارف وصناعات مما سنوضحه فيما بعد .

3 - التراث الاجتماعي : (الحالة الاجتماعية)

تحدثنا فيما سبق وباقتضاب عن الوجه الديني والفكري لعرب شبه الجزيرة . فماذا عسانا نتحدث عن الحالة الاجتماعية ؟

تُعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب زمن الجاهلية ، وأبنائها ينتمون إلى أصل واحد تربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة . ورابطة العصبية تدعو إلى نصرته الفرد لقبيلته ظالمة كانت أم مظلومة . وأكثر ما تقوم العصبية على النسب . يقول ابن خلدون (1) :

« وأما جِلُّهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ، ولا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد . . . »

والعصبية عند العرب نوعان : عصبية الدم . وهي تجمع القبيلة برباط وثيق كما لو كان أبنائها أفراد أسرة واحدة . وعصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد

(1) مقدمة ابن خلدون ص 128 دار القلم بيروت .

مشترك . وهذا ما يجمع قبائل متعددة تنتمي الى هذا الجذ وهذا ما نلمسه في العهود المتأخرة للجاهلية وعند ظهور الاسلام وبعده فقد استعان معاوية بالعرب اليمانيين لتوطيد حكمه (1) . لقد كان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها والحفاظ على حقوقها وخاصة حق الأخذ بالثأر ، وكانت القبيلة حياة الفرد وكيانه فقدسها وسيطرت عصبيتها على نفسه دونما أي شيء آخر . وقد يتسامح العربي في دينه أما عصبية قبيلته فلا . يقول دريد بن الصُّمَّة (2) :

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ثرشد غزيرة أرشد

فلا يهمُّ هذا الشاعر ، الذي يصور حالته وهي بالطبع حالة جميع أبناء القبيلة، لأن الشاعر لسان القوم ، لا يهمه إن ضلت أو رشدت قبيلته فهو منها وإليها وكانت القبيلة من جانبها ، وهي كدولة صغيرة تنطبق عليها مقومات الدولة في عصرنا الحديث باستثناء الأرض عند أهل الوبر ، أما الحضر فربما كانت لهم أرض وحدود يدافعون عنها دفاعهم عن أنفسهم ، كانت القبيلة تعطي لأبنائها ما يعطونها من حقوق وواجبات ، تنصرهم في الملهمات ظالمين كانوا أو مظلومين ، وحسب أحدهم الاستغاثة فإذا السيوف مُشرعة وإذا الدماء تتصبب . ولهذا كانت روح المساواة في هذه الحقوق أساساً يقوم عليه المجتمع القبلي .

أما شيخ القبيلة الأكبر ، فكان يسمى بالرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد وكان يختار من أشرف رجال القبيلة ، وأكثرهم مالاً ، وأكبرهم سناً ،

(1) حتى 255

(2) الأصمعيات . دار المعارف ص 122

وأعظمهم نفوذا . ومن الضروري أن تتوافر فيه صفات السخاء والبيان والحلم والحنكة والحكمة والشجاعة ، فربُّ هفوة صغيرة منه تسبب كارثة ، وغالباً ما .. يرث سيادته عن آبائه ، ولكن هذا ليس بشرط . وقد أشار عامر بن الطفيل أحد سادات بني عامر إلى هذا المعنى :

وإني وإن كنت ابن سيّد عامر وفي السرّ منها والصريح المهذب
فما سوّدتني عامرٌ عن وراثة أبى الله أن أسمو بأُم ولا أب
ولكنني أحى جاهها وأثقي أذاها وأرمي من رماها بمقنب⁽¹⁾

وقال آخر :

لسنا وإن كرمت أوائلنا يوماً على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ، ونفعل كالذي فعلوا⁽²⁾

أما الذي يرث سيادته عن آبائه ويجب أن يتحلّى بالصفات التي ذكرناها وبغيرها كدفع الديات والنجدة وحفظ الجوار فيشير إليها معاوية سيّد بني كلاب بقوله⁽³⁾ :

إنسي امروؤ من عصبية مشهورة حشُد لهم مجدّ أشمّ تليدُ
ألفوا أباهم سيّداً وأعانهم كرمُ وأعمامُ لهم وجدود
إذ كلُّ حي نابت بأرومة نبت العِضاهِ فماجدُ وكسيدُ
نعطي العشرة حقّها وحقيقتها فيها ونغفر ذنبها ونسودُ
وإذا تحمّلنا العشرة ثقلها قمنا به وإذا تعود نعودُ

(1) المسعودي : مروج الذهب 2 / 29 دار الأندلس بيروت .

(2) نفس المصدر .

(3) الفضليات قصيدة رقم 104 ص 355.

وإذا نوافق جرأة أو نجدة كُنا، سُمي، بها العدو نكيدُ
بل لا نقولُ إذا تبوأ جيرة إنَّ المحلَّة شيعُها مكدودُ⁽¹⁾

ولقد كانت القبيلة ، زمن الجاهلية ، تتألف من ثلاث فئات : أبناؤها
وهم عمادها وقوامها ، والعبيد وهم رقيقها وعمالها في خدمة المنازل والرعي
وأكثرهم سود اللون لاستيرادهم من الحبشة ، وكان بعضهم أبناء لأبناء
القبيلة ، ولكن من الإماء وليس من الحرّات الأزواج الحقيقيات . وهذا ما
نجدّه في عترة العبسي ابن زبيبة السبية الحبشية⁽²⁾ الذي قال له شداد عند الغارة
على قبيلة « بني عبس » ، « كريا عترة » ، فيجيب : « العبد لا يحسن الكرّ
بل يحسن الحلاب والصرّ⁽³⁾ » فيجيب شداد : كر وأنت حر . والموالي : وهم
عتقاؤها الذين كانوا عبيداً ويدخل في جملة الموالى الخلعاء الذين تتخلى عنهم
قبائلهم فيلتجئون الى قبائل تحتضنهم . ومن هؤلاء الخلعاء الصعاليك
المشهورون في أدب الجاهلية منهم الشعراء : تابطشرا والسُّليّك بن السلّكة
والشَّنْفري الذي نشتم من شعره أنه كان يماطل الجوع ويستفّ التراب حتى لا
تظهر عليه آثاره فيشتمت به أفراد الفئات الأخرى فيقول :

أديمُ مطال الجوع حتى أميته ، وأضرب عنه الذكر صفحاً ، فأذهل
وأستفّ ترب الأرض كي لا يرى له عليّ ، من الطُّول ، امرؤ متطوّل⁽⁴⁾

هذا عن تكوين القبيلة ، أما عن صفات أبنائها فأول ما يطالعنا في هذا

(1) العضاة : شجر ضخّم من أشجار البادية - الماجد : ذو المجد .

الكسيد : الدون . الثفل : الغرم والدية . سمي : سمية . مكدود : في ضيق وشدة .

(2) الديوان - مكتبة كرم دمشق . المقدمة .

(3) نفس المصدر .

(4) العرب في العصور القديمة : نجيب ، ص 377 دار النهضة / بيروت /

المجال إثارةهم القوة والبغي واستطابة الموت وهذا ما يعبر عنه عمرو بن كلثوم بقوله :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقرُّ السدْلُ فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمينا وما ظلمنا ولكننا سنبدأ ظالمينا (1)

ويقول زهير بن أبي سلمى :
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم (2)

ويقول السموال بن عدياء :

وإننا لقوم ما نرى القتل سبةً إذا ما رآته عامرٌ وسلول
يقرب حباً الموت أجالنا لنا وتكرهه أجالهم فتطول
وما مات منا سيدٌ حتف أنفه ولا طلٌ منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظلمات نفوسنا وليست على غير الظباسة تسيل (3)

ولقد كانت القبيلة على استعداد دائم للقتال وذلك حباً في البقاء .
فالحرب بين القبائل هي شبه دائمة يسببها الغزو والنجدة والخلاف على المرعى
وغير ذلك وكانت النساء تشاركن الرجال في الحرب لبعث الحمية والحماسة في
قلوب الرجال أو لحمل الماء للمقاتلين أو لاسعاف الجرحى وقد أشار إلى ذلك
عمرو ابن كلثوم .

(1) المعلقة العسر « معلقة عمرو بن كلثوم »

(2) شرح المعلقة السبع « للروزي » 121 دار الجبل .

(3) ديوان السموال ص 91 صادر

على آثارنا يضر حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أفراساً وبيضا وأسرى في الحديد مقرئينا
يقتسن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا (1)

وما دمنا في ذكر الحرب والقتال فلا بُدُّ لنا من ذكر أدوات العرب في
حروبهم وما استعملوه لذلك واشتهروا به .

السيوف : ومنها المشرفية والهندية يقول عنترة (2) :

وتطربني سيوف الهند حتى أهيم إلى مضاربها اشتياقا
الرماح : وأجودها اليزنية (نسبة إلى ذي يزن) والخطية والردينية يقول
عنترة (3) :

إذا خصمني تقاضائي بديني قضيت السدين بالرمح الرديني

ومنها القسي والسهام والدروع والمجن « الترس » والمنجنيق والعرادة
« ألثان لرمي الحجارة » .

لقد كان من العرب فريق ينعم بالشراء ، وفريق يعاني مرارة الفقر
والبؤس ، أما الأغنياء فهم الأسياد والملوك والتجار والمزارعون (في أطراف
اليمن والحيرة) . ولكنهم كانوا قلة إذا ما قيسوا بمجموع السكان . والناطقة
الذبياني خير من صور ترف الغساسنة إذ يقول :

(1) شرح المعلقات السبع « للزوزني » 185 دار الجليل .

(2) ديوان عنترة . ص 121 مكتبة كرم / دمشق /

(3) نفس المصدر ص 171

رقاق النعال طيب حجزاتهم يُحْيُونَ بالريحان يوم السباسب⁽¹⁾
تحييهم بيض الولايد بينهم وأكسية الإضرع فوق المشاجب ،

والخنساء الشاعرة الجاهلية تصف ثياب قومها في السلم فتقول :

ونلبس في الحرب سرد الحديد وفي السلم خزا وعصبا وقزا⁽²⁾

أما الفقراء فهم سواد العرب ، وعروة بن الورد ، الشاعر المتصعلك
يحس بازدراء الناس لفقره ويشعر بالحرمان والفاقة وتفرق الناس من حوله
فيكون لسان أمثاله بقوله :

ذريني للنفى أسمى قاني رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم وإن أسمى له نسب وخير⁽³⁾

ونعود الى صفات العرب وقد تفتنوا بالكرم والسخاء إما لأنهم
مفطورون على ذلك أو أنه العكس أو ربما كانت الأكثرية الساحقة بحاجة الى
من يمد يد العون لها أو ربما اعتبروا الكرم مما يرفع منزلة الرجل ويوصله الى
السيادة فيحتفون بالضيف ويكرمون الأراامل واليتامى ويتباهون بكثرة
الأضياف ويسعون لاجتلابهم بايقاد النيران في الليالي الظلمة وعندما يشتد
البرد . وعمن اشتهر بالجود والكرم وضرب به المثل في السخاء حاتم الطائي
الذي كان يعتبر بأنه عبد للضيف بقوله :

وإنني لعبد الضيف ما دام ثاويا وما في إلا تلك من شيممة العبد⁽⁴⁾

(1) الديوان ص 12

(2) ديوان الخنساء ص 66 . المكتبة الثقافية بيروت

(3) الديوان ص 45 صادر بيروت

(4) ديوان حاتم ص 44 دار بيروت

وتقول الخنساء في أخيها صخر :

وإن صخرًا لوألفنا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشبوا لنحار⁽¹⁾

كما تقول دالة على إيقاد النار :

وإن صخرًا لتأتم المسداة به كأنه علم في رأسه نار⁽²⁾

وعن إيقاد النار لاستجلاب الضيوف يقول حاتم لأحد عبيده وهو يعده بالعتق إذا جلب ضيفاً :

أوقد فإن الليل ليل قمر والسريح يا واقد ربح صر
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر⁽³⁾

ويقول مضر بن ربيعي منوهاً باستجلاب الضيوف أبان الصقيع والبرد :

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما كسى الأرض نضاح الجليد وجامده
أبيت أعشيه السديف وإني بما نال حتى يترك الحي حامده⁽⁴⁾

أما الشجاعة فقد كان المكان الأول عند العرب للفارس المقاتل وللشجاع الباسل ، أما حياة الخمول ، والتي أطلقوها على الصناع والتجار والزراع ، فهي للسوقة . إن الأعشى يعير إياها بأنهم زراع بقوله :

(1) ديوان الخنساء: ص 44

(2) نفس المصدر ص 44

(3) ديوان حاتم الطائي . ص 59 / دار بيروت / 1974

(4) تاريخ العرب في العصر الجاهلي « عبد العزيز سالم »
دار النهضة ص 442 عن الألويسي 1 / 61

لسنا كمن جعلت إياها دارها تكريت تنظر حبها أن يحصدا
جعل الإله طعامنا في مالنا رزقا تضمّنه لنا لن ينفدا
مثل المضاب جزارة لسيوفنا فإذا ثراع فأنها لن تطردا⁽¹⁾
فلعمراً جدك لو رأيت مقامنا لرأيت منا منظرا ومؤيدا
وترى الجياد الجرد حول بيوتنا موقوفة ، وترى الشيوخ مُسندا

والعفة وإن كان قد وُجد في الجاهلية من انغمس في الملذات وتغزل في النساء غزلاً إن البراءة منه براء كطرفه بن العبد وأمثاله الذي يقول :

وما زال شرابي الخمر ولذتي وبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي
ولسولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عؤدي
فمنهن سبق العاذلات بشربة كُمت متى ما تُعسل بالماء تُزبد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهكنسة تحت الجباء المعمد⁽²⁾

فقد كان من العرب من اتّصف بالعفة وغيض النظر عن نساء غيره وافتخر العرب وفاخروا بالعفة كما يقول عنتره :

واغضُ طرفي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها⁽³⁾

الوفاء : إن العرب عُرِفوا بوفائهم للعهود وكُرِّههم للنكث بها والغدر . وقصة وفاء السموأل لأدرع امرئ القيس الشاعر و « الملك الطريد » لا تزال تُضرب بها الأمثال حتى عصرنا الحاضر . وقد أبى السموأل تسليم الحارث الغساني دروع الكندي فقتل الحارث هذا ابن السموأل على مرأى من أبيه

(1) ديوان الأعشى ص 220 الشركة اللبنانية للكتاب بيروت
(2) شرح المعلقات السبع للزوزني « معلقة طرفه » دار الحيل / وديوان طرفه ص 31 وما بعد . المؤسسة العربية / بيروت
(3) ديوان عنتره 184 مختة كرم (دمشق)

ولكن دون جدوى وقد قال السموأل في ذلك :

وفيتُ بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيتُ(1)

وكذلك قصة وفاء هانيء بن مسعود الشيباني لودائع النعمان والتي أدت الى قيام حرب ذي قار بين العرب والفرس (2) . كما ضرب المثل بوفاء حنظلة بن عفراء الذي مرَّ على المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة في يوم يؤسه فحكم عليه بالموت وكفله شريك بن عمرو وليذهب ويودّع أهله ومن ثم يعود (3) . . .

إننا وقد بينا بعد صفات المجتمع العربي في عصر الجاهلية . يجدر بنا وقبل ختامة هذا الفصل من أن نتعرض للمرأة ومكانتها ودورها الاجتماعي إذ ذاك ومن ثم نخرج على الأحوال الحياتية وطرق معيشة الجاهليين .

كان العربي في الجاهلية يتزوج أكثر من امرأة ، إما لشهوة وسعياً وراء هوى جنسي أو لسبب سياسي بأن يصهر لعدد من القبائل لجمع الشمل وإما لأكثار الذرية فيزداد بها قوة ومنعة . وقد عرفوا زواج الصداق (4) ، وزواج المتعة (5) ، وزواج السبي (6) ، وزواج الاماء (7) وزواج المقت (8) . وكان عرب الجاهلية يطلقون نساءهم ثلاثاً على التفرقة ، أو على الخلع . وعلى المطلقة أن تنتظر حولاً كاملاً قبل أن تتزوج آخر . لقد أثر الجاهلي انجاب البنين على

(1) ديوان السموأل ص 80 صادر

(2) تاريخ العرب في العصر الجاهلي « سالم » 445 دار النهضة « بيروت »

(3) معجم البلدان « لياقوت » مادة غريان 4 / 199

(4) هو تقديم الخطيب صداقاً محدداً .

(5) تزويج المرأة الى أجل بدفع صداق معين والأولاد يتسبون الى والدهم . حواد علي 5 / 254

(6) يتزوج الرجل احدي مسبياته دون صداق .

(7) يتزوج أمته وابناؤه عبيد .

(8) كان يتزوج المرء زوجة أبيه للاستيلاء على الميراث .

البنات بل إن عدداً كبيراً من المجتمع كان يكره البنات . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك (1) .

وقد بالغ بعض الناس في كرههم للبنات الى حدّ وأدهن (أي دفنهن وهن أحياء) (2) . ومع هذا فقد كان كثير منهم يعطفون على بناتهم لحنوهم على الأهل . يقول معن بن أوس الشاعر :

رأيت رجلاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عواند لا يملنّهُ ونوائح (3)

كما لعبت المرأة الجاهلية دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية ، في السلم والحرب ، بحيث لم يجد بعض الملوك بأساً من الانتساب الى أمهاتهم كالمنذر بن ماء السماء (4) ملك الحيرة ، وعمرو بن هند الذي يقول فيه عمرو بن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنسا الوشاة وتزدرينا (5)

والمرأة في السلم تقضي وقتها في مساعدة زوجها في المنزل وخارجه . أما في الحرب فكانت تصحب الرجال لمداواة الجرحى ، وسقي المقاتلين ، وأحياناً تشارك في القتال (6) .

(1) النحل 16: 58- 59 الزحرف 43: 17

(2) راجع المرجة في التاريخ العربي د . ليلى صباغ ص 51- 82- 85- 180- 181- 230

(3) الأغاني 10 / 165

(4) ماء السماء : لقب لأمه مارية بنت عوف

(5) نفس المصدر ص 452 الهامش

(6) شوقي ضيف - العصر الجاهلي . ص 72 وما بعدها .

أما الأحوال الحياتية فلم يكن العرب في الجاهلية يعيشون على غط واحد . فقد عُرِفَت الزراعة في الجنوب (اليمن) ووحدات الحجاز (يثرب ، خيبر) وفي الطائف ووادي القرى كما عُرِفَت التجارة وقد كانت قوافل مكة تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً وشرقاً ، إلى جانب الأسواق في عكاظ وذو المجاز ودومة الجندل وخبير والحيرة والحجر باليامة وسوق الشحر وحضرموت وصنعاء وعدن وغيرها⁽¹⁾ التي كانت أشبه بمؤتمرات للعرب يبيعون فيها ويشترون وينظرون في الخصومات والمنازعات يتفاخرون ويتنافرون ويتسابق اليها الشعراء والخطباء⁽²⁾ . أما القبائل الرحل فقد اعتمدوا حياة الرعي والترحال سعياً وراء الكلاً والماء فاعتادوا الحرية وتغنوا بها واحتقروا ما سواها وأحبوا الصحراء والفيافي وأنسوا الوحش واستأنسوه كما يقول الاحيمر السعدي :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطيرو⁽³⁾

لقد كانت حياة الصحراء قاسية مخوفة مما عودهم احتمال الشدائد والجرأة والشجاعة وإن لم تحمي القبيلة نفسها وتذود عن وجودها تخطفتها القبائل وأفتتها ، وقد أعانهم البعير الذي يتحمل مثلهم هذه المشاق . فأشادوا به في شعرهم وكثيراً ما وصفوا معه الحيوانات التي يصادفونها في ترحالهم الدائم كبقر الوحش والثور والنعام والظباء⁽⁴⁾ وهم على صهوة الجواد يطاردون الوحش لصيدها . يقول امرؤ القيس :

(1) سعيد الأفغاني أسواق العرب . ص 194 وما بعدها دار الفكر . بيروت 1974

(2) نفس المصدر

(3) الشعر والشعراء في العصر الجاهلي ص 19 مصطفى الشكعة . دار القلم

(4) انظر معلقة امرئ القيس ولامية زهير .

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلا
كان دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل⁽¹⁾

ولقد تقيّد الجاهليون بعرفهم وعاداتهم تقيداً شديداً . والعرف عندهم هو ما استقرّ وثبت في أذهانهم حتى صار في حكم الدين ومن خلال هذا العرف يعرفون الحرام والحلال والمباح والمحرم . ولقد كانت أحكام أسيادهم هي التشريع والافتاء والحق ديناً ودنيا . ومن قبيل أعرافهم احترام العقود والعهود ، مثل احترام الأشهر الحرم ومراعاة حرمة أماكن العبادة⁽²⁾ .

وأخيراً وليس آخراً إن كل نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسي أو اجتماعي على المعنى الذي نفهمه نحن اليوم ربما كان مجهولاً آنذاك في ربوع تهامة والحجاز ونجد . وإن قارب أو شابه ما نحن عليه اليوم من نظم اجتماعية فأقل ما يوجد في الممالك التي نشأت على أرض العرب⁽³⁾ . لقد كان أهل الجاهلية في أكثرهم أهل بادية لا يعرفون إلا الارتجال والنقلة إرضاء لهوى نفوسهم ألا وهو الحرية الكاملة للفرد ، فلا يقيمون على ضيم يُراد بهم يدفعونه ما استطاعوا وعند كلِّهم يتخلون عن مواطنهم حفاظاً على قواعد الكرامة والشرف . وهكذا نراهم وقد نجمت عند أكثرهم خلال الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار والعفو عند المقدرة . وهذه الخلال تقوى عند الجاهليين كلما اقتربنا من أهل البادية وتضعف كلما أوغلنا في حياة الحضر .

(1) معلقة امرئ القيس .

(2) ج . علي 6 / 225

(3) ذكرناها سابقاً .

▪

▪

الباب الثاني

عبدة الله

الفصل الأول :

1 - تعريف الدين

الدين إيمان وعمل : إيمان برجود قوى خارقة فوق طبيعة البشر العقلية ، وهذه القوى تأثير في مجرى حياة الانسان . وعمل ، في أداء فرائض وشعائر وطقوس معينة ، تفرضها الأديان السماوية ، والأرضية (لعبادة الأصنام والأوثان) لاسترضاء الآلهة⁽¹⁾ . والايان قبل العمل . وحتى تقوم بعمل ما فرضته عليك الأديان ، لا بد وأن تكون مؤمناً وقبل القيام بهذا العمل ، كل الأيمان بوجود إله انصرفت إليه ذاتك ، واعتبرته حامياً لك قديراً عليك يُسأل فيُجيب ويُنادى فيلبي . فالعمل تابع لهذا الايمان وهو حصيلة مؤثراته في النفس الانسانية .

والدين كما جاء في اللسان⁽²⁾ هو الطاعة . ومن الدين جاءت لفظة ديّان . وهي من أسماء الله عز وجل ، ومعناها الحكم والقاضي والفهّار وفي ذلك يقول « ذي الاصبغ العدواني »⁽³⁾ :

لاه ابن عمك ، لا افضلت في حسبٍ فينا ، ولا اتديّاني فتخزوني

ويوم الدين هو يوم الجزاء ، أي يوم الحساب وفي المثل : كما تدين تُدان

(1) ج . علي 6 / 28

(2) لسان العرب 166:13 صادر مادة (دين) .

(3) نفس المصدر .

أي كما تجازي تجازي . يقول خويلد بن نوفل الكلابي للحرث الغساني
عندما اغتصبه ابنته :

يا أيُّها الملكُ المخوفُ، أما ترى ليلاً وصباحاً كيف يختلفان؟
يا حارٍ، أيقن أن ملكك زائلٌ واعلم بأن كما تدينُ ثدان⁽¹⁾

و« دان » اسم عبري يعني « قاض » . و« دان » خامس أبناء يعقوب
من زوجته بلهة⁽²⁾ وقد تنبأ يعقوب بشأنه قائلاً : « دان يدين شعبه كأحد
أسباط إسرائيل »⁽³⁾ . فالدين إذا هو الطاعة والخضوع لحكم حاكم « قاض »
ومجازٍ يفرض الجزاء في يوم الحساب . وفي معنى الطاعة يقول عمرو بن
كلثوم :

وأياماً لنا عثراً كراماً غصيننا الملك فيها أن نديننا⁽⁴⁾

وقد يأتي الدين بمعنى الجزاء وهذا ما قصد إليه الكتاب المقدس بقوله :
لا تدينوا لكي لا تدانوا . لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون .
وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم . . الخ⁽⁵⁾

وورد أيضاً في الكتاب المقدس : وأما على دينونة فلأن رئيس هذا
العالم قد دين⁽⁷⁾ .

(1) نفس المصدر

(2) قاموس الكتاب المقدس 356

(3) تك 30: 6

(4) تك 49: 16

(5) اللسان 13 / 169 مادة (د ي ن)

(6) انجيل متى : 7: 1 وما بعدها .

(7) انجيل يوحنا 16: 11

وقد يأتي الدين بمعنى الحساب كما جاء في القرآن الكريم : ﴿الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين﴾⁽¹⁾ . وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين⁽²⁾ . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين⁽³⁾ وما أدراك ما يوم الدين⁽⁴⁾ . . . الخ⁽⁵⁾

فالدين إذن علاقة بين الانسان ومعبوده فهو فعل (عبادة) ناتجة عن إيمان بعد قناعة ، أو إيمان مطلق فيه تسليم بما هو خارج عن نطاق العقل البشري وإدراكه ، وعن عمل ملموس ، هو نتيجة هذا الإيمان . والعمل يكون بالممارسات الانسانية من صلاة وصوم وتقديم ذبائح وفروض وارتداء ثياب معينة وقص شعر أو تركه والنذور وغير ذلك .

والكلام عن الدين بأنه عبادة يتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم : ﴿قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾⁽⁶⁾ . . . وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴿⁽⁷⁾

ومع ما جاء في قول أمية بن أبي الصلت :
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور⁽⁸⁾
وقد عرف الدين علماء كثيرون وأعطوه تعريفات شتى⁽⁹⁾ اختلفت

(1) الفاتحة 1: 4

(2) الصافات 37: 20

(3) س 38: 78

(4) الانقطار 82: 17

(5) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (د ي ن)

(6) الزمر 39: 11

(7) البينة 98: 5

(8) الملل والنحل 3: 86 مؤسسة الحلبي القاهرة .

(9) ج . علي : 6 / 5-6-7

باختلاف نظرة هؤلاء العلماء إلى الدين . ولكن مهما قيل في تعريف الدين فلكل دين شعائر تظهر في طرق العبادة تميز أتباعه عن بقية اتباع الديانات الأخرى وهذا ما سنبينه فيما بعد مستنديين بمعارفنا لأديان العرب فيما قبل الاسلام بنصوص جاهلية معينة وسبئية وحضرية وقبانية ولحيانة وغيرها . . . ونصوص آشورية وإرمية أيضاً إلى جانب الموارد الإسلامية والنصرانية واليهودية وأشعار الجاهليين .

2 - معنى الجاهلية :

الجهل نقيض العلم ، وإذا ما لم نعرف الشيء نقول جهلته⁽¹⁾ . وهو مجهل ذلك أي لا يعرفه ، والجاهلية زمن ما قبل الاسلام⁽²⁾ . والمجهل المفازة لا أعلام فيها . يقول سويد بن أبي كاهل⁽³⁾ :

فركبناها على مجهولها بصلاّب الأرض فيهنّ شجع

وقد جاء في الحديث الشريف : إنك امرؤ فيك جاهلية ، وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله ورسوله ، وشرائع الدين والمفاخرة في الأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك⁽⁴⁾ .

هذا ما ورد في « لسان العرب » عن الجهل والجاهلية . وبرأيي أن العلم هو المعرفة ، والمعرفة ليست القراءة والكتابة بل هي الامام بالشيء وادراك فحواه . وقد يكتسب الانسان المعرفة عن طريق معايشة الناس والاختلاط بهم

(1) اللسان مادة (ج ه ل) 11: 129 مصادر

(2) نفس المصدر

(3) نفس المصدر

(4) نفس المصدر

وسماع اخبارهم ، كما يكتسبها عن طريق التجول من مكان إلى آخر ، - من أرض إلى أرض ، ومن شعب إلى شعب - وهذا هو باب المعرفة برأيي بالنسبة إلى الجاهليين الأميين أي الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، بالإضافة إلى من كان يقرأ منهم ويكتب . ودليلنا على تجوال العرب من مكان إلى آخر هو قول الأعشى ، الذي كان كأقرانه ، بقية شعراء الجاهلية ، لسان القوم يفاخر بأعجاد عشيرته وأنسابها وتاريخ بطولاتها إن داخلها أو خارجها ، فهو والحالة هذه كوزير الخارجية والاعلام والارشاد القومي والثقافة في عصرنا الحاضر . إنه يقول :

قد طُفْتُ ما بين بَانِقِيَا إلى عَدَنَ وطال في العُجْمِ تَرْحَالِي وتَسْيَارِي (1)

والذي هذا حاله يطُوف في البلاد من اليمن حتى العراق ألا يتعلم شيئاً ويكتسب شيئاً ويعرف شيئاً من عادات الناس وأحوالهم وطرق عبادتهم وغير ذلك ؟ هذا إذا افترضنا أنه كان أمياً ! أي جاهلاً ! ومن كان جاهلاً لا يعرف التاريخ وقد كان أكثر العرب يعرفه ومن التاريخ يستخرجون الأنساب يقول عنترة :

يَقْدُمُهُ فَتًى مِنْ خَيْرِ عَبَسٍ أَبَوْهُ ، وَأُمُّهُ مِنْ آلِ حَامِ
عَجُوْذٌ مِنْ بَنِي حَامٍ بَنِي نُوْحٍ كَأَنَّ جَبِينَهَا حَجَرُ الْمَقَامِ (2)

وعنترة الذي يباهي بأبيه أنه من خير عبس ربما نوى وقصد أنه من خير

(1) بَانِقِيَا : ناحية في العراق . عَدَنَ : مرفأ مشهور في اليمن الديوان ص 69 المؤسسة العربية للنشر /

بيروت /

(2) الديوان 157 مكتبة كرم (بدمشق) . حَجَرُ الْمَقَامِ : ربما قصد به الحجر الأسود بالبيت الحرام وقد كانت كل العرب تعرفه .

بني سام لأنه يقارن بالمقابل بأمه التي هي من آل حام . وكلا النسبين يعودان الى نوح النبي ، الى جانب معرفته بلون أبناء حام حيث يقول أيضاً : وهو يذكر طيف عيلة ابنة عمه :

وإن عابست سوادي فهو فخري لأنني فارس من نسل حام (1)
إنه يفتخر بسواده الذي هولون أبناء حام وإن عابته عليه ابنة عمه ذات البشرة البيضاء .

وعترة العبد ابن الأمة راعي البهم الذي لا يعرف « إلا الحلب والصر » (2) الجاهل لأمر الدنيا كيف يعرف ساماً وحاماً والاسكندر دون أن يقرأ أو يكتب ؟ وهو الذي يقول :

أيا عزتنا لا عز في الناس مثله على عهد ذي القرنين لن يتهدما (3)
لا شك أنه دخل نادي القوم واستمع الى العارفين منهم أو أنه جاب الأصقاع واجتمع بالناس واستحوذ على ما عندهم من المعارف .
ونادي القوم هذا يذكره الأعشى بقوله :

وغر بني سعد بن قيس عن العلى وأحسابهم يوم الندى والتكرم (4)
ففي هذا النادي وكما يقول الأعشى يجعل سعد بن قيس الشاعر غريباً في حسبه ونسبه مما يفسر لنا أن العرب كانوا يجتمعون في مجالس معينة يتذكرون فيها الأحساب والأنساب يصلون البعض ويقطعون البعض الآخر .

(1) نفس المصدر 168

(2) نفس المصدر ص 6

(3) نفس المصدر ص 166

(4) الديوان ص 183 المؤسسة العربية . يوم الندى : أي يوم احتفاج القوم وحضورهم النادي .

وكما يذكر الأعشى النادي حيث يلتقي الناس نراه يغوص إلى أعماق التاريخ ليستخلص الدروس والعبر فيعبر عما يحيش في صدره من إيمان بالموت الذي لا يقف بوجهه حاجز فهو سيقطلع المرء لا محالة بقوله (1) :

وكسرى شهنشاه السذي سار ملكه له ما اشتهى راح عتيق وذنبق
ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ، وورد بتياء اليهودي أبلق
بناه سليمان بن داود حقة ، له أزج عال وطي مؤثق
ولا الملك النعمان يوم لقيته بإمته يعطي القُطوط ويأفق (2)

فالأعشى لا يذكر كسرى وعاديا وسليمان وداود والنعمان عن عفوية وسذاجة أو عن جهل وغباوة بل لا بد أنه كان يعرف أخبار من يسمي . ومن هذا القليل الذي ذكرناه نستنتج أن عرب ما قبل الاسلام لم يكونوا ، غالبيتهم على ما نرجح ، جاهليين بمعنى جهلة معرفة . ومن الخطأ أن نعتهم بالجهل والهمجية وقد أمتازوا ، وخاصة عرب الجنوب ، بثقافة وحضارة حاكت في تقدمها حضارات العالم القديم مصر وبابل وذلك قبل الاسلام بقرون طويلة (3) .

إن أكثر الباحثين ذهبوا في قولهم الى أن الجاهلية هي « عصر الجهل والهمجية » (4) ويعرفها فيليب حتي بقوله : « فالجاهلية بالمعنى الصحيح هي ذلك العصر الذي لم يكن لبلاد العرب فيه ناموس وازع ، ولا نبي ملهم ولا

-
- (1) نفس المصدر 116
(2) شهنشاه : كلمة فارسية « ملك الملوك » ورد : حصن . الأبلق : اسم الحصن . أزج : البناء المستطيل . الطي : البناء بالحجارة . إمته : النعمة ، السنة . القُطوط : النصيب . يأفق : يعطي بعضاً أكثر من بعض .
(3) انظر ما كتبناه سابقاً عن دول العرب
(4) حتي ص 128

كتاب مُنزل (1) ومن هذا القول نستخلص أن حتي يصفهم بأنهم جهلة دين وهذا ما لا نوافقه فيه . لأن شرائع موسى تسلمها من ربّه على طور سيناء وسيناء كما عهدناها سابقاً هي جزء من بلاد العرب . وأتباع موسى كانوا كثيرين في الجزيرة العربية (2) . والسيد المسيح ولد في فلسطين وأتمّ رسالته فيها وقد رأينا سابقاً (3) أن قبائل عربية كثيرة كانت تقيم فيها وحواليها . وإذا عدنا إلى التاريخ القديم إلى ما قبل موسى والمسيح ، نرى ابراهيم الخليل أول من وحد الله ونبد عبادة الأوثان وقد هاجر من « أور الكلدان » وحط رحاله في حاران ومن ثم اتجه جنوباً وقد عزا الرواة بناء الكعبة (أول بيت لله على وجه الأرض) إليه . كما قالوا أيضاً أن ابنه اسماعيل أول من نطق بالضاد وهو أبو العرب جميعاً (4) . إذن فإن نظرنا إلى الجاهلية تختلف عن نظرة « حتي » فالجاهلية ليست جهلاً وهمجية والجهل ضد العلم ونقيضه (5) وليست الضلال بعينه . إن المسعودي يقول : « كانت العرب في جاهليتهم فرقاً : منهم الموحّد المقرّ بخالفه ، المصدق بالبعث والنشور ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية كقس بن ساعدة الايادي ورثاب الشني ، وبحير الراهب » (6) . ويذكر ابن قتيبة أسماء أخرى كانت على دين الله منها : زيد بن نفيل وأبو قيس من بني النجار الذي ترهب ولبس المسوح وخالد بن سنان وأمّية بن أبي الصلت الذي قرأ الكتب وابتعد عن عبادة الأوثان . وكان يخبر بأن نبياً

(1) نفس المصدر .

(2) انظر سابقاً « صلة قدامى العرب باليهود » .

(3) انظر سابقاً « صلة قدامى العرب بالنصارى » .

(4) انظر سابقاً « صلة قدامى العرب باليهود » .

(5) مادة جاهلية دائرة المعارف الإسلامية .

(6) تاريخ الكعبة 122 دار الجيل .

سُيِّعَتْ⁽¹⁾ . وأمية بن أبي الصلت يشير الى إيمانه بقوله :

كل دين يوم القيامة عند الله - إلا دين الخليفة زور⁽²⁾

إن الجاهلية ليست الضلال لأن الضلال شرُّ والشرُّ نقيض الخير والشاعر الجاهلي عبید بن الأبرص يدعونا الى الخير ، والخير من الله ، مبشراً بديمومته إذ يقول :

الخير يبقی وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخْبَثُ ما أوعيتَ من زاد⁽³⁾

وهو أيضاً يقربنا بشعره من قول السيد المسيح « قريبك من صنع معك الرحمة »⁽⁴⁾ بقوله :

قد يُوصل النساخُ النَّاسي وقد يُقطع ذو السُّهْمَةِ القريبُ⁽⁵⁾

إن لفظة الجاهلية قد وردت في القرآن الكريم أربع مرات⁽⁶⁾ ففي سورة الفتح مثلاً : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حية الجاهلية ﴾ . وجاء في الكتاب المقدس : « فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل »⁽⁷⁾ .

(1) تاريخ الكعبة ص 123 = الخربوطلي دار الجيل . المعارف - ابن قتيبة ص 58 وما بعدها - دار المعارف .

(2) الملل والنحل ج 3 ص 86 مؤسسة الحلبي القاهرة

(3) الديوان ص 49 تحقيق حسين نصار الطبعة الأولى 1957 مكتبة البابي بمصر . وأوعيت : حفظت في الرعاء .

(4) انجيل لوقا 10: 37

(5) الديوان ط 26 دار بيروت 1979

(6) آل عمران آية 154 . المائدة 50 . الأحزاب : 33 الفتح 26 .

(7) أعمال الرسل 17: 30

إذن نفهم من كل ما تقدّم ونرجّح أن الجاهلية اشتقت من الجهل الذي يعني : السفه والطيش والغضب والنزق . فالعربي يغضب ولأتفه الأسباب ولا تزال هذه الصفة تلازمه حتى يومنا هذا تنم عن أخلاق الجاهليين وقد ورد في الحديث الشريف أن الرسول قال لأبي ذرٍّ وقد عيّر رجلاً بأمة : « إنك امرؤ فيك جاهلية » (1)

وبهذا المعنى يطالعنا عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا (2)
أي لا يسفه أحد علينا فنجازيهم بأكثر سفاهة .
يتضح لنا من هذه الأمثلة جميعاً أن الكلمة استخدمت لتدل على السفه والحمق والطيش

3 - كلمة عرب في معناها الاصطلاحي واللغوي :

جاء في (اللسان) (3) أن العُربَ والعَرَبَ : جيلٌ من الناس معروف .
والعاربة والعرباء : هم الخُلص منهم والصرحاء . والمتعربة والمستعربة .
هم الدخلاء . والأعراب والأعاريب البدو منهم . ومن نزل البادية ، أو جاور البادين وظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم : فهم أعراب . ومن نزل الريف واستوطن القرى والمدن فهم عرب . وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ قالت الأعراب آمنّا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنّا ﴾ (4) كما جاء أيضاً :

(1) أحمد أمين فجر الاسلام دار الكتاب العربي / بيروت / ص 69 .

(2) شرح المعلقات السبع للزوزني ص 178 دار الجيل

(3) لسان العرب مادة «ع ر ب» 1 / 586 « صادر »

(4) الحجرات 49: 14

﴿الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً...﴾⁽¹⁾.

كما وردت لفظة عرب في القرآن الكريم: ﴿فجعلناهم أبكاراً. عرباً أتراباً﴾⁽²⁾ و﴿نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين﴾⁽³⁾.

وقد اختلف الناس في العرب لماذا سُموا عرباً فقال بعضهم : أول من نطق بلغة العرب « يعرب بن قحطان »⁽⁴⁾ وهو نسله العرب العاربة ، وقد نشأ اسماعيل بن ابراهيم معهم فتكلم بلسانهم واسماعيل ونسله هم العرب المستعربة⁽⁵⁾ . يقول الأزهري : إنهم سُموا عرباً باسم بلدهم العربيات . وعربة باحة العرب ، وباحة اسماعيل وفيها يقول الشاعر :

وعربة أرض ما يحل حرامها ، من الناس ، إلا اللوذعي الحلاج⁽⁶⁾

وأنشد شاعر آخر في باحة العربيات :

ورجئت باحة العربيات رجا ، ترفرق ، في مناكبها الدماء⁽⁷⁾

والعربية هي لغتنا التي بها نتفاهم . قال قتادة : « كانت قريش تجتبي ، أي تختار ، أفضل لغات العرب ، حتى صارت لغتها أفضل لغات العرب وقد نزل القرآن الكريم بها »⁽⁸⁾ .

(1) التوبة 9: 97

(2) الواقعة 56: 37

(3) الشعراء 26: 195

(4) اللسان 1 / 587 ، صادر

(5) نفس المصدر

(6) نفس المصدر

(7) نفس المصدر

(8) نفس المصدر ص 588

إنه يُقال إلى من كان عربي اللسان فصيحاً ، أنه رجلٌ عربي . نفهم من كل ما تقدّم أن كلمة عَرَب كلمة شمولية فإن دلت على العاربة والعرباء فهم العرب الأصيل . وإن دلّت على المستعربة فهم الدخلاء كاسماعيل مثلاً كما مرّ أعلاه وإن عَنَت الأعراب فهم البدو أي القبائل سكان البادية وأهل الحل والترحال .

هذا عن معنى لفظة عرب « اصطلاحياً » . ولا ندخل في جدل العلماء عن أول من نطق بالعربية ، وقد تباينت آراؤهم في ذلك فمنهم من عزاها إلى « يعرب بن قحطان » أو إلى اسماعيل بن ابراهيم⁽¹⁾ . فالحقحطانيون يدّعون أن جدّهم « يعرب » هو أول من أعرب في لسانه ، ولسانه لسان العرب الأول ومنه أخذ العدنانيون لغتهم ويأتون بشاهد من شعر حسان حيث يقول :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غسير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائسم في القفر⁽²⁾

وفي رأيي أننا سنظل في متاهة من أمر أول من نطق بالعربية حتى تكشف لنا الأرض عن مكنوناتها عند ذلك نؤمن إيماناً حقيقياً بوجودها وأول من استعملها كما آمن توما .

إن لفظة « عرب » كانت تعني زمن الآشوريين ، وخاصة على عهد ملكهم « شلمنصر » (بداوة وإمارة) حيث كان يحكم هذه الإمارة « ملك » اسمه (جندب) الذي كان على علاقة سيئة بالآشوريين⁽³⁾ . أما في الكتابات

(1) ج . علي 1 / 14 دار العلم للملايين .

(2) نفس المصدر ص 15

(3) حتى 66

البابلية فقد وردت لفظة «Matu A-Ra-Bi» وتعني أرض العرب⁽¹⁾ وبهذا المعنى أيضاً أي معنى البداوة وردت لفظة عرب في التوراة وبمعنى الأعراب أيضاً⁽²⁾ .

أما عن معنى الكلمة لغوياً فقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال : « الثَّيْبُ تُعْرَبُ عَنْ نَفْسِهَا أَي تَفْصَح »⁽³⁾ وقال الأزهري : الإعراب هو الإبانة . وبهذا المعنى قال الشاعر أبو زياد⁽⁴⁾ :

وإنسي لأكنسي عن قذور بغيرها ، وأعرب أحياناً ، بها ، فأصارحُ

إذن فكلمة عرب ، أعراب ، إعراب : تعني الإفصاح والإبانة عن المعاني بالألفاظ أما المعنى الواسع لهذه الكلمة فهو يُطلق على سكان الجزيرة على الإطلاق وإذا أردنا التخصيص فإنها تقتصر على عرب الحجاز استناداً إلى قول أحد العلماء أبو عمرو بن العلاء الذي سئل عن لسان حمير فأجاب : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربييتنا »⁽⁵⁾ .

4 - فكرة الخالق والخلق :

إن نظرة الإنسان إلى الخالق والخلق ، تختلف باختلاف بيئته (زمانياً ومكانياً) طبقاً لتطور عقله ونمو معارفه واتساع ثقافته ، كما تخضع لعرق هذا الإنسان وجنسه . وإذا أخذنا مثلاً عن المسيحيين في القرن العشرين ، وهم كثر وينتشرون في كل بقاع الدنيا ، نرى السيد المسيح وقد صُوِّر في كنائس

(1) ج . علي 1 / 17

(2) اشعياء : 13 : 20 و 13 : 21 وكذلك ارمياء : 25 : 24 و 2 : 3 .

(3) اللسان 1 / 588 صادر

(4) نفس المصدر

(5) طبقات الشعراء : ص 8 دار الفكر

المشرق العربي بما يُشبه الانسان العربي من لون بشرة وشعر وملامح وإذا انتقلنا الى كنائس أوروبا شاهدناه يختلف بعينه الزرقاوين وشعره المسترسل الأشقر . . . أما في افريقيا وبين زنوج أميركا ننظره عبداً أسود . . . فهلا كان السيد المسيح كذلك ؟ (1) .

وما دمنا نبحث في ديانات الجاهليين ، فلا شك أنه كان لهم رأيهم في الخالق والخلق .

إذا تصفحنا القرآن الكريم وقد وُجّهت كلماته الى الجاهليين ، وفي رأيي أنهم كانوا يفهمون أكثرها إن لم نقل جميعها ، نرى كلمات : (الباري) و (المصور) و (الخلاق) و (خالق) وغيرها مما له علاقة بخلق الكون والانسان . ولكن بعضنا يسأل : هل نزلت مثل هذه الكلمات لتذكير الناس بما كانوا يعرفونه سابقاً وحثهم الى العودة إليه والإيمان به ؟ أم أنهم لا يعرفونه وقد جاءت هذه الكلمات تنير لهم سبل معرفة الخالق ؟ وجوابنا على ذلك هو : ربما عرف الجاهليون الخالق وكيفية الخلق ولكن ليس بالصورة التي جاء بها الاسلام . وإذا جارينا القرآن الكريم نستدل على أن قريشاً كانت تؤمن - قبل الاسلام - بإله واحد خلق الكون ، وهو رب السماوات والأرض .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ : الله ، فأنى يؤفكون ﴾ (2) .

(1) أجبني كاهن زنجي في الولايات المتحدة بقوله : إذا وضعنا أيقونة للسيد المسيح بلونه الأبيض في كنائسنا فإننا نخاف المؤمنين أن ينفر وامن الكنيسة لما بينهم وبين البيض من كره وعداوة . فهم يريدون مسيحهم أسود لا أبيض .

(2) العنكبوت 61: 29

وآيات أخر كثيرة فيها اعتقاد بالله وبخلقه المطر ، والقسم به ، والتضرع إليه (1) . منها نستدل على معرفتهم بالخالق وإن كان بعضهم قد أشرك به صنماً يتقرب بواسطته إلى الخالق الأكبر كما روت كتب أهل الأخبار : (2) : « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريك هو لك . تملكه وما ملك » .

وفي دعاء العرب الذي نعثر عليه مثوراً هنا وهناك ، نرى اعترافاً صريحاً منهم بوجود الله الخالق القادر . كقولهم : « مسح الله فاه ، ود لا أهدي الله له عافية » و « شئت الله شعبه » وإلى غير ذلك (3) .

لقد خاف الجاهليُّ الله وقرن هذا الخوف بحفظه للعهد . وهذا الشاعر عمرو بن شأس يقول (4) :

ولولا اتقواء الله والعهد قد رأى منيته مني أبوك اللياليا
كما دعا الجاهلي إلى الاغتراب والانسباح في الأرض الواسعة وهي أينما
حللت ملك لله . يقول عروة بن الورد (5) :

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعدوا
والجاهلي يعرف أن الله الخالق هو عليم بكل شيء يعرف الخفايا
والأسرار . يقول زهير (6) :

(1) العنكبوت آية 63 . لقمان 25: 31 . الزخرف 9: 43 . الزمر 38: 39 الأنعام 109-136-148 النحل 38 :

(2) اللسان مادة (ش ر ك) 10 / 448

(3) ذيل الأمالي والنوادر ص 57 وما بعدها .

(4) الأغاني 10 / 66 دار الفكر .

(5) الديوان ص 44 صادر - بيروت .

(6) شرح المعلقات السبع للزوزني ص 110 دار الجيل

فلا تكتمنن الله ما في نفوسكم ليخفي . ومهما يكتنن الله يعلم
يؤخر فيودع في كتاب فيدخر ليوم الحساب او يعجل فينقم .

وهذا اعتراف صريح بيوم الحساب وأن الله يجازي عباده إن أجلا أو
عاجلاً . ومن إيمانهم بوجود خالق ، قولهم : (لا وبارئ الخلق) و (لا
والذي جلد الأبل جلودها) و (لا وخالق الأصباح) ، (لا ومهب الرياح) ،
(لا ومنشر الأرواح)⁽¹⁾

إنها قسم يدل عن عقيدة بوجود خالق . وكون الله خالقاً فهو يُسأل
فيجيب ولن يخيب سائله ومن كالله عز وجل ؟ الذي لا شريك له كما يقول
عبيد بن الأرض .

من يسأل الناس يحرموه وسائسل الله لا يخيب⁽²⁾
بالله يدرك كل خير والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب⁽³⁾

ولعامر بن الظرب العدواني وصية طويلة في الخلق ، يقول في
آخرها : « إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا
مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً » . ثم قال : « إني أرى أموراً شتى وحتى .
قيل له وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً ، ويعود لا شيء شيئاً ، ولذلك
خلقت السموات والأرض »⁽⁴⁾

(1) ج . علي 6 / 108 عن ذيل الأمالي ص 50

(2) الديوان ص 26 دار بيروت .

(3) ج . علي 6 / 109

(4) ملل ونحل 3 / 87 مؤسسة الحلبي القاهرة .

لقد آمن الجاهليّون بالخالق تعالى ، وأنه هو الذي خلق آدم . إن الخالق قديم قدم الأزل ، وهو البداية والنهاية الذي ﴿خلق الانسان من علق﴾ ودليلنا على ذلك قول أحدهم : وهو عبد لطابخة بن ثعلب ابن وبرة من قضاة .

وأدعوك يا ربّي بما أنت أهله	دعاء غريق قد تشبّث بالعصم
لأنك أهملُ الحمد والخير كله	وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
-وأنست الذي لم يُخيه الدهرُ ثانيا	ولم يرَ عبدُ منك في صالح وجم
وأنست القديمُ الأوّلُ الماجدُ الذي	تبدأت خلق الناس في أكثم العدم
وأنست الذي أحللتني غيب ظلمة	إلى ظلمة من صلب آدم في ظلم ⁽¹⁾

5 - اسم الجلالة (الله - إله - رحمان - رب - جليل)

الله الجليل ، ذو الجلال ، والإكرام ، وجلال الله عظمته . والجلال والجليل من صفات الله . ولا يُقال الجلال إلا لله⁽²⁾ أما الجليل فيوصف بها أيضاً الرجل ذو القدر العالي ، العظيم . وتأتي أيضاً الأجل بمعنى الأعظم كقول لبيد :

غير أن لا تكذبثها في الثقى ، واجزها بالبر لله الأجل⁽³⁾
لقد ورد اسم الجلالة في أشعار الكثير من شعراء الجاهليين . ويتسبب هؤلاء الشعراء إلى قبائل مختلفة ، تقيم في أماكن مختلفة ، مما يدل على أن الجاهليين دانوا بعبادة الله واتقوه واتكلوا عليه واستسلموا إلى مشيئته . وقد دعوهم بأسماء مختلفة .

(1) الملل والنحل 3 / 88 مؤسسة الحلبي - القاهرة .

(2) اللسان مادة (جمل) 11: 116 صادر

(3) نفس المصدر (جمل) 11: 116 صادر

الله :

لو لم يؤمن الجاهلي بالله لما حلف به . يقول زهير في مدحه هرم بن
سنان :

الله . قد علمت سراة بني ذبيان ، عام الحبس والمطر
كما يناشد زوجته أم ولده كعب :

وقالست أم كعب : لا تزرنني فلا ، والله ، مالك من مزار(1)
إن الله حق ومن وضع رجاءه عليه يقيه الله سوء المصير . يقول زهير
أيضا في مدح هرم :

ومن ضربيته التقوى ، ويعصمه من سيئ العثرات الله ، والرجم
ويقول أيضا :

بدا لي أن الله حق ، فزادني إلى الحق ، تقوى الله ، ما كان باديا(2)
الله هو الذي يجزي الناس على أعمالهم وييده ميزان الحق ، فإما أن
يكافئهم بالثواب فيدخلهم الجنة فردوسه وإما أن يحاسبهم فيذهب بهم إلى
الجحيم . تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر :

ذهب حريبا جزاك الله جنته

عنا وخلدت في الفردوس تخليدا(3)

(1) الديوان ص 171 تحقيق الأعلام الششمري المكتبة العربية . حلب . 1970 تحقيق الدكتور فخر الدين
فتاوة .

(2) الديوان ص 108 ، 164

(3) ديوان الخنساء ص 38 المكتبة الشامية / بيروت /

وتعلن الخنساء أيضا أن الله يقضي وليس لقضائه من مفر :
وقائلين تعزى عن تذكره فالصبر ليس لأمر الله مردوداً⁽¹⁾

وبهذا المعنى أيضا يقول عنبرة العبي :
إذا كان أمر الله أمراً يُقدرُ . فكيف يفرُّ المرءُ منه ويحذرُ⁽²⁾

والجاهلي البدوي الذي يعيش في متاهات الصحارى ويظعن دائماً وراء
الماء والكلأ يرى أن مصدر الخير ومرسل غياث الماء هو الله تعالى يقول أوس بن
حجر :

الم تر أن الله أنزل مِرَّةً وعَفْرَ الظباء في الكِناس تَقْمَعُ⁽³⁾
ومن له علم الغيب غير الله ؟ إن الإنسان يدرك ويعلم ما مرَّ معه في يومه
وما قبله كما قال زهير :

واعلم علم اليوم والأمر قبله ولكنني عن علم ما في غد عم⁽⁴⁾

ولكن الله وحده يعلم الغيب . يقول حاتم الطائي :
أما والذي لا يعلم الغيب غيره ويحيي العظام البيض ، وهي رميم⁽⁵⁾

وهو الذي نتقي ونخاف . يقول أوس بن حجر :
ألا تتقون الله إذ تعلقونها رضيع النوى والعرض حولاً تجرماً⁽⁶⁾

(1) ديوان الخنساء ص 39 المكتبة الثعافية

(2) الديوان ص 94 مكتبة كرم / دمشق / تحقيق محمد يوسف نجم

(3) ديوان أوس بن حجر ص 57 صادر / بيروت /

(4) معلقة زهير ص 118 . المجلدات السبع للروزي دار الحيل / بيروت /

(5) الديوان ص 86 - دار بيروت .

(6) الديوان ص 112 .

ويقول أيضا بعد اعترافه صراحة أن الله هو الذي من عليه بما له .
وذلك من جمعي وبالله نلته وإن تلقني الأعداء لا ألق أعزلا (1)
أما عنتره العبي فيقسم بالله ويقرُّ بقدرته التي تفوق قدرة البشر ، إنه
يُميت ويحيي ويبيده الروح والجسد على السواء ، قائلا :
والله لو شاهدته ورايته ما كان آخره يلاقي الأول
والله ما خلّيت في أوطانهم إلا النوائح صارخات في الفلا (2)
ثم يقول :
قسما بالسذي أمات وأحيا وتولى الأرواح والأجسام (3)
إن خوف الله لعظيم في نفوس القوم ، كما نستشف ذلك من قول
عنتره :
لولا الذي ترهب الأملاك قدرته جعلت متن جوادي قبّة الفلك (4)
والله هو المشتكى ، والمظلوم يحاول دائماً أن يجد من يستند إليه ،
والضعيف دائماً يتعلق بأهداب القوي . يقول عنتره :
إلى الله أشكو جور قومي وظلمهم إذا لم أجد خلاً على البعد يعضد (5)

(1) الديوان ص 90

(2) الديوان ص 146 مكتبة كرم / دمشق /

(3) الديوان ص 217 صادر / بيروت /

(4) الديوان ص 180

(5) الديوان ص 142

إن الله يعلم كل شيء وهو فاحص القلوب والكلى يجازي الناس حسب أعمالهم يقول ذو الأصبع العدواني :

الله يعلمني والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني⁽¹⁾

وينعكس هذا الإيمان بالله على تصرفات الجاهليين فنرى بعضهم يدعو إلى الحفاظ على الجار وعلى نساء الجار ، وما لهذه الدعوة من وجه اخلاقي نبيل ، نرى الرسول العربي بعد ذلك يقول « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ثم نراهم ينتبذون عبادة المال وكأنهم قد سمعوا ما جاء على لسان السيد المسيح « لا تعبدوا رين . إما الله وإما المال ، كما نراهم يطبقون أقواله . لا تهتموا بما للغد ، ولا بما تأكلون وما تلبسون . . . » إن مثل هذا نراه في شعر حاتم الطائي الذي يقول :

الله يعلمني أنسي ذو عافضة ، ما لم يخني خليلي يبتغي بدلا⁽²⁾

ثم يقول :

أفضح جارتني وأخون جاري معاذ الله أعمل ما حييت⁽³⁾

ويقول :

إذا كان بعض المال ربأ لأهله ، فإنني ، بحمد الله ، ما لي مَعْبُدُ⁽⁴⁾

ويقول :

كلوا الآن من رزق الإله ، وأيسروا ، فإن ، على الرحمن ، رزقكم غدا⁽⁵⁾

(1) الفضليات ص 161

(2) الديوان ص 74 دار بيروت 1974

(3) الديوان ص 31

(4) الديوان ص 35

(5) الديوان ص 41

إنهم يُشهدون الله على أفعالهم ، يقول الأعشى :

فلا تحسبني كافراً لك نعمة ، عليّ شهيدٌ شاهدُ الله ، فاشهدوا⁽¹⁾

ويؤمنون بأن الله هو الذي سوى السماوات والأرض . يقول الأعشى :

إن البذي يقبض السدنيا وينسُطها إن كان أغناك عني سوف يُغنيني

الله يعلمني والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني⁽²⁾

وقد يطابق هذا القول ما جاء في القرآن الكريم: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾⁽³⁾ إن من حمد الله واستعان بقومه لا بُدُّ وأن يتحمل عظامم الأمور ويسير بمجتمعه الى سواء السبيل . وهذا ما أشار إليه «مُعَوِّذُ الحكماء» معاوية بن مالك :

وكنيت إذا العظيمة أفضعتهم نهضت ولا أدب لها دبابا
بحمد الله ثم عطاء قوم يُقْكُون الغنائم والرقابا⁽⁴⁾

لقد توصل الجاهليون الى معرفة بعض صفات الله عز وجل . فالله واحدٌ أحد لا شريك له⁽⁵⁾ . هو القدير⁽⁶⁾ . والعالم⁽⁷⁾ . والمدرك⁽⁸⁾ . والغفور⁽⁹⁾

(1) الديوان ص 49

(2) المفضليات ص 162

(3) نوح 71

(4) مفضليات ص 359

(5) ديوان عبيد بن الأبرص ص 15 وانظر ديوان الأعشى ص 218

(6) مفضليات ص 162

(7) ديوان عبيد ص 131، 15

(8) ديوان عبيد ص 15

(9) ديوان عنترة ص 142

والواقف (١) المثقفي (٢) والعاذر (٣) والكافي (٤) والمجازي (٥)
والقاضي (٦)

لقد ورد اسم الله كثيراً في أشعار الجاهليين . ولو أردت ذكرها جميعاً
لجاءت تتوج عشرات الصفحات . . . ولكنني أكتفي بما أوردته متوخياً إثبات
وجود الله في عقل وفكر وقلب « الجاهلي » وقد انعكس هذا الوجود على أخلاقه
وتصرفاته .

إن امرأ القيس مؤمن بالله ، يفني بما عاهد الله عليه حيث يقول :

فاليوم أسقى غير مستحقبٍ إلهاً من الله ولا وأغله (٧)

وهو يشكر الله ناظراً إلى إبله :

أرى إيلي والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما استقبلتها صعودها (٨)

ويحث الناس على التمسك بحبل الله الذي به النجاح ، وعلى عمل
البر وهو خير حقيقة الرجل :

والله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقة الرجل (٩)

(١) مفضليات 261

(٢) مفضليات 384

(٣) ديوان الأعشى ص 12

(٤) ديوان الأعشى ص 208

(٥) ديوان الأعشى ص 15

(٦) ديوان عترة ص 74 دار صعب .

(٧) الديوان ص 149 صادر

(٨) الديوان ص 89

(٩) الديوان ص 152 صادر

ورُبَّ سائل يقول : أينطبق هذا الإيمان على امرئ القيس الذي نعته أهل الأخبار بالرجل العاثر الميال إلى اللهو والشهوات والذي رمى الصنم بالسهم لما جاء جوابه بخلاف ما يرغب ؟ وعلى غيره من الجاهليين ؟

واعتقادي بأن الانسان « كل انسان » يخضع تفكيره وإيمانه لأطوار حياتية مختلفة . فميول انسان ما ورغباته وأحاسيسه في سن العشرين هي ، ولا شك ، غيرها في سن الخمسين . وإذا عرفنا ذلك وتأكدنا منه ومن أناس عاشرناهم مدة طويلة من الزمن وأطلعنا على تصرفاتهم المعكوسة نتيجة إيمانهم لا نستغرب البتة اتجاهات امرئ القيس وغيره عن وصلتنا أخبارهم زمن « الجاهلية » . هذا بالاضافة إلى أن تفكير الإنسان وإيمانه يتغير من يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر وهذا ما رأيناه في شعر أمير شعراء عصر النهضة أحمد شوقي الذي يبدو « صوفياً » تارة ، في مثل قصيدته « ولد الهدى » والتي يقول فيها :

تروي وتسقي الصالحين ثوابهم والصالحات ذخائرُ وجزاء⁽¹⁾

وطوراً يبدو سكيراً يسعى وراء الخمرة لا يخاف عواقبها ، يطلبها حمراء أو صفراء وقد ولّى رمضان وخرج من سجن الطاعة ، في قصيدة « رمضان ولّى هاتها يا ساقى » . يقول :

هاتِ اسقنيها غير ذات عواقب حتى نراع لصيحة الصفاق⁽²⁾

ومما ذكره أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يتوجون رسائلهم بجملة (باسمك اللهم) وأول من استعمل هذه العبارة هو أمية بن أبي الصلت⁽³⁾ ،

(1) أحمد شوقي « تحقيق فوزي عطوي » دار صعب بيروت ص 244

(2) نفس المصدر ص 370 . الصفاق : الديك

(3) الأغاني 3 / 187 دار الفكر للجميع « بيروت » .

ولا يعقل أن يفتح قوم رسائلهم بهكذا عبارة إلا إذا كانت تعني ما تعنيه لهم
والأما شاهدنا المسيحيين يفتحون رسائلهم بعبارة « باسم الآب والابن
والروح القدس » والمسلمين بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم »

الرحمن : الإله : الرب :

إن اسم الجلالة ورد في أشعار الجاهليين تحت ألفاظ مختلفة لا زلنا
نستعملها ونخشع عند ذكرها في عصرنا الحاضر . مثل « رحمان وإله ورب »
وها هو صخر أخو الخنساء الشاعرة المخضمة والتي قالت فيه أبلغ ما وصلنا من
التشبيه الذي لا يزال ذواقو الأدب يتناقلونه على ألسنتهم من جيل إلى جيل :
تقول :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنسه علم في رأسه ناراً⁽¹⁾

يقول صخر هذا في رثاء أخيه معاوية :

إذا ما امرؤ أهدي لميت تحية فحيّاك ربُّ الناس عنِّي معاوية⁽²⁾

إن الرحمان خالق مجزي الصالحين جنته ويسكنهم نعيم فردوسه ، هؤلاء
الذي أرضوه في حياتهم وسلم الناس من أذاهم . تقول الخنساء في رثاء أخيها
صخر :

كأنما خلق الرحمان صورته	دينار عين يراه الناس منقودا
أذهب حريباً جزاك الله جنّته	عنا وخلدت في الفردوس تحليدا
قد عشت فينا ولا ترمسى بفاحشة	حتى توفاك ربُّ الناس محمودا ⁽³⁾

(1) ديوان الخنساء المكتبة الشافية « بيروت »

(2) نفس المصدر ص 12

(3) نفس المصدر ص 38

ورأس الحكمة مخافة الله . هذا ما عناه المخبل السعدي بقوله :

إني وجدت الأمر أرشده تقوى الإله وشره الإثم⁽¹⁾

وهذا الدعاء الذي نحسه صادراً من القلب متمنياً من رب العباد ألا يباعد بين قيس بن الخطيم ومن أحب . يقول :

يا رب لا تبعِدْنْ ديار بني عذرة حيث انصرفت وانصرفوا⁽²⁾

كما يصدر مثل هذا الدعاء من قلب ابنة الأعشى التي ترجو ربها أن يبعد عن أبيها الآلام والأوجاع : كما يتصور الأعشى حيث يقول :

تقول بنتي ، وقد قرئتُ مُرحلاً : يا رب جئب أبي الأوصاب والوجعا⁽³⁾

ويظهر من الكثير من أشعار الجاهليين أن القوم عرفوا الرحمان وتعبدوا له ، . يقول الشنفرى :

لقد لطمت تلك الفتاة هجينها ألا بتر الرحمن ربِّي يمينه⁽⁴⁾

كما يقول سلامة بن جندل الطهوي :

عجلتم علينا إذ عجلنسا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق⁽⁵⁾

وهذا يعني أن قوماً من الجاهليين قد دانوا بعبادة الرحمن . ويقيني أن ليس في ذلك غرابة لأن اليهودية والنصرانية قد عرفتا طريقهما الى بلاد العرب

(1) المفضليات ص 118 . دار المعارف

(2) ديوان قيس بن الخطيم ص 113 . صادر

(3) ديوان الأعشى ص 105

(4) ج : علي 6 / 38 .

(5) ج : علي 6 / 39 .

كما أن ثمت قوماً كانوا موحدّين . إن الطائي حاتماً يقول :

كلّوا اليوم من رزق الإله وأيسروا وإنّ على الرحمن رزقكم غداً⁽¹⁾

أوليس هذا الكلام مطابقاً لقول السيد المسيح⁽²⁾ : « لا تهتموا بما
للغد » إننا نراهم يقسمون بالله والإله والرب كما فعل الأعشى بقوله :

فإنّي وربّ الساجدين عشية وما صكّ ناقوس النصناري أبيئها⁽³⁾

ويعترفون صراحة أنه كشّاف النوايا وفاحص القلوب والكلّي . يقول
الأعشى : في مدح قيس بن معد يكرب :

عطاء الإله ، فإنّ إلهه له يسمع في الغامضات السرار⁽⁴⁾

إن الذي يفحص القلوب والنوايا هو الديان الأكبر يرى من السماء
أعمال الناس ويبيده الحياة والموت . يقول عنترة :

يا عبـلُ أين من المنية مهربي إن كان ربّي في السماء قضاها⁽⁵⁾

ومن كانت هذه عظمتها لا بد من طاعته . يقول أوس بن حجر :

أطعنا ربّنا وعصاه قومٌ فذُقنا طعم طاعتنا وذاقوا⁽⁶⁾

(1) ديوان حاتم الطائي . ص 41 دار بيروت

(2) إنجيل متى 6: 24

(3) الديوان ص 135

(4) نفس المصدر ص 82

(5) ديوان عنترة ص 74 دار صعب بيروت

(6) الديوان ص 79 دار صادر بيروت .

وإنا لنرى الأعشى يجمع شعره أكثر أسماء الجلالة مشيراً الى التقوى والتوحيد والعبادة والامتناع عن أكل الميتة والزنى وكأني بكلامه قد جاء مطابقاً لما ورد في وصية رسل المسيح إلى الأمم⁽¹⁾ . يقول الأعشى :

وإن تقى الرحمن لا شيء مثله ، فصبراً إذا تلقى السحاق الغرائيا
وربك لا تشرك به ، إن شركه يحط من الخيرات تلك البواقيا
بل الله فاعبد ، لا شريك لوجهه ، يكن لك فيما تكدح اليوم راعيا
وإياك والميتات لا تقربنّها ، كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا
وجارة جنب البيت لا تنع سرّها ، فإنك لا تخفى على الله خافيا⁽²⁾

هذا قليل من كثير ، عن ورود اسم الجلالة في أشعار الجاهليين . وليس القصد هو الجمع بل الاستشهاد للدلالة على أن بعضهم كان يؤمن بالله عز وجل . ورب سائل يقول : كيف توفق بين من استقسم بالله في شعره واستقسم بالأصنام والأوثان في آن واحد ؟ أتدعو مثل هذا مؤمناً بالله ؟

يقيني أنه مؤمن حتى يثبت العكس وشاهدي على ذلك من تراه اليوم بعينك وتسمعه بأم أذنك وهو يحلف بالله وأنبيائه ومن ثم بمبدئه وعقيدته أو برئيس ربه وتنظيمه ، وربما يحلف بعقيدته السياسية والاجتماعية كأن يكون مثلاً من غير دينك ولا يؤمن به ، وتراه وحالة نفسية ما ، أو حالة اجتماعية مسلكية ما ، يقسم بما تؤمن به أنت ، عساه يستدر عطفك أو حنانك أو محبتك فينال ما يتمنى وبالوقت ذاته يعود إلى ديانته التي آمن بها يمارس شعائرها ويسير بهديها . أليس هذا مثل ذلك ! فلماذا يتجنى بعضنا على الجاهليين فينعتهم

(1) أعمال الرسل 21: 25

(2) الديوان ص 218 . السحاق الغرائي : الهزالي الجياع .

بنعوت ربما كانوا منها براء ، وتنطلق التهم جزافاً « والويل كل الويل لمن تأتي العثرات عن يده » .

6 - ايمان العرب في الجاهلية :

لم يكن عرب الجاهلية في عزلة عن باقي الشعوب المجاورة والتي بيّنا فيما سبق مدى الاتصال وتأثيره مدأً وجزراً ، ولم تكن شبه جزيرة العرب أرضاً بعيدة المنال عن أطماع الامبراطوريات القديمة (يونانية - رومانية - فارسية) فقد رأينا سابقاً أن اليونان دخلوا بعضها ، وكذلك الرومان بحملة « إيلْيوس غالوس » وأيضاً الفرس⁽¹⁾ ولم تنجُ شعوب هذه الأرض من غزوات آشورية ، كلدانية ، بابلية ، عبرانية ، وحبشية كذلك⁽²⁾ .

وربما أنه قد ثبت لدينا اتصال شعوب شبه الجزيرة بمثل هذه الشعوب فلا بُدَّ وأن يكونوا قد تأثروا بعبادات وأديان كل منها وربما كان أيضاً العكس صحيحاً .

ولما كانت هذه الشعوب على أديان وملل مختلفة وكثيرة ، فقد رأينا عرب الجاهلية - عرب الجنوب وعرب الشمال على السواء - على ملل ونحل مختلفة وكثيرة .

فمن عرب الجاهلية ، مَنْ كان وثنياً ، آمن بقوى إلهية كثيرة تصدر عن الكواكب والمظاهر الطبيعية . إنَّ هذه القوى مخفية في بعض النباتات والجماد والطير والحيوان . لذلك نراهم يتعبدون لأصنام وأوثان كانت رمزا

(1) راجع علاقة العرب بهذه الشعوب .

الفصل الثالث من الباب الأول .

(2) نفس المرجع

لألهتهم⁽¹⁾ . وقد عرف العرب عبادة النجوم والكواكب من قديم عن طريق الصابئة والكلدانيين ، كما رجعوا بألهتهم الى ثلاث مقدس هذا الثلاث هو : « ود أو القمر ، واللات أو الشمس ، والعزى أو الزهرة »⁽²⁾ . ونراهم يقدسون النار ويعظمونها ، فقد كانوا يوقدونها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين اليها . وربما تأثر العرب بتعظيمها ومؤانستها تشبها بالعبرانيين إذ سمع موسى أول نداء إلهي من العليقة التي رآها تشتعل ولا تحترق⁽³⁾ ، يقول له : « اخلع نعليك من رجلتك فإن الموضع الذي أنت قائم فيه أرض مقدسة » . وهذا ما ذكره القرآن الكريم أيضاً : ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً . . . الخ الآية﴾⁽⁴⁾ . وقد استجاب الله صلوات « ايليا النبي » وأرسل ناراً التهمت محرقة ليظهره على أنبياء البعل « الكذبة »⁽⁵⁾ .

وفي يوم الخميس لصعود المسيح الى السماء وبينما كان تلاميذه مجتمعين ، « صار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة ، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم »⁽⁶⁾ .

فربما اطلع العرب على ذلك فرسخ قدر النار في صدورهم .

لقد استمطر الجاهليون بالنار عندما احتاجوا ذلك واشتد الجذب وعم

(1) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي

تحقيق أحمد زكي . « ستفصل فيما بعد وبإسهاب عبادة الأصنام والأوثان »

(2) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي 1 / 89 دار المعارف .

(3) سفر الخروج : 3 : 1-6

(4) سورة النمل : 27 : 7 والقصص 29 : 28

(5) 3 صموئيل ص 18

(6) أعمال الرسل 2 : 1-5

البلاء وكانت عاداتهم أن يجمعوا ما يقدرّون عليه من البقر ثم يعقدونها بأذنانها
ويصعدون بها إلى جبل وعر يشعلون النيران بالأذنان المعقودة ، ويضجّون
بالدعاء والتضرع فتأتي السقيا⁽¹⁾ .

ويوقد الجاهليون نارا عند التحالف . ويدعون الله الحرمان والمنع من
منافعها على الذي ينقض العهد⁽²⁾

وأوقدوا نارا خلف المسافر والزائر الذي لا يحبون رجوعه ، وعندما
يريدون الاجتماع حيث يتوقعون حرباً وجيشاً عظيماً⁽³⁾ .

أما نار الحرتين فقد أطفأها الله بخالد بن سنان⁽⁴⁾ . وهناك نيران
السعالي والجن يحترق بها سدنة الأصنام والمعابد يرمون بشررها الناس لا يهتمهم
أنها من الآلهة⁽⁵⁾ . ويوقدون النيران لصيد الظباء ولترويع الأسود لابعادها
ولغير ذلك⁽⁶⁾ .

لقد كان الفرس المجوس على اتصال دائم بالعرب⁽⁷⁾ ، وربما تفشت
عقيدتهم ببلاد العرب من جراء هذا الاتصال . والمجوس كما هو معروف
يؤمنون بإلهين هما : النور والظلمة أو الخير والشر ويقيمون المعابد ويتفننون
بايقاد النيران فيها حيث لا تطفأ أبداً .

(1) الحيوان للجاحظ 4 / 172 وما بعدها دار صفت

(2) نفس المصدر 4 / 173

(3) نفس المصدر 4 / 174

(4) نفس المصدر 4 / 175 قصتها .

(5) نفس المصدر 4 / 175

(6) نفس المصدر 4 / 175

(7) راجع صلة العرب بالفرس

كانت الأصنام والأوثان منتشرة بين القبائل تقربوا إليها كالللات والعزى ومناة وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وجميعها ورد ذكرها في القرآن الكريم (١) وأصنام أخرى كثيرة سنتكلم عنها في حينه ، وقد صوروها ونحتوا صخوراً ترمز إليها كما رأوا في بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يوحي بها . وبنوا لها الهياكل والبيوت التي كانت بمثابة كعبات يحجون إليها (٢) . ونشأت لديهم طقوس مختلفة في نذورهم وقرابينهم وطرق عبادتهم .

ولقد تخيل الجاهليون الصحراء أهلة بأرواح سموها الجن والعفاريت والسعالى والغول كما آمنوا بالملائكة وزعموا أنهم « بنات الله » .

يقول تأبط شراً في منازلته للغول :

فلم انفك متسكاً عليها لأنظر مصباحاً ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح كراس الهر مشقوق اللسان
وساقاً مخدج وشوأة كلب وثوباً من عباء أو شنان (٣)

مما تقدم يتضح لنا أن بعض العرب الجاهليين كانوا عبدة أوثان وأصنام بمختلف أشكالها ، ولكن ليس كلهم . وسوف نرى بعدئذ أن منهم من كان يعبد الله ولكنه أشرك بعبادته بعض الأصنام والأوثان وربما لم يكن يتعبد إليها بل جعلها كوسطاء وشفعاء لدى الله عز وجل .

إن من « الجاهليين » من كان يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر . ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل الذي سمع أمية بن أبي الصلت يوماً ينشد :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

(1) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

(2) شوقي ضيف « تاريخ الأدب العربي » ١ / 92

(3) أغاني 18 / 212 دار الفكر بيروت

فقال له : صدقت (١) .

ومنهم من اعتقد بالتوحيد كقس بن ساعدة الذي يقول :

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والده

كما أنشد أيضاً بمعنى قيامة الموتى في يوم الحشر أي في يوم القيامة (٢) .

يا باقي الموت والأموات في جدث	عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم	كما ينبئ من نوماته الصعق
حتى يخيئوا بحال غير حالهم	خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم	منها الجديد ومنها الأزرق الخلق

لقد آمنوا بالله خالقاً (٣) ، فعبدوه وحرموا الخمر على أنفسهم (٤) ، منهم قيس بن عاصم من تميم وصفوان بن أمية من كنانة وعفيف بن معدي كرب من كندة (٥) .

يقول عبد لطابخة بن ثعلب من قضاة وقد آمن بالله خالقاً يحيي ولا يمحي في البدء كان وسوف يكون إلى الأزل :

وأنت الذي لم يحيه الدهر ثانيا	ولم ير عبد منك في صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذي	تبدأت خلق الناس في أكثم العدم
وأنت الذي أحللتني غيب ظلمة	إلى ظلمة من صلب آدم في ظلم (٦)

(١) الملل والنحل 3 / 86 مؤسسة الحلبي القاهرة

(٢) نفس المصدر .

(٣) الملل والنحل 3 / 87

(٤) نفس المصدر . انظر وصية عامر بن الظرب العدواني .

(٥) نفس المصدر

(٦) نفس المصدر

(٧) نفس المصدر 3 / 88

. وآمنوا به قادراً محاسباً . يقول زهير :

يُؤَخَّرُ فيُوضَعُ في كِتَابٍ فيُدْخَرُ ليومِ حِسَابٍ ، أَوْ يُعْجَلُ فيُنْقَمُ⁽¹⁾

ويقول علاف بن شهاب التيمي بهذا المعنى :

وعلمت أن الله جازٍ عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال⁽²⁾

ونهى بعضهم عن الاشراف بالله . يقول قصي بن كلاب :

أرباباً واحداً أم ألفاً رباً أدين إذا تقسّمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير
فلا العزى أدين ولا أبنيتها ولا صنمي بني غنم أزور⁽³⁾

وفي هذا المعنى خاطب القلمس بن أمية الكناني العرب بفناء مكة قائلاً : أطيعوني ترشدوا . قالوا : وما ذاك ؟ قال : إنكم قد تفرقتم بألهة شتى ، وإنني لأعلم ما الله راض به ، وإن الله رب هذه الألهة ، وإنه ليحب أن يُعبد وحده⁽⁴⁾ .

إن ما كتبناه يظهر بعضاً من معتقدات العرب . وقد رأينا أنهم آمنوا بالأصنام والأوثان والأرواح والجن والعناريت ، وآمنوا أيضاً بالسحر واستعملوا الرقى والتعاويذ وتطيروا وتشاءسوا . وآمنوا كذلك بالله الواحد الأحد ، الخالق ، وبالموت والبعث والنشور والقضاء والقدر واعتقدوا أن المقابر مجتمع للأرواح . كما آمنوا بالمسخ والنسوء والزندقة وعبادة النار . وكان

(1) شرح المعلقات للزوزني ص 111

(2) ملل ونحل 3 / 89

(3) ملل ونحل 3 / 93

(4) ملل ونحل 3 / 93

منهم الموحدون والأحناف واليهود والنصارى إلى أن جاء الإسلام فغير الله ما بأنفسهم وسنفصل كل هذا فيما يأتي من فصول لاحقة .

7 - التوحيد والشرك :

كان العرب في جاهليتهم يدينون بأديان مختلفة ويذهبون في عبادتهم مذاهب شتى . ومنهم من آمن بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له . نفهم ذلك من قول قيس بن ساعدة الأيادي :

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد⁽¹⁾

والتوحيد : هو الإيمان بالله واحد أحد لا شريك له ، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير . لا يتجزأ ولا يشنى ولا يقبل الانقسام⁽²⁾ .

والشرك : هو أن يجعل لله شريكا في ألوهيته ، غير الله مع عبادته ، والإيمان بالله وبغيره⁽³⁾ . ومن الشرك أن تعدل بالله غيره ، فتجعله شريكا له . ومن عدل به شيئا من خلقه فهو مشرك ، لأن الله وحده لا شريك له ولا ند له ولا نديد⁽⁴⁾ . ولا شك أن العرب الجاهليين قد عرفوا الله الخالق ، الكائن منذ الأزل وإلى الأبد ، الواحد الأحد ، وقد سموه إلهاً ورحماناً ورباً⁽⁵⁾ . وكان منهم الأحناف الذين بقوا على ملة إبراهيم الرجل الذي ظعن من موطنه الأول في أور الكلدان إلى فلسطين ، والذي تراءى له الله وتحدث إليه وأعطاه ميثاقاً

(1) الملل والحل : 3 / 86

(2) تاج العروس مادة (وحد) .

(3) تاج العروس مادة (شرك)

(4) لسان العرب مادة (شرك) .

(5) انظر سابقاً فصل (الله الرحمن)

أن يمكن لذريته في الأرض (1) ، والرجل الذي كان « الأب الجسدي » ليسوع المسيح (2) ، والرجل الذي كان مؤسساً للإسلام عند المسلمين : ﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ (3) .

لقد كان بين العرب أناس آمنوا بوحداية الله . يقول الأعشى :

وربك لا تشرك به ، إن شركه يحط من الخيرات تلك البواقيا
بل الله فاعبد ، لا شريك لوجهه ، يكن لك فيها تكدح اليوم راعيا (4)

منهم بعض فرق اليهود والنصارى (5) وبعض الباقيين على دين ابراهيم كزيد بن عمرو بن نفيل الذي أسند ظهره يوماً الى الكعبة وهو يقول : « يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحدٌ على دين ابراهيم غيري » (6) . ثم أنشد :

أربأ واحداً ألف رباً أدين إذا تقسّمت الأمور
وبعد أن يعزل اللات والعزى وصنمي بني عمر وهبل ، ويرفض عبادتها يكمل :

ولسكن أعبد الرحمن ريّ ليفسر ذنبسي السرب الغفور (7)

(1) نك 15: 18

(2) متي 1: 1

(3) آل عمران 67

(4) الديوان ص 218

(5) سنين ذلك فيما بعد .

(6) السيرة 1 / 225 دار الكنوز الأدبية .

(7) نفس المصدر 1 / 226-27

وفي شعر آخر يقول زيد :

ألا أيُّها الإنسان إياك والردي فإنك لا تخفني من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره فإن سبيل الرشيد أصبح باديا⁽¹⁾

أليست دعوته دعوة صريحة إلى نبذ عبادة الأصنام والتعبد لإله واحد
أحد لا شريك له ولا ولد .

ولماذا يطلق زيد وأمثاله مثل هذه الدعوة ؟ لأن الإنسان في ذلك
العصر ، وفي كل عصر ، ميّال إلى المحسوس يبحث عن الشيء الذي يتعبد
له ، وكم تمنى أن يراه ويسمعه ، والله روح خفية ، لا يُدرك إلا بالإيمان
المطلق وبالعقل الواعي المدرك نستطيع أن نتلمس قدرته في خلق كل
الموجودات . وهذا ما فعله بعض عرب الجاهلية ، إذ تقربوا من الأصنام
وأشركوها بعبادة ربهم ومنهم من ابتعد عن الله كلياً وجعل هذه الأصنام معبوده
ودينه وديدنه . إن الشاعر أوس بن حجر يقسم باللات والعزى قبل قسمه بالله
تعالى فرجما كان مشركاً . وربما حلف بها دونما إيمان كما يفعل بعض الناس
اليوم إذ يقسمون بما لا يؤمنون به إما اتقاء شر أو دفعاً لغائلة . . . يقول :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ، إن الله منهن أكبر⁽²⁾

لقد أنث الشاعر هذين المعبودين ، ومن ثم اعترف حقيقة ، بعد أن
حلف بالله ، أن الله أكبر منهم مؤكداً ذلك ومشدداً عليه .

(1) نفس المصدر 1 / 227

(2) الأصنام » ابن الكلبي ، ص 17

يقول ابن الكلبي : كانت نزار تقول إذا ما أهلت :

« لبيك اللهم ! لبيك !

لبيك ! لا شريك لك ! إلا شريك هو لك !
تملكه وما ملك ! » (1)

ونفهم من هذا القول أنهم يوحدونه بالتلبية ، ويدخلون ألهتهم معه
ويجعلون ملكها بيده .

أما ابن هشام فيقول : إن عمرو ابن لحي هو أول من حمل الأصنام إلى
أرض العرب . وأول صنم حمله هو « هبل » فأتى به إلى مكة ونصبه فيها وأمر
الناس بعبادته وتعظيمه (2) . جاء به من البلقاء في نواحي الشام .

إن القرآن الكريم يتجه إلى الذين زاغوا وأشركوا بربهم عبادات أصنام
وأوثان أكثرها من صنع الإنسان نفسه والذين يتساءلون بمخاطبتهم للرسول
وهو يرسم لهم طريق العودة إلى العبادة الحقيقية عبادة الله الواحد : ﴿ قالوا
أجئنا لتعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أبائنا » (3) ، وأيضاً « أرباب متفرقون
خير أم الله الواحد القهار » (4) ، وأيضاً : « قل إنما هو إله واحد وإنني بريء
 مما تشركون » (5) من هذه الآيات ومن آيات أخرى كثيرة (6) نستدل على أن عرب
الجاهلية كانوا وقت الدعوة مشركين على الأقل الذين خاطبهم القرآن الكريم

(1) نفس المصدر ص 7

(2) السيرة النبوية 1 / 77 الأصنام ص 8

(3) الأعراف 70 / 7

(4) يوسف 12، 39

(5) الأنعام 6: 19

(6) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (و ح د) ص 745

وأنهم كانوا يعرفون الله وإلا كيف يتعجبون بسؤالهم « أجئنا لنعبد الله وحده »
أليس بمقدورنا أن نتعبد إلى ما كان يعبد آباؤنا ؟ وكيف نذر تلك العبادة ؟

إن بعض الجاهليين قد اعتبروا هذه الأوثان والأصنام وسطاء وشفعاء
عند الله . وكانوا مع اعترافهم بالله لم يروا غنى عن أصنامهم وهذا ما تعجبوا
له وتساءلوا عند دعوة محمد لهم بترك عبادة الأصنام .

الفصل الثاني

الحنيفية

الحنيف هو الذي يتحنّف عن الأديان أي يميل الى الحق ؛ وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة ابراهيم^(١) . وفسّر أبو زيد الحنيف بالمستقيم وأنشد :

تعلّم أن سيهديكم إلينا طريقاً ، لا يجورُ بكم ، حنيفاً^(٢)

وقال أبو عبيدة في تفسير الآية ﴿قل بل ملّة ابراهيم حنيفاً﴾^(٣) من كان على دين ابراهيم ، فهو حنيفٌ عند العرب^(٤) . وفي « الجاهلية » كان يُقال : « من اختتن وحجّ البيت فهو حنيف »^(٥) . وقد جاء في اللسان أن معنى الحنيفية في اللغة الميل ، والمعنى أن ابراهيم حنف إلى دين الله أي مال : وإنما أخذ الحنف من قولهم رجُلٌ أحنف ورجُلٌ حنفاء أي المائلة إلى أختها بأصابعها^(٦) . وتحنّف الرجل أي عمِلَ عمَل الحنيفية ، ويقال اختتن ، ويقال اعتزل الأصنام وتعبد ، قال جرّان العود :

(1) لسان العرب مادة (حنف) 9 / 57

(2) نفس المصدر .

(3) سورة البقرة 2 / 135

(4) اللسان 9 / 58

(5) نفس المصدر 9 / 58

(6) نفس المصدر 9 / 58

ولما رأين الصُّبح ، بادرن ضوءه وسيمَ قطا البطحاء ، أو هنُ أقطفُ
وأدركن أعجازا من الليل ، بعدما أقام الصلاة العابد المتحنفُ

وقال أبو نؤيب :

أقامت به ، كمقسام الحنيس سف ، شهري جمادي وشهري صفر (1)

وفي الحديث الشريف : أحبُّ الأديان إلى الله الحنيفية السمحة (2) .

ويقول الزجاجي : « الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل
من الجنابة ويحُتَن ، وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك » (3) .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن العلماء قد حاولوا تفسير كلمة حنيف وقد
رأينا ما رمسوا إليه ، على الأقل بعضهم (4) ، وماذا عنت لهم هذه اللفظة ،
وأكثرهم قد عاد بها الى ابراهيم الذي ترك عبادة آبائه ومال إلى عبادة الله . .
فمن هو ابراهيم هذا ؟ وأين عاش ؟ وكيف زاغ عن عبادة الأصنام واهتدى الى
عبادة الله ؟

1 - ابراهيم الخليل : قصته مع أزواجه في الكتاب المقدس والقرآن
الكريم .

لا بُدَّ لنا ونحن أمام « أبي الآباء والأنبياء جميعاً » ابراهيم الخليل من
وقفة ولو قصيرة لنتتبع تاريخ حياته ، وهجرته وتنقلاته ، وعزوفه عن عبادة

(1) نفس المصدر .

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر .

(4) راجع رأي غيرهم في معنى حنيف . اللسان مادة (حنف)

آبائه وأجداده ، ونهجه سبيل الحق ومن ثم مكانته في الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم ، أي عند اتباع الديانات السماوية الثلاث ، وتأثيره على وثنيي العرب .

أبرام - ابراهيم : إن كلمة أبرام تعني « الأب الرفيع » أو « الأب المتكرم » وهي كلمة عبرية الأصل تتألف من لفظتين : أب + رام = أبرام . أما كلمة ابراهيم فقد فسرها الكتاب المقدس بـ « أبو جمهور » ، عندما وعد الله « أبرام » أن يعطيه ، ونسله من بعده ، أرض غربته ، وإلى الأبد . وسماه عندئذ ابراهيم .

عاش ابراهيم مدة خمس وسبعين سنة فيما بين النهرين لما خرج متجها الى أرض الكنعانيين جنوباً⁽¹⁾، وكان قد وُجد في « أور الكلدانيين » في شمالي العراق⁽²⁾ . تزوج ابراهيم « ساري »⁽³⁾، وكانت اخته بنت أبيه فقط⁽⁴⁾، وكانت عاقراً لم تلد إلا بعد دخوله على هاجر وولادتها منه .

لقد رحل ابراهيم وزوجه وأبوه تارح وابن أخيه لوط ، من أور الكلدانيين ، ليذهبوا إلى أرض كنعان ويقيموا في حاران حيث يموت أبوه⁽⁵⁾ . ثم يعاود الرحلة الى شكيم⁽⁶⁾ وربما مرّ برحلته هذه على دمشق ، لأن الموكل

(1) تك 17: 5

(2) تك 12: 4

(3) تك 11: 27-28

(4) تك 11: 29

(5) تك 20: 12

(6) تك 11: 32-33

(7) تك 12: 6

على بيته كان يُسمى اليعازر الدمشقي ^(١) ، ومن شكيم الى بيت إيل ^(٢) التي يرتحل منها إلى أرض الجنوب ^(٣) . ويحدث جوع في تلك البقاع فيشد الرحيل الى مصر ^(٤) . ويذكر لفرعونها أن « ساري » ، ودونما كذب ، هي أخته خوفاً على حياته ^(٥) . ويعود ثانية وبعد مرور سني الجوع الى أرض فلسطين ، أرض كنعان ويقيم عند بلوطات عمر ^(٦) حيث يستقبله ، « ملكي صادق » ، ملك شاليم وبيباركه ^(٧) ، وقد حمل ابراهيم معه من مصر جارية تدعى « هاجر » الذي اتخذها ، بعد اقامته في بلوطات ممراً ، زوجة فولدت له اسماعيل ^(٨) وابراهيم ابن ست وثمانين سنة ^(٩) . لقد تزوج ابراهيم هاجر بعد أن أذنت له زوجته « ساري » بذلك . ولكنها لما رأت الجارية وقد حبلى تأكلتها الغيرة وتمنت لو أن لها ولداً فتحزن الرب على شيخوختها ووعد زوجها بابن منها يسميه اسحق ووضع له الختان علامة للعهد وغير اسمه من ابرام الى ابراهيم وكذلك اسم زوجته من ساري الى سارة ^(١٠) . وافتقد الله سارة فولدت لابراهيم ابناً وهو ابن مائة سنة ، وسماه اسحق وختنه هو أيضاً ^(١١) ورغبة في إرضائها وبعد أن سمح الله له أبعد هاجر وابنه ^(١٢) .

(1) تك 15: 2

(2) تك 12: 8

(3) تك 12: 9

(4) تك 12: 10

(5) تك 12: 11-20

(6) تك 13: 12, 13, 18

(7) تك 14: 17, 24

(8) تك : ص 16: 1-16

(9) تك 16: 16

(10) تك ص 17

(11) تك 21: 1-8

(12) تك 21: 9-21

وامتحن الله إيمان إبراهيم فأمره أن يقدم ابنه ذبيحة ومحرقة . وإذا كان على وشك تقديمه ناداه ملاك الرب : « لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً » فرفع إبراهيم عينيه لينظر كبش غنم فيمسه ويصعده محرقة عوض الصبي (1) .

إيمان إبراهيم : كان آباء إبراهيم يتعبدون للأصنام (2) وكانت كثيرة وبنوع خاص عبدوا « نازار » إله القمر وزوجته « ننجال » (3) أما إبراهيم فقد رفض مثل هذه العبادة وآمن بالله واحد مالك السماء والأرض (4) ، وديان الأمم (5) ، والقادر على كل شيء (6) ، الإله العلي ، السرمدى ، الأبدى (7) ، وكان إبراهيم على علاقة روحية مع الله لذلك نال لقب « خليل الله » (8) وتعرف على صفات الله التي هي العدل والبر والأمانة واللفظ والحق والحكمة والرحمة (9)

إن الله الذي عبده إبراهيم قد تراءى له في الرؤى والأحلام والظهور بشكل انسان أو ملاك (10) . وقد ترجم « الخليل » إيمانه إلى عمل فحيثما سكن أقام مذبحاً للرب . وصلى من أجل اسماعيل ولسوط وأبيالك . وقدم عشر مقتنياته لـ « ملكي صادق » ومارس الختان وكاد يضحي بابنه ترجمة لإيمانه

(1) تك 1: 22-19

(2) يشوع : 24 : 2, 14

(3) قاموس الكتاب المقدس 11

(4) تك : 14 : 22, 24 : 3

(5) تك 14: 15

(6) تك 18: 14

(7) تك / 2: 33 .

(8) 2 أخبار 20: 7 وأشعيا 41: 8

(9) قاموس الكتاب المقدس ص 11

(10) نفس المصدر

المطلق^(١) . أما حياته الاجتماعية مع الناس فقد كان كريماً ، مضيافاً للغرباء ، مخلصاً ، وفياً ، أميناً ، حناناً وعطوفاً^(٢) .

من كل ما تقدم نستطيع القول أن ابراهيم الذي نبذ عبادة الأصنام وامن بالله قد استن لنا شرائع لا يزال الكثير من عبدة الله يتمسكون بها كاقامة المعابد لله ، والصلاة من أجل الغير ، والزكاة عن المقتنيات والختان والتضحية .

وتموت سارة زوجة ابراهيم وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة في حبرون في أرض كنعان ، فدفنها زوجها في مغارة المكفيلة التي اشتراها من عفرون الحثي بأربع مائة مثقال من الفضة^(٣) . ويشيخ ابراهيم ويطعن في السن ويزوج ابنه اسحق من رفقة بنت ابن أخيه ناحور^(٤) . فتلد له يعقوب « اسرائيل » الذي يعود إليه أسباط اليهود بنسبهم^(٥) . وعاد ابراهيم وتزوج امرأة اسمها قطورة فولدت له « زمران ويقشان وفدان ومدين ويشباق وشوحاً »^(٦) وقد رأينا سابقاً وعند كلامنا عن ممالك العرب كيف أن النسابين عادوا بأنساب بعض القبائل العربية الى أولاد ابراهيم من زوجته قطورة .

لقد بينا ما أورده الكتاب المقدس عن ابراهيم وسنستعرض الآن ما ذكره القرآن الكريم عنه . فلقد ذكر اسمه في تسعة وستين موضعاً^(٧) . وهو الحنيف

(١) نفس المصدر

(٢) راجع قاموس الكتاب المقدس ص 11، 12

(٣) تك . اصحاح 23

(٤) تك ص 24

(٥) سنحدث عنه فيما بعد .

(٦) تك 1: 25-3

(٧) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

غير المشرك⁽¹⁾ : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المؤمن بأن الله ربُّه يُحْيِي ويميت⁽²⁾ ، والذي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً بل كان حنيفاً⁽³⁾ . ويأمر القرآن مرّديه بأن يتبعوا دين إبراهيم الحنيفي⁽⁴⁾ ، الذي اتخذه الله خليلاً⁽⁵⁾ . ويسمي القرآن والد إبراهيم ويدعوه « آزر »⁽⁶⁾ وقد كان آزر عابداً للأصنام فأعرض عنها إبراهيم واتّبع الله فعبده واتّقاء وتبرأ من عبادة أبيه وقومه⁽⁷⁾ .

مكانة إبراهيم عند أصحاب الديانات السماوية :

حظيت شخصية إبراهيم بمكانة سامية عند المتدينين بالأديان السماوية لم يسمُ اليها غيره من الأنبياء . فهو عند اليهود :

1 - الرجل الذي ظعن من موطنه في « أور الكلدان » الى فلسطين حيث اسس الاسرائيليون فيما بعد دولتهم .

2 - الرجل الذي تراءى له الله وأعطاه عهداً بأن يمكن ذريته من أرض حدودها شرقاً الفرات وغرباً النيل⁽⁸⁾ .

3 - الرجل الذي أنشأ مبدأ الختان معاهداً الله أن تستمسك به ذريته أبد الدهر

(1) البقرة 2: 135

(2) البقرة 2: 258

(3) آل عمران 3: 67

(4) آل عمران 3: 95 والنساء 4: 125

(5) النساء 4: 125

(6) الأنعام 6: 74

(7) الأنعام 74 وهود 76 والأنبياء 62 والعنكبوت 16 والزخرف 26

(8) نك 15: 18

اعترافاً بما من به المولى عليهم من عطاء جزيل وما وُعدُّوه من مُلك عريض^(١) .

4 - ومن زمن ابنه اسحق وما بعده كان الرب (يهوه) يُلقب بإله ابراهيم^(٢)

5 - الرجل الذي ظهر له الرب^(٣) ، واختاره^(٤) ، وفداه^(٥) ، وباركه وبارك نسله وبه وبهم تبارك جميع أمم الأرض^(٦) .

6 - الرجل الذي دعي خليل الله^(٧)

وهو عند المسيحيين :

1 - الأب الأرضي المجازي الأعلى للسيد المسيح^(٨)

2 - الأب لكل المسيحيين المؤمنين^(٩)

3 - الرجل الذي بُورك ببركات جمّة منها الوعد ، والبركة ، والرحمة ، والعهد^(١٠)

4 - الرجل المثال للأعمال الصالحة ، وطاعة الإيمان ، لمثلها احتل المكانة السامية بين القديسين في السما^(١١)

(١) تك 17: 10-14، 23-26

(٢) خروج 3: 15

(٣) خروج 6: 3

(٤) نحميا 9: 7

(٥) أشعيا 29: 22

(٦) تك 12: 3، 17، 18: 22

(٧) 2 أخبار 20: 7 وأشعيا 41: 8

(٨) متى 1: 1، 18-23، وغلاطية 3: 16

(٩) غلاطية 3: 29 ورومية 4: 11

(١٠) غلاطية 3: 14، لوقا 54: 3 أعمال 25: 3 ورومية 13: 4

(١١) يعقوب 2: 21-23 عبرانيين 11: 8، 17 مت 8: 11 لوقا 13: 28، 16: 23-31

5 - الرجل الذي دعي خليل الله (1) .

وهو عند المسلمين .

1 - مؤسس الإسلام ، فالإسلام هو ملة إبراهيم .

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ (2)

2 - الرجل الذي بنى الكعبة .

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ (3)

3 - جد محمد بن عبد الله .

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار (4) ، وإذا صح هذا الحديث فإننا نراه مطابقاً لما ورد في الكتاب المقدس (5) ، بتغيير الأسماء فقط .

4 - إن المسلم ينطق اسم إبراهيم مرتين عند التشهد في كل صلاة من صلواته اليومية الخمس

5 - إن القرآن يذكر اسم إبراهيم تسعاً وستين مرة (6)

(1) يعقوب 2: 23

(2) آل عمران 67

(3) الحج 26 وانظر البقرة 125-127

(4) حديث شريف .

(5) 1 أخبار 28: 4-5

(6) راجع المعجم المهرس لألفاظ القرآن .

6 - أنعم الله على ابراهيم بلقب لم يعطه لسواه ، ألا وهو لقب « خليل الله » .
﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ (1)

إن من ينظر نظرة مقارنة الى مكانة ابراهيم عند اتباع الديانات المذكورة يجد أنها تكاد تطابق فهو عندهم جميعاً « خليل الله » والذي يتصف بهذه الصفات لا بُدَّ وأن يكون له ماثرة عند الإله العلي . وهو أبو الأنبياء جميعاً .

لقد كان لابراهيم اتباع فيما بين عرب الجاهلية ، وربما لم يستنقوا اليهودية ولا المسيحية ، ولم ينظموا في طائفة معينة ولم يشتركوا في عبادة واحدة وكانوا كثرة محسوسة على الأرجح وإلا لما عدَّهم القرآن الكريم فئة خاصة وأجراهم مجرى أهل الكتاب وتحت اسم مستقل هو « الحنفاء » (2) . والحنفاء هم من احتفظوا بدين ابراهيم من « الجاهليين » يقول أمية بن أبي الصلت (3) .

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور
2 - اسماعيل وهاجر :

إسماعيل هو ابن ابراهيم من هاجر المصرية أمة سارة زوجته التي كانت عاقراً وحُثَّت زوجها أن يبني بأمته ليعقب منها نسلًا (4) . إن مثل هذا التقليد في الزواج كان معمولاً به في تلك الأزمنة (5) . وقد كان ابراهيم ابن ست

(1) النساء 125

(2) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (ح ن ف) .

(3) الملل والنحل 3 / 86

(4) الكتاب المقدس : تك 16 : 1-4

(5) دلت الاكتشافات على مثل هذا النظام وجوده في « نوزي » بالقرب من كركوك في العراق .

(6) قاموس الكتاب المقدس : د . بطرس عبد الملك ورفاقه . مجمع الكنائس في الشرق الأدنى . طبعة

ثانية . ص 73

وثمانين سنة عندما ولد له اسماعيل . وختنه أبوه والغلام في الثالثة عشرة من عمره علامة للعهد مع الله . وعادة الختان لا تزال سارية حتى يومنا هذا وقد كرسها الاسلام بتشريعه (ختانة الصبي قبل سن البلوغ) .

عمل إبراهيم على طرد هاجر وابنها بناء لرغبة زوجته سارة فتاهت الأم وابنها في البرية ، برية بئر سبع ، وكادا يهلكان من الظمأ لولا أن أرى الله الأم بئر ماء ، فاستقيا وأقاما بقربه ، وشبَّ الصبي وأصبح ماهراً في استعمال القوس⁽¹⁾ . وقد نقل صاحب الجمهرة لأنساب العرب عن عبد الله بن ربيع التميمي قال : خرج رسول الله على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق ، قال : « ارموا ، يا بني اسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً⁽²⁾ » . ومما جاء في الكتاب المقدس أيضاً أنه كان لاسماعيل اثنا عشر ابناً صاروا آباء قبائل واشتهرت هذه القبائل فيما بعد بالتجارة والترحال من مكان الى آخر كما عُرفوا في قيادة الأبل وسكن الخيام واستعمال القوس . ومن هذه القبائل من استقر به الأمر ، وأسسوا ممالك مستقلة كالنبطيين والتدمريين والغساسنة واللخميين⁽³⁾ . وقد ذكر المسعودي أن إبراهيم أسكن ولده اسماعيل مكة مع أمه هاجر وأمرها أن تتخذ عريشاً ، على ربوة حمراء ، موضع البيت ، يكون لها ولابنها مسكناً⁽⁴⁾ . وينبع الله لها ماء زمزم . وقد روى المسعودي أن النبي (ﷺ) قال : « رحم الله أمنا هاجر ، لولا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم من أن يجري بما حوطت حوله من الأحجار لجرى الماء على وجه الأرض⁽⁵⁾ » . كما يروي قصة تفرُّق

(1) نفس المصدر ص 74

(2) ابن حزم الأندلسي : جمهرة انساب العرب . دار المعارف « مصر » الطبعة الرابعة ص 235

(3) راجع قاموس الكتاب المقدس ص 75

(4) المسعودي : مروج الذهب : دار الأندلس « بيروت » 1965 الجزء 2 ص 18

(5) نفس المصدر ص 19

العمالق بعد أن أقحط الشحر واليمن . ويم بعضهم نحو تهامة وأشرفوا على الوادي التي تقيم بها هاجر واسماعيل قرب الماء فيسكنوها ويتزوج اسماعيل منهم ويتكلم العربية خلاف لغة أبيه . ويزوره ابراهيم مرتين . وفي المرة الثانية تأتيه زوج اسماعيل الثانية ، سامية بنت مهلهل بن سعد الجرهمية ، بحجر كان في البيت وتجعله تحت قدمه اليمنى فيميل عن ركابه لأنه أبى النزول ، ثم تحول الحجر الى شماله فيضع عليه رجله اليسرى فتؤثر قدماه في الحجر . فتعجب الجرهمية من ذلك . فيقول ابراهيم : ارفعيه ، فسيكون له شأن ونبأ بعد حين . وهذا الحجر هو مقام ابراهيم⁽¹⁾ .

3 - في بناء البيت

واشترك اسماعيل مع أبيه ببناء البيت ، وهذا ما ذكره القرآن الكريم : ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل⁽²⁾ ، وبتطهيره⁽³⁾ وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي⁽⁴⁾ ۝ والقرآن الكريم يشير إلى أن هذا البيت هو أول بيت إنساني يُتَعَبَد فيه لله تعالى : ﴿ إن أول بيت وُضِع للناس للذي ببكة مباركاً وهُدى للعالمين⁽⁵⁾ ۝ لقد دان اسماعيل بدين أبيه ابراهيم وهذا ما يؤكد القرآن الكريم بقوله : ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل⁽⁶⁾ ۝ وكان صادقا في إيمانه وفي وعده : ﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادقا الوعد⁽⁷⁾ ۝ .

(1) نفس المصدر ص 19-21

(2) القرآن الكريم : سورة البقرة آية 127

(3) نفس المصدر آية 125

(4) القرآن الكريم : سورة آل عمران آية 96

(5) نفس المصدر سورة البقرة آية 133

(6) نفس المصدر سورة مريم آية 54

مما تقدم نفهم ان اسماعيل هو الابن البكر لابراهيم الخليل من أمته هاجر . وقد هاجرت به أمه الى بركة بئر سبع⁽¹⁾ ومن ثم الى الحجاز ليقيا « بواد غير ذي زرع »⁽²⁾ فيتفجر ماء زمزم ليرويا ظمأهما . وعيّل اسماعيل هناك بعد أن تزوج من امرأة عماليقية ثم من جرهمية . وشارك أباه في بناء البيت الحرام وقام بخدمته الى أن قبض فتولى على خدمة « البيت » من بعده ابنه نابت ، ثم أناس من جرهم ، ولما تكاثر ابنائهم غلبوا الجرهميين وأخرجوهم من مكة . وفي ذلك يقول الحارث بن مضاض الأصفر الجرهمي :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها ، فأبادنا	صروف الليالي والجسود العواثر
وكننا لإسماعيل صهراً ووصلة	ولما تدّر فيها علينا الدوائر
وكننا ولاة البيت من بعد نابت	نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدّ لنا ربي بها دار غربة	بها الذنب يعوي والعدو المحاصر ⁽³⁾

ويقول أيضاً :

وكننا ولاة البيت والقاطن الذي إليه يؤدي نذره كل محرم⁽⁴⁾
لقد عظم أبناء اسماعيل البيت وغيرهم⁽⁵⁾ فتولوه وطوفوا به
واحرموا إليه وأدوا النذور له . وربما كان هذا هو الأثر المهم الذي تركه
اسماعيل من عقيدة بالله وغرس هذه العقيدة كنخلة تنمو في صحراء النفوس
القاحلة .

(1) كما تقدم في الكتاب المقدس وربما اتجهت به من هناك الى الحجاز .

(2) سورة ابراهيم اية 37 .

(3) مروج الذهب : 2 / 23

(4) نفس المصدر ج 2 / 24

(5) الجرهميون مثلاً

4 - الحج ومراسمه :

بعد أن بيّنا ما ذكره القرآن الكريم حول بناء « البيت » في مكة المكرمة عازياً رفع قواعده لإبراهيم وإسماعيل⁽¹⁾ يحسن بنا أن نشير إلى ما ذكره الاخباريون عن هذا الموضوع ولو باختصار لأن الطابع القصصي يغلب على كتاباتهم فلا تدخل في حدود التاريخ الملموس والبحث العلمي المجرد .

يذكر المسعودي أن إبراهيم قدم مكة وإسماعيل ابن ثلاثين سنة حين أمره الله ببناء « البيت » فبناه بمساعدة ابنه إسماعيل . ثم يقدم المسعودي وصفاً لطول البيت وعرضه ، وعند الانتهاء من بنائه يقول : وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج⁽²⁾ . والطبري لا يبعد كثيراً في روايته عن رواية المسعودي فيقول نقلاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : جعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : (ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) ، حتى كاد البناء أن ينتهي وبقي حجر واحد ، فذهب الغلام يبيعه ، ولما عاد ، وجد أباه قد ركب الحجر الأسود في مكانه ، فقال : يا أبت ! من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال : أتاني به من لم يتكل على بنائك ، أتاني به جبريل من السماء⁽³⁾ . أما الشهرستاني فيقر باختلاف الروايات حول بناء البيت . وهذه الروايات تقول أن آدم أول من عرف عرفات وصار إلى أرض مكة وأن ابنه شيث أول من بنى البيت الذي أزاله الطوفان ثم جاء إبراهيم وأعاد بناءه⁽⁴⁾ .

(1) القرآن الكريم : البقرة 127 وآل عمران آية 96

(2) المسعودي : مروج الذهب . دار الأندلس ج 2 ص 22

(3) الطبري . تاريخ الرسل والملوك . ج 1 ص 251، 253 دار المعارف (مصر)

(4) الشهرستاني ، الملل والنحل : مؤسسة حلي القاهرة 1968 ج 3 ص 76-77

هذه بعض من الروايات التي تحكي لنا قصة بناء البيت أوردناها للاستئناس ولاظهار ما اعتقده السلف في كيفية بناء البيت .

وبعد انتهاء ابراهيم من بناء الكعبة ، أمره الله عز وجل أن يؤذن في الناس بالحج . وهذا ما جاء في القرآن الكريم ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (1) .

وهكذا أصبحت مكة محجاً للناس ، فبيتها مبارك وهدي للعالمين إن فيه مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً (2) .

ولقد حجَّ العرب الى الكعبة ، إن في الحجاز كانوا أو خارجها ، وطافوا حول البيت وقدموه وأقسموا به . يقول زهير بن أبي سلمى :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم (3)

إن زهيراً يُسند بناء البيت الى رجال من قريش وجرهم وربما يكون هذا صحيحاً بالمعنى المجازي . أي أن جرهم وقد تولوا البيت بعد اسماعيل كما أسلفنا ، وأن هذا البيت قد تهدم بعضه بفعل العوامل الطبيعية فأعادوا ترميمه وكذلك قريش ، أو أن زهيراً قال ذلك لغرض في نفسه وهو إظهار بعض القبائل على البعض الآخر . ومايهمنا هو أن زهيراً قد أقسم بالبيت وذكر الطواف حوله .

(1) القرآن الكريم . سورة الحج آية 22

(2) القرآن الكريم سورة آل عمران آية 3

(3) الأعلام الشتمري ديوان زهير ابن أبي سلمى ص 10 المكتبة العربية حلب 1970

وقد أقسم بالبيت مثله شاعر جاهلي آخر هو العوف بن الأحوص بقوله :
وإني والذي حجّت قريشٌ مخارمُه وما جمعت جِراءُ⁽¹⁾
والنابغة الذبياني يقسم برب هذا البيت :
فلا ورب الذي قد زرتَه حججاً وما هريق على الأنصاب من جسد⁽²⁾
ويقول لبید :

فأقسم بالذي حجست قريش وموقف ذي الحجج الى إلال⁽³⁾
كان العرب في جاهليتهم يحجون إلى الكعبة من جميع أرجاء الجزيرة
العربية ، فيحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم ويدينون للحُمس من
قريش⁽⁴⁾ . كما حجّ إليها بعض شعوب الأمم الأخرى كالهنود والفرس⁽⁵⁾ .
وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بتقدّيسهم الكعبة وحجهم
إليها قال أحدهم :

وما زلنا نحج البيت قدماً ونلقى بالأبطاح آميناً
وساسان بن سائبك سارحتي أتى البيت العتيق بأصيدينا
وطاف به وزمزم عند بئر لاسماعيل تروي الشاريينا⁽⁶⁾

-
- (1) الفضليات ص 174 د . جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين بيروت 1978 ج 6 / 430
(2) ديوان النابغة الذبياني - المؤسسة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ص 35
(3) جواد علي 6 / 430
(4) باقوت الحموي . معجم البلدان دار صادر بيروت 1977 5 / 183
(5) د . خربوطلي . تاريخ الكعبة دار الجيل بيروت 1976 ص 46 ، 110
(6) نفس المصدر ص 27

مراسم الحج

الطواف ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ (1) « وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (2) .

ويحدث « الأزرقى » عن جده ، أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة ، إلا الخمس (3) ، أو يأخذون ثياباً من الخمس ، إما اعارة وإما إجارة (4) . وكانت سنة الطواف أن يبدأ الحاج بأساف ، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يطوف عن يمين الكعبة سبعاً ، ثم يستلم الركن ، ثم نائلة فيختم بها طوافه . ثم يخرج (5) . وكان هناك عادات تتبعها النساء إذا ما أحرمت رجالهن كامتناعهن عن النسج والغزل وسلء السمن (6) ، أما عادات الخمس في أحرامهم فكانت بعدم مخض اللبن ، وأكل الزبد والسمن ، ولا يلبسون الوبر والشعر ، ولا يغزلونها ولا يستظلونها ما داموا حراماً . ويعظمون الأشهر الحرم (7) فلا يخفرون فيها ذمة ، ولا يظلمون فيها ، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم ، وكانوا يخرجون من نقب ينقبونه في ظهر بيوتهم ويدخلون منه عند عودتهم (8) هذا إذا كانوا أهل مدر . وعندما جاء الاسلام أبطل هذه العادة

(1) القرآن الكريم . سورة البقرة . آية 158

(2) القرآن الكريم . سورة الحج . آية 29

(3) الخمس . هم قريش وأحلافها والأحسي هو المتشدد في دينه « الأزرقى » . أخبار مكة دار الأندلس ص 175

(4) نفس المصدر ص 177

(5) نفس المصدر ص 178

(6) نفس المصدر ص 180

(7) يرجع الدكتور « خربوطلي » أن أشهر الحرم في الجاهلية هي : ذو القعدة ، ذو الحجة ، والمحرم ، وحرما شهر رجب أيضاً تاريخ الكعبة ص 110

(8) أخبار مكة ص 180

بقول القرآن الكريم : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾⁽¹⁾ وقد روى الأزرقى عن ابن عباس قال : كانت قبائل من العرب يطوفون بالبيت عراً ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وهم يقولون : لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب . وكانت المرأة إذا ما طافت عريانة تضع إحدى يديها على قبلها والأخرى على دبرها . وقد انشدت العامرية في ذلك :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله⁽²⁾

وكان الحاج والحاجة إذا بلغا باب المسجد قالوا للحمس : من يعير مصوناً ؟ من يعير معوزاً فإن اعاره أحسني ثوبه طاف به ثم طرحه بعد الطواف « لقاً »⁽³⁾ وفي ذلك يقول ورقة بن نوفل :

كفى حزناً كرى عليه كانه لقاً بين أيدي الطائفين حريم⁽⁴⁾

مناسك الحج : يروي الأزرقى عن جده عن محمد بن اسحق أن ابراهيم الخليل بعد أن أتم بناء « البيت » طلب إليه « جبريل » أن يطوف واسماعيل به سبعا . وبعد هذا الطواف صليا خلف المقام ركعتين : ثم أرى جبريل ابراهيم المناسك كلها الصفا والمروة ومنى ومزدلفة ، وعرفة⁽⁵⁾ ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾⁽⁶⁾ . ويروي البخاري عن

(1) القرآن الكريم البقرة 189

(2) الأزرقى 1 / 182

(3) « لقاً » الثياب المستعارة يرمونها بباب المسجد فلا يمسه أحد حتى تبلى .

(4) الأزرقى 1 / 182

(5) الأزرقى 1 / 66

(6) سورة البقرة 158

الزهري عن عروة أنه سأل عائشة عن قول الله في القرآن الكريم ﴿إِنَّ الصِّفَا
والمروة من شعائر الله فمن حج أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ معتقداً
أنه لا وجوب للحاج أن يطوف بالصفاء والمروة فأجابت : بشيئا قلت يا ابن
أخي : إن الآية نزلت في الأنصار ، فقد كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة
الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، ويتخرجون من أن يطوفوا بالصفاء
والمروة ولما أسلموا ، سألوا رسول الله عن ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ
الصفاء والمروة من شعائر الله﴾ الآية ، قالت عائشة : وقد سن رسول الله
الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك ذلك⁽¹⁾ .

ومن هذه الرواية يتبين لنا أن « الجاهليين » كانوا يتخرجون من الطواف
بالصفاء والمروة ولا يمتنعون ولربما كان الأقدم عهداً منهم يسعون بين الصفاء
والمروة .

وفي الإسلام فإن التوجه الى منى هو سنة متبعة⁽²⁾ ، إلى يومنا هذا ،
وكذلك التوجه الى عرفة والوقوف يومها وقد روى مربع الأنصاري عن
الرسول أنه قال : « كونوا على مشاعركم⁽³⁾ فإنكم على إرث من إرث
إبراهيم⁽⁴⁾ »
رمي الحجار :

روى البيهقي عن ابن عباس عن الرسول أنه قال : « لما أتى إبراهيم
عليه السلام المناسك عرض له الشيطان عند جرة العقبة فرماه حصيات حتى

(1) السيد سابق . فقه السنة دار الكتاب العربي / بيروت / المجلد الأول ص 760-761 .

(2) نفس المصدر ص 716

(3) مواضع التنسك .

(4) نفس المصدر ص 722

ساخ في الأرض . ثم عرض له عند الجمرة الثانية . . . ثم الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض » . قال ابن عباس : الشيطان ترجهون ، وملة أبيكم تتبعون (1) .

وقال دكين الشاعر :

ظَلُّ يَحْجُ وَظَلَلْنَا نَحْجُبُهُ وَظَلُّ يُرْمِي بِالْحَصَى مُبَوَّبُهُ (2)

ويروي ابن هشام : أن الغوث بن مركان يلي الإجازة للناس بالحج . وهذا في أحد ادوار الجاهلية - والغوث هذا يقول :

لَا هُمْ إِنِّي تَابِعُ تَبَاعِهِ إِنْ كَانَ إِثْمٌ فَعَلَى قَضَاعَةٍ (3)

إن الغوث الشاعر يتبع سنة ما كان يفعله السلف وإن كان في إجازته للناس بالحج من إثم فهذا الإثم على قضاعة وليس عليه ، وقضاعة كانت تستحل الأشهر الحرم .

ويروي صاحب السيرة أيضاً عن عبد الله بن الزبير عن أبيه . أن (صوفة) كانت تدفع بالناس من عرفة ، وتجزئ بهم إذا نفروا من منى ، وإذا أرادوا رمي الحجار فلا يرمون إلا إذا رمى رجل من صوفة ولا يرمي حتى تميل الشمس . وفي ذلك يقول أوس بن تميم بن مغراء السعدي :

لَا يَبْرَحُ النَّاسُ مَا حَجُّوا مُعْرِفَهُمْ

حَتَّى يُقَالُ أَجِيزُوا آلَ صَفْوَانَا (4)

(1) نفس المصدر ص 727

(2) ابن منظور . لسان العرب دار صادر بيروت 2 / 227

(3) ابن هشام السيرة السوية تحقيق السقا ورفاقه - دار الكنوز الأدبية 1 / 119 .

(4) نفس المصدر 120 - 121

ويقول ذو الإصبع العدواني :

عذيرُ الحيِّ من عدوا ن كانوا حيَّة الأرض
ومنهم كانت السادا ت والموفون بالقرض
ومنهم من يخيِّز النسا س بالسُّنة والفرض⁽¹⁾

فصوفة تخيِّز للناس بالحج من عرفة وتدفع بهم من عرفة الى منى وإذا
كان يوم النفر لا يرمون الحجار حتى يرمي أحد رجال صوفة . وعدوان كانت
الإفاضة من المزدلفة فيها .

كسوة الكعبة :

لا نرى بأساً ونحن نتكلم عن الحج ومراسمه ومناسكه من أن نتعرض
لكسوة الكعبة لنشير الى مكانتها عند الجاهليين . فقد روى الأزرقى عن جده
حديثاً مسنداً الى أبي هريرة عن النبي ، أنه نهى عن سبب أسعد الحميري وهو
تبع ، لأنه كان أول من كسا الكعبة وصايل من ثياب حبرة من عصب اليمن
وفي ذلك يقول أسعد هذا .

وكسونا البيت الذي حرّم الله له ملاء ومعضدا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشراً وجعلنا لبابه اقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعنا لواءنا معقودا⁽²⁾

ويقول صاحب « فقه السنة » : كان الناس في الجاهلية يكسون
الكعبة ، حتى جاء الاسلام فأقر كسوتها . ويقول : « كُسي البيت في الجاهلية

(1) نفس المصدر / 121

(2) الأزرقى - أخبار مكة ص 250 وفقه السنة ص 710 وراجع معجم البلدان لياقوت 4 / 465 دار صادر .

الأنطاغ ، ثم كساه رسول الله (ﷺ) الثياب اليمانية ، وكساه عمر وعثمان القباطي ، ثم كساه الحجاج الديباج (1) .

وقد اعتبرت قريش الأرض المحيطة بالكعبة مكاناً مقدساً وجعلته حرماً آمناً لا يحل فيه القتال (2) . ويحرم على المحرم والمقيم صيد الحرم ، وتنفيه وقطع شجره ، وقطع الرطب من النبات .

كما كانت أشهر الحج عند الجاهليين أشهراً حرماً ، يحرم فيها القتال ، فكان العرب يغتنمون فرصة هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال الى مكة من كل حذب وصوب ، يشهدون الأسواق التي كانت تقام قبل الحج ، وهي أسواق تجارية أدبية كسوق عكاظ الذي أصبح موئلاً للأدب والشعر تتسابق فيه القبائل لإظهار نوابغها من شعراء وخطباء ، ومتى فرغ الناس من هذه الأسواق وقفوا في عرفة ثم يأتون مكة يؤدون مناسك الحج ومن ثم يؤوبون الى ديارهم وهم آمنون مطمئنون (3) ، لا يخافون غدر غادر أو يتعرض خصم لسلامتهم وهم جميعهم على هذا السنة من العادات .

لقد توصل القرشيون في عهد ليس ببعيد عن ظهور الإسلام الى امارة الكعبة ومكة (4) وعقد رؤساؤهم معاهدات سياسية واقتصادية مع العرب الحميريين في اليمن والغسانيين في بلاد الشام ومع العالم الخارجي ، الرومان والأحباش والفرس (5) مما زاد في مكانة الكعبة والتوجه اليها بقصد الحج

(1) فقه السنة ص 760 .

(2) تاريخ الكعبة ص 47

(3) نفس المصدر ص 64

(4) نفس المصدر ص 43 عن حاشية كتاب تاريخ التمدن ج 1 ص 36

(5) نفس المصدر ص 44 عن الطبري ج 2 / 13 .

وغيره . كما تقاسم القرشيون مناصب المراسم مما نظم وسهل في عملية الحج وزيارة البيت . ومن هذه المناصب : السدانة والسقاية والرفادة (1)
وغيرها . وكان من نتيجة المعاهدات مع العالم الداخلي والخارجي والسهر على راحة الحجاج أن أم مكة أناس عرب وأجانب ، من يهود ونصارى ووثنيون وأحباش وفرس وروم (2) . وربما انضم بعض هؤلاء الناس إلى آخرين من أبناء بجدتهم كانوا يقطنون هناك فأقاموا بمكة وألفوا خاليات لها مالها من تأثير في الحياة الدينية والاجتماعية للمدينة . ومن الممكن أن يكونوا حجاجاً حقيقيين أو أتوا لأسباب أخرى كنشر دعوة أو عقيدة دينية أو فكرة سياسية .

وكان الحجاج يسوقون معهم الأضاحي ليذبحوها قربان شكر أو يتركوها سائحة ترعى في الأرض الحرام ويحرم على الجميع امتلاكها (3) . وهذه الأضاحي التي تسمى الهدي كانت تعين صاحب الرفادة في القيام بمهمته لإطعام فقراء الحجاج . وقد ذكر عوف بن الأحوص « الهدايا » بشعره حيث يقول :

وإنني والذي حجّيت قريش	محارمه وما جمعت حراء
وشهر بني أمية والهدايا	إذا حبست مضرّجها الدماء
أذمك ما ترقرق ماء عيني	عليّ إذا من الله العفاء (4)

ومما يرجّح أن ذبح الأضاحي من قبل العرب الجاهليين ترجع الى تقليد

(1) بلغت خمسة عشر منصباً انظر تاريخ الكعبة ص 44

(2) تاريخ الكعبة ص 59

(3) نفس المصدر ص 119

(4) الفضليات ص 174 دار المعارف

في هذا المضمار يعود إلى إبراهيم الذي امتحن بذبح ولده ففداه الله بكبش غنم . كما اعتادوا أن يلطخوا جدران الكعبة بدماء الذبيحة « القربان »⁽¹⁾ وربما كانت هذه أيضاً عادة يهودية بدأت بموسى في مصر وبقيت سائدة إلى أيام المسيح

(1) تاريخ الكعبة ص 119

الفصل الثالث

اليهود

لقد عُرف اليهود عند الجاهليين ، وورد ذكرهم في الشعر الجاهلي ، إذ من الممكن أن يكون بعض الجاهليين العرب قد تهود أو وقف على أحوالهم الدينية على الأقل . يقول أوس بن حجر :

قد نمت عني وبيات البرق يُسهرني كما استضاء يهودي بمصباح⁽¹⁾

وقد سكن اليهود مواضع شتى من الجزيرة العربية كما بينا سابقاً⁽²⁾ ، سكنوا ما بين فلسطين ويثرب ، وفي اليمن واليامة والعروض . وكان تجار منهم يقيمون في مكة ، وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب قصد الاتجار واقراض المال⁽³⁾ .

وقد وردت لفظة (يهود) معرفة في القرآن الكريم في سورة البقرة والمائدة والتوبة⁽⁴⁾ ، وهي سور مدنية . ووردت أيضاً في سورة آل عمران المدنية عند شرح ديانة ابراهيم ؑ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً⁽⁵⁾ .

(1) تحقيق محمد يوسف نجم ديوان أوس بن حجر . دار صادر بيروت ص 15

(2) انظر صلة قدامى العرب بالعبرانيين .

(3) جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . دار العلم بيروت 6 / 511

(4) القرآن الكريم : البقرة 113-120 المائدة 18-51-64-82 التوبة : 30

(5) القرآن الكريم آل عمران 67

وقد عُرف اليهود باسم آخر هو « العبرانيون » من العبر ، وربما واتتهم هذه التسمية من عبور جدتهم ابراهيم نهر الفرات أو من عبورهم مع موسى للبحر الأحمر أو بواسطة النسب إلى « عابر » أحد أجداد ابراهيم ، وكان أول من منحهم هذا اللقب الكنعانيون ، إذ سموا إبراهيم « إيسرام العبراني » (1) .

ويُقال لهم أيضاً (اسراييليون) ومعنى هذا الاسم « يجاهد مع الله » أو « الله يصارع » وقد أطلق هذا الاسم على يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، ثم على نسله من بعده (2) ويقال لهم (هود) و (هادوا) وقد تغلبت كلمة (يهود) عليهم فيما بعد وربما كان أصل هذه التسمية أو هذه الكلمة من (يهوذا) وهو رابع أبناء يعقوب وسبط من أسباط بني اسرائيل (3) وقد أصبحوا يُعرفون باليهود ومعنى هاد ، يهود ، تهود ، هوداً : تاب ورجع الى الحق (4) وفي القرآن الكريم ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ (5) أي تبنا إليك . و « الذين هادوا » و « من كان هوداً » و « كونوا هوداً » (6) .

أماكن تواجدهم

يتبين من كتابات المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) أن اليهود كانوا قد وجدوا لهم سبيلاً بين العرب ، وإن بعض ملوك مملكة (حدياب)

(1) الكتاب المقدس سفر التكوين 10: 24, 11: 14, 14: 13

(2) قاموس الكتاب المقدس . بطرس عبد الملك ورفاقه . مجمع الكنائس في الشرق الأوسط . الطبعة الثانية ص 69

(3) نفس المصدر ص 1084

(4) اللسان مادة (هود) 3 / 439 صادر

(5) الأعراف 7 / 156

(6) البقرة 62, 111, 135, 140 وقد وردت هذه الألفاظ أيضاً في النساء والمائدة والأنعام والنحل والحج والجمعة

كانوا قد تهودوا (1) ، ويظهر التلمود أن نفراً من العرب دخلوا في اليهودية ،
وانهم جاءوا إلى الأحبار ، فتهودوا أمامهم (2) . ويتحدث جواد علي ، نقلاً عن
(اليعقوبي) أن اليهودية كانت في حير ، وبني كنانة ، وبني الحارث بن
كعب ، وكندة ، وغسان . ويقول عن اليعقوبي : إن من تهود من العرب
(اليمن بأسرها) . كان تبّع حمل حبرين من أحبار - يهود إلى اليمن ، فأبطل
الأوثان ، وتهود من باليمن ، وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم
من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير . وتهود قوم من بني الحارث
بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام (3) . إن اليعقوبي وعند تحدّثه عن
تهويد بعض الأوس والخزرج ، يعزي هذا العمل لمجاورتهم أناس يهود من
بني قريظة والنضير وأهل خيبر ، وكأنه اعتراف منه بيهودية أولئك الناس .
وربما كان أهل الأخبار على حق ، لأن فلسطين حيث يقيم اليهود من أقدم
عهودهم كانت ولا تزال على قاب قوسين من أرض العرب وهي بمثابة القنطرة
التي تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر والعراق من جهة أخرى ، كما
كانت القوافل العربية ، تأتي من بلادها إلى الأسواق ومدن بني إسرائيل
وكنعان ، وكما كان تجار اليهود يرحلون إلى سبأ في عهد سليمان وبعده (4) .
ويروي أبو فرج الأصفهاني عن الأخصس عن العماري قصة عن نزول بعض
جيش موسى النبي ، المدينة واتخاذهم بها الأطام والأموال والمزارع ومكوّثهم بها
زماناً طويلاً وذلك بعد قهر هذا الجيش للعمالق سكان تلك الديار ، وبقي
اليهود في المدينة وجوارها حتى زمن الروم لينضم إليهم يهود بني النضير وبني

(1) جواد علي - الفصل في تاريخ العرب ص 514 عن Die Araber 2- 65

(2) نفس المصدر ص 514 عن Die Araber 2- 74 .

(3) نفس المصدر ص 514 عن اليعقوبي (1 / 226 وما بعدها) .

(4) عفيف عبد الفتاح طبارة . اليهود في القرآن دار العلم للملايين . الطبعة السادسة ص 17 عن تاريخ
اليهود في بلاد العرب (ولغسون) ص 8

قريظة وبني بهدل هاربين من الشام من وجه الروم فيقيمون في (بطحان ومهزور) . وكان يقال لبني قريظة وبني النضير (الكاهنان) ، وربما أتت هذه التسمية لانتسابها إلى هارون الكاهن أخي موسى . يقول كعب بن سعد القرظي :

بالكاهنين قررتم في دياركم (جاؤواكم) ومن أجلاكم جدبا

ويقول العباس بن مرداس السلمي يرد على خوات بن جبر لما هجاهم :

هجوت صريح الكاهنين وفيكم لهم نعم كانت مدى الدهر ترتبي⁽²⁾

كما يخبرنا أبو الفرج : أن الأوس والخزرج نزلوا المدينة عند سيل العرم على أهل مارب، وكانوا في ضيق من المعاش لأن الأموال والنخل والزرع لليهود سكان المدينة ، فلبثوا في المدينة حيناً ثم استنجد أميرهم مالك بن العجلان بأبي جيلة الغساني ملك بلاد الشام ، وقد ترك مارب مع قومه عند السيل وسكن الشام ، فأتى لنجدته وفتك بعلية القوم من اليهود في المدينة . وبذلك تقول سارة القريظية ترثي من قتل أبو جيلة :

بنفسى أمة لم تغن شيئا	بذى حرض تعفيها الرياح
كهول من قريظة اتلفتها	سيوف الخزرجية والرماح
رؤنا والرزية ذات ثقل	يمر لأهلها الماء القراح
ولو أربوا بأمرهم لجالت	هنالك دونهم جاوى رداح ⁽³⁾

(1) أبو فرج الأصفهاني . الأغاني : دار الفكر بيروت (1973) 19 / 94 ، 95

(2) نفس المصدر 19 / 95

(3) نفس المصدر 19 / 96

ويقول الصامت بن أصرم القوفلي يذكر قتل أبي جبيلة اليهود :

سائل قريظة من يقسم سيها يوم العريض ومن أفاء المغنا
جاءتهم الملحساء تخفق ظلها وكتيبة خشناء تدعو سلما
عبي الذي جلب الهام لقومه حتى أحل على اليهود الصيلما (1)

وخطا مالك بن عجلان خطى أبي جبيلة فقتل من اليهود بضعة وثمانين رجلاً ، كلهم من أشرف القوم . وقال أبو الفرج أن اليهود صورت مالكا في معابدهم وكانوا يلعنونه كلما دخلوها . وبذلك يقول مالك هذا :

نحانسي اليهود يتلعانها نحانسي الحمير بأبوالها
فماذا علي بأن يلعنوا وتأتني المنيا باذلالها (2)

وما يهمنا مما تقدم هو وجود اليهود في المدينة . وقد ذكر أبو عمرو الشيباني أن أحد بني قريظة واسمه أوس بن دني ، كانت له امرأة من قبيلته أسلمت عند بروز الاسلام وفارقت ثم نازعتها نفسها إليه فأتته ورغبته في الاسلام فأبى وقال :

دعتني إلى الاسلام يوم لقيتها فقلت لها لا بل تعالي تهوذي
فنحن على توراة موسى ودينه ونعم لعمرى الدين دين محمد (3)

وهذا يدل على أن اليهود بقوا في المدينة حتى قيام الدعوة الاسلامية .
ويحدثنا جواد علي عن بعض المواضع التي سكنها اليهود فيقول : « وقد انتشر

(1) نفس المصدر 19 / 97

(2) نفس المصدر 19 / 97

(3) نفس المصدر 19 / 97

اليهود جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرن وتيماء وخيبر إلى يثرب ، فبنوا فيها الآطام لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم من اعتداء الأعراب عليهم⁽¹⁾ ويقول أيضاً : « وكان يقيم بـ (مقنا) عند ظهور الاسلام قوم من اليهود اسمهم بنو جبنه ، وقد كتب اليهم الرسول يدعوهم الى الاسلام ، أو الى رفع الجزية⁽²⁾ وينقل ياقوت عن الواقدي ، أن الرسول صالحهم على عروكهم وربيع ثمارهم وكانوا يهوداً⁽³⁾ .

وما دام الحديث عن تيماء وخيبر وغيرها من الأماكن التي نزلها اليهود .
فها هو السموأل بن عاديا يذكر لنا مكان إقامته فيقول :

فبالأبلى الفرد بيتي به وبيت النضير سوى الأبلق⁽⁴⁾

ويقول صاحب الأغاني « وكانت العرب تنزل بحصن السموأل الذي بناه له جده ، فيضيفها وتمتار من حصنه وتقيم هناك سوقاً وبه يضرب المثل في الوفاء لتسليمه ابنه حتى قتل ولم يخن أمانته في أذراع أودعها⁽⁵⁾ . وفي ذلك يقول السموأل :

وفيت بأدرع الكندي اني إذا ما ذم أقوام وفيت
وأوصى عاديا يوما بأن لا تهذم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عاديا حصنا حصينا وماء كلما شئت استقيت⁽⁶⁾

(1) جواد علي 6 / 516

(2) نفس المصدر 6 / 518

(3) ياقوت الحموي . معجم البلدان دار صادر بيروت 5 / 178

(4) الأغاني دار الفكر بيروت 19 1970 / 98

(5) نفس المصدر .

(6) نفس المصدر 19 / 99

إن يهود الحجاز كانوا قبائل وعشائر وبطوناً ، منهم : بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر وبنو زغورا ، وبنو قينقاع ، وبنو زيد ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص⁽¹⁾ . ويرى جواد علي أن يهود الحجاز لم يكونوا بدواً يتنقلون من مكان الى آخر ، بل كانوا حضراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها ، يمارسون مهن أهل المدر⁽²⁾ .

لقد كانت منازل بني النضير حينما غزاهم الرسول في وادي بطحان وبموضع البويرة⁽³⁾ وبطحان كما يحدده ياقوت الحموي : هو واد بالمدينة وكما يحدده ابن مقبل :

هفي بطحان من سليمى فيثرب ، فملقى الرجال من منى ، فالمحصب⁽⁴⁾

أما البويرة فهي موضع منازل بني النضير اليهود الذين غزاهم الرسول ، بعد غزوة أحد بستة أشهر ، فأحرق نخلهم وأهلك زرعهم وشجرهم ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

يَعِزُّ ، عَلَى سِرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ، حَرِيقٌ بِالْبُؤِيرَةِ مُسْتَطِيرٌ

فيجيبه حسان بن ثابت :

أَدَامَ اللَّهُ ذَلِكُمْ حَرِيقًا ، وَضَرَمَ فِي طَوَائِفِهَا السَّعِيرُ
هُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ ، وَهُمْ عُمِيٌّ عَنِ التَّوْرَةِ بُورُ

(1) نفس المصدر 19 / 95

(2) جواد علي 6 / 522

(3) نفس المصدر 6 / 523

(4) معجم البلدان 1 / 446 ، 447

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحادثة : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ (1).

ومن بني النضير هؤلاء ، كان الشاعر كعب بن الأشرف الذي ناصب الرسول العداء فعلاً وقولاً ، فهجا الرسول ، وهجا أصحابه ، حتى أهدر الرسول دمه فقتل (2) .

ولم تكن القبائل اليهودية فيما يبدو على وفاق ووئام دائم مع بقية أبناء دينهم ، فلقد وقعت بين بني قينقاع المقيمين في بعض أحياء يثرب وبين بني النضير وبني قريظة معارك فتك فيها ببني قينقاع ، وأصيبوا بخسائر كبيرة (3) .

ويرى (أوليري) احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود (4) ، وربما كان هذا الرأي صحيحاً فتحالف أبناء النضير وقريظة أصحاب الأصل والدين الواحد على بني قينقاع الذين يوافقونهم في المذهب ويخالفونهم في الأصل و(القومية) .

ويقول جواد علي أنه « قد تكون بعض القبائل التي ذكرناها سابقاً قبائل يهودية حقاً هاجرت من فلسطين في أزمان مختلفة ، ولكن بعضاً آخر منهم لم يكن من أصل يهودي ، إنما كانت قبائل عربية دخلت في دين اليهود » (5) .

لقد سكن اليهود خيبر أيضاً وافتتحها الرسول عام سبع للهجرة ، وبقوا

(1) معجم البلدان 1 / 512. 513

(2) الأغاني 19 / 106, 107

(3) جواد علي 6 / 524

(4) نفس المصدر عن O'beary p 173

(5) جواد علي 6 / 524

فيها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب عنها فاتجهوا ناحية الشام^(١) أما تباء والتي كان يشرف عليها حصن السمائل الذي مر ذكره ، فقد صالح يهودها الرسول على الجزية سنة تسع للهجرة ثم أجلاهم عمر مع من أجلى من يهود الجزيرة^(٢) .

وقد نعتت تباء ببعض الأشعار ، بتبء اليهود ، يقول الأعشى :

ولا عاديا لم يمنع الموت ما له وورد بتبء اليهودي ابلق

كما قال بعض الأعراب :

إلى الله أشكو ، لا إلى الناس ، أني بتبء تبء اليهود غريباً^(٣)

وتبء هذه هي من أهم مواطن اليهود في الجزيرة ، ولقد تحدثنا عنها سابقاً^(٤) .

وسكن اليهود (فذك) ، وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، صالح الرسول أهلها على النصف من ثمارهم وأموالهم^(٥) . كما أقام اليهود في وادي القرى ، وكانوا الأكثرية الساحقة من السكان^(٦) ، وفي مقنا وأيلة وفي بقية القرى الواقعة في أعالي الحجاز ، وعلى ساحل البحر ، وقد صالحوا

(١) معجم البلدان ٢ / 410

(٢) نفس المصدر 2 / 67

(٣) معجم البلدان 2 / 67

(٤) راجع صلة قدامى العرب بالعبرانيين

(٥) معجم البلدان 4 / 238

(٦) جواد علي 6 / 529

الرسول على الجزية⁽¹⁾ . وكان بالطائف قوم من اليهود وُضعت عليهم الجزية ، عندما أسلم أهل الطائف الوثنيون ، وبقوا فيها ، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله هناك⁽²⁾ . كما كان هناك أفراد وأسرى من اليهود جنوبي المدينة وحتى اليمن ، في مكة وعدن والمدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانئ البحر الأحمر وموانئ العربية الجنوبية⁽³⁾ .

يهود اليمن :

في هذه الرقعة من ديار جزيرة العرب ، عششت اليهودية وباضت ، وظهر التهود فيها ظهوراً واضحاً ، وصارت اليهودية الديانة الرسمية للبلاد . ويحدثنا صاحب الأغاني عن كيفية دخول اليهودية الى بلاد اليمن فيرجعها الى « تبع الأخير أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري اليمني »⁽⁴⁾ الذي قاد حملة عسكرية من بلاده الى بلاد المشرق ماراً بالمدينة والشام حتى العراق حيث نزل بالمشقر . ولا يمكث طويلاً هناك لا بلاغه خبر مقتل ابنه الذي استخلفه بالمدينة ، فيعود أدراجه ليشن حرباً ضارية على سكان المدينة وقد أوقفها بتأثير حبرين من أحبار اليهود واصطحبهما معه عند أوبته وتهود ، وتهود معه أهل اليمر⁽⁵⁾ .

لقد وجدت اليهودية الى اليمن سبيلاً ، إن كان عن طريق « أبو كرب تبع » أو عن طريق المبشرين أو التجار أو بتأثير « ملكة سبأ » التي زارت سليمان ، أو لأن اليهود هربوا من الأشوريين والكلدان والرومان فاتجهوا الى

(1) معجم البلدان 5 / 178

(2) البلاذري فتوح البلدان ص 63

(3) جواد علي 6 / 530

(4) الأغاني 13 / 120

(5) الأغاني 13 / 120-123

الحجاز واليمن ، فقد تكاثر عدد اليهود في تلك البلاد وفرضوا عقيدتهم على السكان وظلوا على صلات مستمرة بفلسطين حيث يقوم الهيكل الأول (الذي يحوي تابوت العهد) . وقد عُثِر على كتابة في جنوب شرقي حيفا ، على أحد القبور ، ورد فيها (مناحيم قيل حمير) والقبر هذا من قبور كبار الأقباط ، فيكون صاحب القبر ، والحالة هذه ، حبراً من أقباط اليهود جاء من جنوبي جزيرة العرب إما للاتصال بعلماء الشريعة أو للزيارة ومات ودفن هناك . وقد أرجع الباحثون تاريخ الكتابة الى حوالي سنة (200 م)⁽¹⁾ .

كما عثر في اليمن على نص مكتوب بالمسند ، عثر عليه (كلاسر) ونشره المستشرق (ونلكر) ، يقول « تبرك سم رحمن ذ بسمين (سمن) ويسر ال والهمو رب يهود . . . الخ النص »⁽²⁾ ويعني بالعربية : « تبارك اسم الرحمن الذي في السماء واسرائيل والله رب يهود . . . » .

وقد بقيت اليهودية في اليمن ، وإن ضعفت بعض الشيء عند دخول الأقباط النصارى إليها ، وظلت بعد الاسلام ولسنوات قريبة من هذا التاريخ حيث غادروها على أثر حوادث فلسطين⁽³⁾ . وقد كانت نجران من المستوطنات المهمة التي نزل بها اليهود في اليمن وفيها حفر ذونواس الأخدود للنصارى وقتل منهم الألوف⁽⁴⁾ وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الحادثة ، بقوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ﴾⁽⁵⁾ .

(1) جواد علي 6 / 539 عن 16-3 Die Araher

(2) نفس المصدر 6 / 541 عن 337-1 Winckler. AOF.

(3) جواد علي 6 / 541

(4) معجم البلدان 5 / 268

(5) القرآن الكريم . سورة البروج آية 3-5

وُجِد اليهود في مواضع أخرى من الجزيرة العربية ، وُجِدوا في العربية الشرقية ، وفي نجد ، وفي بعض مواضع العربية الجنوبية ، وفي البحرين⁽¹⁾ .

إذن من المرجح ، وبعد هذا التبسيط الذي أوردناه ، أن يكون اليهود قد تواجدوا وبنسب مختلفة في أكثر مواضع الجزيرة العربية المعروفة في الزمن الجاهلي . . . لأن اليهود قد وصلوا الى مصر وأقاموا فيها ، ومصر بعيدة عن فلسطين والجزيرة قريبة منها فكيف يعقل أن يقيموا في الأمكنة البعيدة ، ولأي سبب كانت هذه الإقامة ، ولا يقيمون في مكان له صلة جغرافية بفلسطين . إن أوراق البردي التي عُثِر عليها في جزيرة الفيلة قرب أسوان في « مصر » والتي تثبت وجود مستوطنة يهودية في تلك الجزيرة ، في الحقبة البابلية ، وتظهر أيضاً ، أن سكان المستوطنة كانوا يؤدون شعائهم الدينية لـ « يهوه » وفي الوقت نفسه لإلهين آخرين ، هما في أغلب الظن إله الجزيرة المحليان⁽²⁾ .

اليهود والمتهودون وحياتهم الاجتماعية وأثرهم في عرب الجاهلية .

يحدثنا جواد علي عن رأي المستشرق (ونكلر) في موضوع يهود الجزيرة فيما قبل الإسلام ما خلاصته : أن أولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً في الجنس والعقيدة لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كانوا هم عليه . فهم وعلى هذا الرأي عرب متهودون ، لا يهود مهاجرون⁽³⁾ . ولكن « مرغلوس » يرى عكس ذلك : فيهود الحجاز كانوا يختلفون عن الأعراب بحياتهم الاجتماعية فيشتغلون بالزراعة ويمتحنون بعض المهن التي يأنفها العربي الأصيل ، ولا يرغبون في القتال ولا يميلون الى الغزو

(1) جواد علي 6 / 542

(2) جورج قرقم . تعدد الأديان وأنظمة الحكم - دار النهار بيروت 1979 هامش ص 63

(3) جواد علي 6 / 531 عن Winkler met. 6-222

والحروب» . وفي رأيي أنه ربما كان الاثنان على حق ومن الممكن أن يكون بعض العرب قد تهود ، فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص ، هي أسماء عربية .

وشعر شعرائهم ، يحمل الطابع العربي والفكر العربي ، وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية ما كانوا يختلفون كثيراً عن العرب . فهم في أكثر أمورهم كالعرب . ولعلّ هذا بسبب المتهودين الكثير على من كان من أصل يهودي . ومن الممكن أيضاً وعلى حسب الرأي الثاني أن يكون اليهود قد امتهنوا المهن واشتغلوا في الزراعة لقلة عددهم بادية ذي بدء ثم تعودوها عندما قويت شوكتهم بكثرة عددهم .

لقد عاش اليهود في جزيرة العرب كالعرب أنفسهم ، فلبسوا لباسهم ، وتزوجوا منهم وصاهروهم ، ولعلّ كون بعضهم من أصل عربي وتهود هو الذي حطم القيود التي تحول بين المصاهرة الازدواجية (2) .

ولا يرى « مرغلوس » بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر ، والتي كانت في الحجاز عند ظهور الاسلام ، اسماً تظهر عليه الملامح العبرانية غير اسم (زعوراء) (3) .

ولم ينشئ اليهود ممالك يهودية في بلاد العرب ، بل كانوا شبه مستقلين في حماية سادات القبائل في أكثر الأحيان ، يعقدون معهم المحالفات ويؤدون لهم الإتاوات .

(1) نفس المصدر عن 62 Margollouth P.

(2) جواد علي 6 / 532 عن 55 Nöldeke

(3) نفس المصدر عن 60 Margollouth p.

وقد كان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم ، أصحاب الأكام والجبصون والأرض ، يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم آداؤه كل عام⁽¹⁾ . ويتولى الأحبار الأمور الدينية ، يقيمون الصلاة وينظرون في شكاوى الناس ويعلمون الأولاد في بيوت المدراس .⁽²⁾

وقد عُرِفَت مساجد اليهود ، والمواضع التي يصلون بها ، بالمحاريب جمع محراب . وقد ذكرها قيس بن الخطيم في شعره بقوله :

نمّثها اليهودُ إلى قبّة دُوّين السّماءِ بمحرابها⁽³⁾

وعُرِف علماء اليهود ورجال دينهم بـ (الأحبار) جمع (الحبر) و (الربانيين) وقد وردت هاتان الكلمتان في القرآن الكريم⁽⁴⁾ : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبارُ عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبش ما كانوا يصنعون ﴾ .

ويتبين من القرآن الكريم ، أنه كان للأحبار والربّانيّين نفوذ عظيم على اليهود الذين يطيعونهم طاعة عمياء ويفعلون ما يأمرونهم به⁽⁵⁾ .

إن لفظة (حبر) قد وردت في شعر للشهاخ بقوله :

كما خطّ عبرانية يمينه . بتياء حبرُ ثم عرض اسطرا⁽⁶⁾

(1) نفس المصدر 6 / 533 عن الروض الانف 6 / 194 .

(2) جواد علي 6 / 533 وانظر اللسان مادة (درس) 6 / 80 صادر

(3) ديوان قيس بن الخطيم . ص 135 صادر تحقيق ناصر الدين الأسد .

(4) سورة المائدة 44، 63 والتوبة 31، 34

(5) سورة التوبة آية 31

(6) اللسان مادة (حبر) 4 / 158 صادر

إن القرآن الكريم يطلق على أسفار اليهود ، أي كتبهم المقدسة (التوراة) (1) والزبر والزبور (2) ، والكتاب (3) .

وقد ذكر هذه الزبر امرؤ القيس بشعره ، والمرقش الأكبر ، وأمّية بن أبي الصلت يقول امرؤ القيس :

أت حجاج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان (4)

ويقول أيضاً :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني (5)

أما المرقش السدوسي فيقول :

وكذاك لا خير ولا شيء على أحد بدائم
قد خط ذلك في الزبور الأوليات القدائم (6)

إن شعر المرقش هذا هو عظة بليغة عن زوال المجد والنعمة « فكل ما عليها فان » وقد عرف ذلك المرقش من آيات الزبر الأوليات القدائم . . .

أما أمّية بن أبي الصلت فيقول :

وأبرزوا بصعيد مستوى جرر وأنزل العرش والميزان والزبر (7)

(1) آل عمران 3، 48، 50، 65، 93 المائدة 43 وما بعدها . الصف 6 الفتح 29 الجمعة 5

(2) الأنبياء 105 الاسراء 55 آل عمران 184 القمر 43

(3) فاطر 25 آل عمران 184 المؤمنون 49 الفرقان 35 القصص 43 .

(4) ديوان امرؤ القيس ص 173 صادر / بيروت

(5) نفس المصدر ص 170

(6) اللسان مادة (حتم) 12 / 113 صادر

(7) جواد علي 6 / 555 عن النصرانية القسم الثاني الجزء الثاني (ص 184)

ولعل اليهود قد استنسخوا كتبهم الدينية بلغة العرب فهم يعرفون الكتابة الجيدة بشهادة الشاعر (الأسود بن يعفر) الذي يذكر أن يهوديين مجيدين من تيماء أو من مدين قد خطا سطوراً في مهرقيهما ، بقوله :
سـطـورٌ يـهـودـيـن في مـهـرـقـيـهـما مجيدين من تيماء أو أهل مدين⁽¹⁾

إن الأسود بن يعفر يميز بين الكتابة الجيدة والكتابة الرديئة باستعماله لفظة (مجيدين) . فإن لم تكن كتابتهما في العربية فكيف يحكم عليها بالإجادة ؟

وفي حديث لسويد بن الصامت . أنه قال للرسول (ﷺ) : لعل الذي معك مثل الذي معي ! فقال : وما الذي معك ؟ قال سويد : مجلة لقمان فقال له الرسول : أعرضها علي . فعرضها عليه ، فقال له : إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى ، هو هدي ونور⁽²⁾ .

يفهم من هذا الكلام ومن أحاديث أخرى⁽⁴⁾ ، أن هناك كتباً دينية كانت مكتوبة بالعربية وهي كتب لليهود يقرأونها في مدارسهم أو في أنديةهم التي يحضرها قوم جاهليون يخالفونهم العقيدة أو يتلونها على مسامع الناس في أي مكان

ولقد عرف يهود يثرب السحر ، وقد اشير إلى سحرهم في الحديث الشريف⁽⁵⁾ ، فلجأ العرب اليهم يأخذون منهم الرقي والتعاويذ⁽⁶⁾ .

(1) ناصر الدين الأسد مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . دار المعارف (مصر) ص 82

(2) لسان العرب مادة (جمل) 11 / 120 صادر

(3) ناصر الدين الأسد ص 62

(4) راجعها في نفس المصدر ص 62 وما بعدها .

(5) صحيح البخاري : باب السحر

(6) جواد علي 6 / 560 انظر خبر أبي بكر وعائشة واليهودية الساحرة

وحافظ يهود الجزيرة على حرمة السبت . وقد وردت إشارات الى يوم السبت في مواضع شتى من القرآن الكريم ، وهو يتكلم عن بني اسرائيل ، وأشير في بعضها الى أخذ موسى العهد منهم بوجوب مراعاة حرمة هذا اليوم ، ولكنهم نقضوا العهد واعتدوا فيه (1) .

ولقد عرف العرب من اليهود بعض أحكام دينهم كمثّل : الرجم بالنسبة للزنا ، والابتعاد عن النساء في الحيض (2) ، واستعمال (الشبور) (3) لدعوة المؤمنين الى الصلاة ، كما استعمل يهود يثرب (القرن) في معابدهم ، لاعلان الصلوات والأعياد والاحتفالات والحوادث المهمة الطارئة (4) .

وقد اختلف اليهود في عهد الجاهلية عن بقية أبناء مجتمعهم في بعض الأمور كالمأكولات المحظورة في شريعتهم وطرق العبادة ، والاعتقاد بوجود إله واحد ، هو (إله اسرائيل) ، وفي بعض العادات الاجتماعية والمظاهر الخارجية ، فكانوا مثلاً يسدلون شعورهم ، وغيرهم يفرقون رؤوسهم . وقد ورد عن ابن عباس : أن الرسول ، وأهل الكتاب ، يسدلون شعورهم ، والمشركون يفرقون رؤوسهم (5) .

شعر اليهود :

لقد ظهر بين اليهود الجاهليين ، أو العرب المشركين في الجاهلية ، شعراء ، نظموا الشعر بالعربية ، وعلى طريقة الشعر العربي المعروف

(1) الأعراف 162 النحل 124 البقرة 65 النساء 46، 153.

(2) جواد علي 6 / 561

(3) ربما كان قرناً ينفخون فيه فيخرج صوتاً

(4) جواد علي 6 / 561

(5) نفس المصدر . عن عمدة القاري (17 / 71)

آنذاك ، منهم السموأل بن عاديا ، وهو أشهرهم في القصائد الطوال ، من تيماء ، وصاحب الأبلق الفرد « الذي شاع ذكره » وصاحب قصة الوفاء المشهورة (1) ، والذي ضرب به المثل بسببها ، فقد قيل « أوفى من السموأل » ولا يزال هذا القول على شفاه العرب حتى اليوم . ومنهم أوس بن دثن القريظي ، وكعب بن سعد القرظي ، وسارة القريظية ، وسعية بن غريض بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقيق ، وأبو الديال ، وشريح بن عمران وكعب بن الأشرف ، وأبو رافع اليهودي (2) .

وستفحص بعض شعر هؤلاء ، قبل أن ندخل في حلبة مع السموأل ، لنصل ولو إلى حواشي إيمانهم ، إن لم يكن إلى جوهر حقيقته ، وانعكاس هذا الإيمان على تصرفاتهم الاجتماعية .

يقول الربيع بن أبي الحقيق :

سائلٌ بنا خابرٌ أكمانا	والعلم قد يلقي لدى السائل
لسنا إذا جارت دواعي الهوى
.....	بقائل الجود ولا الفاعل .
إننا إذا نحكم في ديننا	نرضى بحكم العادل الفاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا	نلطُ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا	فنخمل الدهر مع الحامل (3)

إن الربيع بن أبي الحقيق يطرح ما يؤمن به وما يعرفه عن قومه على الآخرين راجياً أن يسألوا مَنْ خَبَرَهُمْ وعرف أحوالهم ، ومن ثم يفصل ما

(1) الأغاني 19 / 98 دار الفكر للجميع بيروت . 1970 عن طبعة بولاق الأصلية .

(2) نفس المصدر 19 / 94 وما بعدها .

(3) ابن سلام الجهمي . طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين دار الفكر للجميع ص 110

بقومه من الخصال الكريمة قائلاً : نحن نفعل الجود ولا ندعيه ، وإذا دُعينا إلى حكم وفصل في قضية فلا نرضى بديلاً عن العدل . ولا نزهق الحق بالباطل إذ فينا الحليم الذي يخاف لومة الدهر وخوله .

أما شعبة بن غريز الشاعر فقد آمن بأن « كل من عليها فان » وإذا كان الأمر كذلك ! فلم لا يعمل الإنسان الصالحات . إن من يأمن غوائل الدهر فلا ريب جاهل ، والذي يرجو البقاء أبد الدهر ولا يفكر بالموت فمثله كمثل ضارب القداح . وكأنني بهذا الشاعر يشير إلى معرفته بضرب القداح ولا يؤمن بها . إنه يقول :

لا تبعدن فكل حي هالك لا بد من تلف فبمن بفلاح
إن امراء أمن الحوادث جاهلاً ورجا الخلود كضارب بقداح⁽¹⁾

أما أبو قيس بن رفاعه ، وأبو الذيال ، فإننا نستدل من شعرهما على أخلاقية القوم ، من خلال ما صدر عنهما من البذل في سبيل الجار والمحافظة عليه وجعله شريكاً في الحقوق ما بقيت الروح داخل البدن . أما الثاني فيستعمل عادته على لومه فهو مؤمن بأنه سيموت إن لم يكن يومه ففي الغد ويتمثل بالذين سبقوه فلا ينفع البخيل والمقتصد ماله عندما يدعو داعي الردى : يقول أبو قيس بن رفاعه :

وارهن في الحوادث كف بكري لجاري في العظيمة إن ذهبت
أراه ما أقسام علي حقاً شريكي في تلادي ما بقيت⁽²⁾

(1) نفس المصدر ص 111

(2) نفس المصدر ص 112

ويقول أبو الذيال :

فقلت مهلاً فلا عليك إن أو سبت غويًا غيبي ولا رشدي
إنني لمستيقن لئن لم أمت يومسي إنني إذا رهين غد
هل نحن إلا كمن تقدمنا وكل من تم ظمؤه يرد
نحن كمن قد مضى وما أن أرى شحا يزيد الخريص من عدد
فلا تلومنني على خلقي واقني حياء الكريم واقتصدي⁽¹⁾

أما السموأل بن غريض بن عاديا بن حباء ، صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتياء المشهور بالوفاء⁽²⁾ . فقد وصلنا له شعر أغزر بكثير مما وصلنا من رفاقه شعراء اليهود⁽³⁾ ، يستطيع من يفحص هذا الشعر أن يستخلص عبراً كثيرة من عقيدته ، وعاداته الاجتماعية وتصرفاته المعكوسة عن أيمانه ، وربما عن إيمان قومه أيضاً .

يقول السموأل وهو يشعر باحتياجات الأيتام داعياً عبديه لجمع الأبل من المرعى لينحرها ويطعم الضيوف الجياع :

رأيت اليتامى لا يسد فقورهم قرانا لهم في كل قصب مشعب
فقلت لعبدينا : أريحا عليهم سأجعل بيتي مثل آخر معذب⁽⁴⁾

إن السموأل يصفح ويصفو عما أساء إليه ، ولا يجازي سيئة بسيئة . وإن كان يقدر على ذلك ، وفي الأمور العظام يحمي الجار ، ويفي بالأمانة

(1) نفس المصدر ص 113

(2) الأغاني 19 / 98

(3) انظر ديوانه . تحقيق عيسى سابا . دار صادر / بيروت /

(4) عيسى سابا . ديوان السموأل . دار صادر / بيروت / ص 78

ويقتل ابنه على مرأى منه ، يقتله الحرث بن ظالم⁽¹⁾ ، ولا يخون بحاجيات الكندي ، ولا يخفر ذمته . يقول السموأل :

وذنب قد عفوت لغير باعٍ ولا واعٍ وعنه قد عفوت
وأصرفُ عن قوارص تجتديني ولو أني أشاء بها جزيتُ
فأحمي الجسار في الجُلَى فيُمني عزيزاً لا يُرام ، إذا حيتُ
وفيتُ بأدراع الكندي ، أني إذا ما خان أقسوام وفيتُ
وقالوا : إنه كنزٌ رغيبٌ فلا والله أعذرُ ما مشيتُ⁽²⁾

ويشهد الأعشى بوفاء السموأل فيمدحه عند استجارته بابنه شريح من رجل كلبي فيقول :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به في عفل كسواد الليل جرار

ثم يقول على لسان خصم السموأل والذي غدر بابنه :
فقال عذر وئكلُ أنت بينهما فاختر وما فيها حظ المختار

ثم يقول عن لسان السموأل :

فشكٌ غير طويل ثم قال له أقتل أسيرك إنني مانع جاري
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به رب كريم وبيض ذات أظهار⁽³⁾

لقد عرف السموأل طريقة التلاحق بين الرجل والمرأة ، وكيفية تكون الجنين من نطفة مؤمناً بإرادة الله في ذلك وقدرته على خلقها :

(1) الأغاني 19 / 99

(2) ديوان السموأل ص 80

(3) الأغاني 19 / 100

نطفة ما مُنيت يوم مُنيت أمّرت أمرها وفيها بُريت
كُنْها الله في مكان خفي وخفي مكانها لو خفيت⁽¹⁾

وفي هذا المعنى جاء قول القرآن الكريم : ﴿ ألم يك نطفة من مني
يمني ﴾⁽²⁾ وقوله : « من نطفة خلقه فقدره »⁽³⁾ .

ويتابع السموأل قصيدته مشيراً الى ايمانه بأنه خرج الى الحياة من العدم
ومن ثم فإنه سيموت ليعود ويُبعث من جديد . يقول :

ميت دهر قد كنت ثم خيت وحياتي رهن بأن سأموت
واتاني اليقين اني اذا مُت وإن رم أعظمي مبعوث⁽⁴⁾

وبهذا المعنى ورد قول القرآن الكريم :

﴿ وتخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي ﴾⁽⁵⁾ وأيضاً : « ثم
إنكم يوم القيامة تبعثون »⁽⁶⁾ وأيضاً « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي
العظام وهي رميم ﴾⁽⁷⁾ . إنه يؤمن بالرزق الحلال ، ويؤمن بالأنبياء داود
وسليمان ويوسف ، ويذكر أسباط بني اسرائيل (أبناء يعقوب) وموسى وشقه

(1) ديوان السموأل ص 81

(2) القرآن الكريم . سورة القيامة آية 37

(3) سورة عبس آية 19

(4) الديوان ص 81 وص 83

(5) سورة آل عمران آية 27 والروم آية 19

(6) سورة المؤمنون آية 16

(7) سورة يس 78

للبحر ، ويذكر إبليس مسمى إياه (الافريس) وعصيانه لله وما ناله جزاء عمله (1) .

إنه يؤمن بالقضاء والقدر . فيقول :

بَلْ لَّكُلِّ مِنْ رِزْقِهِ مَا قَضَى اللَّـهُ وَإِنْ حَزَّ أَنْفَهُ الْمُسْتَمِيتُ (2)

ويؤمن بالموت ويرى أن لا مفر منه فيقول :

كَيْفَ السَّلَامَةُ إِنْ أَرَدْتَ سَلَامَةَ وَالْمَوْتُ يَطْلُبُنِي وَلَسْتُ أَفُوتُ (3)

ولكن الجسد وحده يموت وأما الروح فباقية . يقول :

أَصْبَحْتُ أَفْنِي عَادِيَا وَبَقِيتُ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ حُشَاشَتِي وَأَمُوتُ

ويرى في الدنيا خداعاً ما بعده من خداع فيحزن مع من حزن ولو لم يؤمن بالحزن ويترك المسالك القويمة والمواعظ الحكيمة التي درّبها وعلمها . يقول :

غَلَبَ الْعَزَى عَمَّنْ أَرَى فَتَبِعْتُهُ وَخَدَعْتُ عَمَّا فِي يَدِي فَأَسَيْتُ
وَمَسَالِكُ يُسَرُّهَا فَتَرَكْتُهَا وَمَوَاعِظُ عَلَّمْتُهَا فَنَسَيْتُ (4)

وينادي بخير العمل لأن الموت آتٍ ولا محالة ، وإن كان يؤمن بخير العمل في هذه الدنيا الفانية ، فلأنه يؤمن بيوم الحشر والحساب . يقول :

(1) الديوان ص 82 ديوان السمّوال

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر ص 83

(4) نفس المصدر ص 84

لا تَبْعِدَنَّ فكلُّ حيٍّ هالك لا بُدَّ من تلف فينْ بفلاح
إن امرءاً أمِنَ الحوادثَ جاهلاً ورجا الخلود كضاربٍ بقداح⁽¹⁾

ويعرف السموأل أن البيت الحقيقي للإنسان هو المقبرة ، فلا تنفعه
الحصون ولا تخلده القصور . يقول :

بالأبلق الفرد يتي به وبيت المصير سوى الأبلق
ببلقمة أثبتت حفرة ذراعين في أربع خسق⁽²⁾

نرى من كل ما تقدّم أن السموأل بن عاديا صاحب الأبلق الفرد⁽³⁾ ،
والذي قال الأعشى عنه :

بالأبلق الفرد من تيماء ، منزله حصن حصين ، وجار غير خثار⁽⁴⁾

نراه يُقرّ بالبعث والحساب والقضاء والقدر والموت ، ويؤمن بالأنبياء
وما أوصوا به من صلة لليتامى وحفظ الجار . كما يقر في بيت شعري منسوب له
بمجيء المسيح ، وربما كان يقصد « أن المسيح سيأتي » لأنه قال « وفي آخر
الأيام » فلعله يعني في الأزمان المتأخرة . يقول :

وفي آخر الأزمان جاء مسيحنّا فأهدى بني الدنيا سلام التكامل⁽⁵⁾

وبما أن الشاعر في العصر الجاهلي ، كان لسان القوم ، يظهر محاسنهم
ويسدل الستار على مساوئهم ، يفاخر ويهاجي ، فلعلّ السموأل وصحبه من

(1) نفس المصدر ص 87

(2) نفس المصدر ص 88

(3) قصر السموأل بن عاديا اليهودي بأرض تيماء . لسان العرب مادة (بلق) .

(4) لسان العرب - دار صادر / بيروت / مادة (بلق) .

(5) الديوان ص 103

الشعراء الذين أسلفنا يكونوا قد رسموا لنا صورة « ولو مشوشة » عن إيمان اليهود ومعتقداتهم وانعكاس هذا الإيمان على تصرفات يهود الجاهلية . ونكون بهذه الوقفة القصيرة . قد تعرفنا على بعض دين عرب الجاهلية وما كانوا يؤمنون به .

الفصل الرابع النصارى العرب

قبل أن نتلمس طريق النصرانية في بلاد العرب ، زمن الجاهلية ، وقبل أن نتعرف إلى المسالك التي طرقتها ، والإيمان الذي اهتموا إليه والتقاليد المتبعة التي مارسوها في طقوسهم وعباداتهم ، وإلى الكنائس والأديار والشعائر التي مورست فيها من قبل رؤوسائهم الروحيين ورهبانهم والأثر الذي تركوه في محيطهم وبيئتهم ، لا بد لنا من العودة إلى الفصل الرابع من الباب الأول ، لنرى مدى تلك الحركة وتأثيرها في « صلة قدامى العرب بالنصرانية » ، وكيف وصلت هذه الحركة الدينية إلى عرب الجزيرة ! وكوننا ، وفي الفصل الرابع المذكور ، تكلمنا عن طريقة وصول النصرانية إلى عرب الجاهلية ، وعن المواضيع التي تواجدت فيها النصارى وعن أشياء أخرى⁽¹⁾ ، فإننا سنكتفي في هذا الفصل على البحث في صلاحيات رؤوسائهم ، وسندخل كنائسهم لنرى طرق عبادتهم ، وما كانوا يستعملونه من أدوات لتزيين الكنائس ، وآداء فروض الصلاة ، كما وستطرق إلى جوهر إيمانهم فنصل إلى المتقشفين منهم « أي الرهبان » وأماكن تواجدهم .

التنظيم الديني :

لقد كان للعرب النصارى تنظيم خاص ، بدور العبادة ، وبالتعليم

(1) راجع الفصل الرابع من الباب الأول من / البحث

والارشاد أخذوه من التنظيم الكنسي العام ، ومن التقاليد المتبعة والموروثة عن آباء الكنيسة منذ أوائل البشارة النصرانية . وللكنيسة درجات ورتب ، وللقِيَمين على شؤونها منازل وسلالم ، فلها رئيس أعلى ، وتحت جماعة من رجال الدين ، له وللجماعة ملابس خاصة تتناسب مع درجاتهم⁽¹⁾ . ولهم معابد وبيوت وأوقاف وسيطرة على اتباعهم . فمن الدرجات والرتب التي عُرِفَت عند نصارى العرب في العصر الجاهلي ، درجة / بَطْرَك / أو بطريق ، أو بَطْرَك ، وعرفه ابن منظور بـ « مقدّم النصارى » وروى عن الأصمعي قولاً للراعي يصف ثوراً وحشياً :

يعلو الظواهر فرداً ، لا أليف له ، مشي البطرك عليه رِيط كَتَان⁽²⁾

فالبطرك والحالة هذه يختلف عن سواه إذ هو مميّز بمشيته ولباسه وقد ورد في شعر لأمية بن أبي الصلت تحت لفظة « بطريق » ولعلّه عني بها الرئيس الروحي أو قائد جند ، يقول :

من كل بطريق لبطريق نقى اللون واضح⁽³⁾

ويلى البطرك في الدرجات الكهنوتية (المطران) وقد سُمِّيه (القلقشندي) ، بأنه القاضي الذي يفصل الخصومات بين النصارى⁽⁴⁾ .

أما الأسقف ، فقد قال عنه « ابن منظور »⁽⁵⁾ ، أنه سمي أسقفاً لأنه

(1) جواد علي 6 / 638

(2) لسان العرب . دار صادر / بيروت 10 / 410

(3) بهجة عبد الغفور الحديثي - أمية بن أبي الصلت . مطبعة العاني / بغداد / 1975 . ص 169

(4) أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي - صبح الأعشى . في صناعة الانشاء . المؤسسة المصرية العامة ج 5 ص 473

(5) لسان العرب 9 / 156

يتخاشع ، وهو رأس من رؤوس النصارى في الدين ، والجمع أساقف وأساقفة⁽¹⁾ . أما ابن خلدون فيسميه نائب البطررك وخليفته ، إذ يقول : « وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه يسمونه البطررك وهو رئيس الملة ، ينبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أي نائب البطررك ويسمون الإمام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم في الصوامع »⁽²⁾ . وقد وردت لفظة أسقف في العهد الجديد من الكتاب المقدس خمس مرات⁽³⁾ ، ويقول بولس الرسول في سفر الأعمال⁽⁴⁾ : « احترزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه »

وقد روى صاحب السيرة النبوية عن ابن اسحق قصة وفد نجران ، ومباهلتهم للرسول وامتناع الرسول عن المباهلة ، مسمى أشراف الوفد بالسيد والعاقب والأسقف فالأخير هو السيد وصاحب الرحل ، وعبد المسيح هو العاقب ، أمير القوم وصاحب الرأي والمشورة ، وأبو حارثة بن علقمة هو الأسقف والخبر والإمام⁽⁵⁾ . إننا نرى ابن هشام وقد أعطى الأسقف تسميات أخرى ، هي الخبر والإمام وكلمة خبر للمطران أو الأسقف لا تزال مستعملة في الوظائف الكنائسية حتى يومنا هذا . إن كلمة أسقف وكما تروي لنا كتب

(1) نفس المصدر

(2) مقدمة ابن خلدون ، دار القلم / بيروت / الطبعة الأولى 1978 ص 233

(3) الكتاب المقدس أعمال 20: 28 ، فيلبي 1: 1 و 1 و 1 تيموثيوس 3: 2-7 ، تيطس 5: 9 ، بطرس 2: 25

(4) نفس المصدر

(5) ابن هشام - السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه / دار الكنوز الأدبية / (1-2) 573 وما بعدها .

ومعجم البلدان / دار صادر / 5 / 629

التواريخ والسير قد وردت في شروط الصلح الذي عُقد بين الرسول وأهل نجران « لا يغير أسقف عن اسقفية ولا راهب عن رهبانته » (1). وقد روى أبو فرج الأصبهاني خبر أساقفة نجران مع الرسول (ﷺ) بقصة طويلة (2). يذكر فيها أيضاً كنيسة نجران ، التي سماها أعشى بني تغلب بـ (كعبة نجران) بقوله :

فكعبة نجران حتم عليـك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيداً وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها (3)

إن الأساقفة هم حرز الرعية ورعاتها حسب قول بولس الرسول ، يأتون الى محمد ، وهو صاحب دعوة ورسالة جديدة ، ربما غايرت عقيدة النصارى في بعض الشيء ، ليدافعوا عن عقيدتهم وأيمانهم ، كما إننا نرى الأساقفة يتوافدون من كل حذب وصوب الى مجامع عُقدت في القسطنطينية ونيقية وأفسوس وخلكدونية للنظر في بعض الهرطقات والبدع التي ظهرت هنا وهناك تارة تشكك في (ألوهية) الابن وطوراً تبحث في ماهية (الروح القدس) وجوهره في عملية التثليث . وقد حضر تلك المجامع واشترك في جداولها ومناقشاتهما ووقع على قراراتها ومحاضرها بعض الأساقفة المبشرين بين العرب ، وبعض أساقفة الخيام العرب (4) . منهم الأسقف بطرس الذي وقع على أعمال مجمع (أفسوس) بصفته « أسقف محلة العرب » ، وتاوتيموس ، الذي وقع على أعمال مجمع انطاكية ، بصفته « أسقف العرب » (5) ويبدو من

(1) جواد علي : 6 / 639

(2) راجع الأغاني 10 / 143 وما بعدها . دار الفكر / بيروت / 1970

(3) نفس المصدر .

(4) الأب لويس شيخو : النصرانية وأدائها 1 / 33 وما بعدها .

(5) نفس المصدر 1 / 34 والمشرق ، العدد 12 ، الجزء الخامس (353)

اسم أسقف القدس في نهاية القرن الخامس الميلادي وكان اسمه (الياس) أن هذا الأسقف من أصل عربي⁽¹⁾ .

وقد أسهم الأساقفة الذين كانوا يديرون أمور النصارى العرب ، في الجدل الديني الذي قام أكثره على بحث موضوع طبيعة المسيح ، واشتركوا فيها ، فنقلوا الى العرب « من حيث لا يقصدون » هذه الأبحاث التي عملت على تفريق المؤمنين وعدم جمع كلمتهم وتوحيدهم . وانعكس هذا التصرف على رؤوساء الأديار وعلى (الاكليروس) بمختلف درجاته ورتبه ، كما وصل هذا الجدل الديني الفلسفي الى المؤمنين وغيرهم . وقد وضع رؤساء أديرة اقليم العربية⁽²⁾ ، رسالة وجهوها الى يعقوب البرادعي⁽³⁾ ، ردوا فيها على رأي يحيى النحوي الذي قال بتثليث الجوهر الفرد ، وضمنوا هذه الرسالة دستور ايمانهم⁽⁴⁾ . لقد كثر الجدل بين النساطرة⁽⁵⁾ ، واليعاقبة⁽⁶⁾ وكانت الرها عاصمة النساطرة ، وفيها تعلم عرب العراق وعلى رأسهم بعض أهل الحيرة المذهب النصراني النسطوري ، ومن الحيرة انتقل هذا الايمان الى جزيرة العرب⁽⁷⁾ . والى العربية الشرقية الى قطر وجزر البحرين وعمان واليامة . وقد اشترك في مجامعهم أساقفة كانوا يديرون شؤون نصارى العرب على المذهب النسطوري⁽⁸⁾ وقد انتقلت النسطورية الى نجران واليمن بواسطة المبشرين

(1) جواد علي 6 / 626 عن W. Smith, Dict. of The Bible, II p. 84

(2) يمتد من شرقي بلاد الشام الى الفرات . النصرانية وأدائها 1 / 105

(3) مؤسس طائفة (اليعاقبة)

(4) النصرانية وأدائها 1 / 105

(5) نسبة الى نسطور أسقف القسطنطينية الذي قال بطييعتين للمسيح حكم على هرطقته . مجمع أنسوس

(6) نسبة الى يعقوب البرادعي والقائل بالطبيعة الواحدة للمسيح .

(7) جواد علي 6 / 628

(8) راجع اسماءهم في النصرانية (71)

وقوافل التجار ، وقد شجّعها الفرس بعد دخولهم الى اليمن⁽¹⁾
وقد بقيت النصرانية النسطورية قائمة في اليمن بعد الإسلام ، وقد كان
مار بطرس / أسقفًا لنجران وصنعاء في القرن الثامن للميلاد ، كما كان
أساقفة نساطرة في مواضع متعددة من اليمن وعدن في القرن الثالث عشر
للميلاد⁽²⁾ . أما اليعاقبة انداد النساطرة ومخالفوهم في المذهب بالنسبة لطبيعة
المسيح ، فقد انتشر مذهبهم بين عرب بلاد الشام والبادية وخاصة بين عرب /
بني تغلب / الذين بشرهم أحد تلاميذ يعقوب المسمى (أحودمي) والذي أقام
بين التغلبيين كهاناً ورهباناً وبنى الأديار وأنشأ أسقفيتين⁽³⁾ ، أسقفية العرب ،
وأسقفية التغلبيين⁽⁴⁾ .

لقد دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب . وكان لليعاقبة قديس
يتبركون به ويحجون إلى مقامه في مدينة الرصافة . وقد أشار الأخطل الى هذا
القديس بشعره :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وموتاً ناقعاً
وأبصروا راياتنا لوامعاً خلّوا لنا راذان والمزارع⁽⁵⁾

وإلى جانب الخلافات القائمة بين النساطرة واليعاقبة ورؤساء مذهبها
الأساقفة ، فقد كان لأسقف انطاكية (بولس السميساطي) رأي آخر في
المسيح ، وقد قيل أنه رأى نفسه بمنزلة المسيح ، فحكمت عليه الكنيسة

(1) النصرانية (1 / 59 وما بعدها) .

(2) النصرانية 1 / 67

(3) انظر معنى الأسقفية في الكتاب المقدس . اتيموثيوس 3: 1-7

(4) جواد علي 6 / 632 عن زخيرة الأذهان 1 / 303

(5) ديوان الأخطل والنصرانية 1 / 99

بالمهرطقة ، وحرمة ، وخلعته ، وقد كان من المقربين الى الملكة (الزباء)⁽¹⁾ .

ويروي ابن هشام عن ابن اسحق أن فيميون السائح النصراني هو الذي نصر نجران وعيّن عبد الله بن التامر رئيساً على المتنصرين⁽²⁾ . وأن عبد الله هذا وُجد مدفوناً في خربة من خرب نجران وذلك في زمان عمر بن الخطاب ، وفي يده خاتم مكتوب فيه « ربي الله »⁽³⁾ . مما يدلنا على أن رئيس النصارى آنئذ كان يضع في أصبعه خاتماً . وهذا العرف لا يزال متبعاً إلى اليوم عند بعض الطوائف وخاصة الطوائف المنتمية الى الكنيسة اللاتينية .

ومحدثنا ياقوت عن نجران هذه ، وعن الذين بنوا كعبتها فيقول :

بنى كعبة نجران « بنو عبد المدان بن الديان الحارثي لتضاهي الكعبة التي في مكة ، وعظموها وسموها كعبة نجران وكان فيها أساقفة معتمون ، وهم الذين جاءوا الى النبي للمباهلة⁽⁴⁾ . مما يشير إلى أن الأسقف يومئذ كان يضع على رأسه العمامة ، ولعلها كانت لباس الرأس الى زمن متأخر ، بعكس ما نراه اليوم إذ يعتمر بعض أساقفة النصارى « القلنسوة » وربما تطور لباس الرأس من عمامة الى قلنسوة . ويتساءل البعض عن نوع لباس الرأس عند المسيح ! ونخبرنا يوحنا الانجيلي بأنه منديل يلف لفاً⁽⁵⁾ .

إن ابن هشام يخبرنا : أن عاقب نجران في أيام النبي هو (عبد المسيح) رجل من كندة ، وسيد نجران (الأيهم) ، والأسقف هو (أبو حارثة) أحد

(1) راجع كتابتنا عن مملكة تلمر .

(2) السيرة النبوية 1 / 32 وما بعدها .

(3) نفس المصدر 1 / 36

(4) معجم البلدان 5 / 268

(5) انجيل يوحنا 20: 7

بني بكر بن أوائل⁽¹⁾ ، مما يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب لم تكن تتبع العرف القبلي في الزعامة ، بل ، ومن الأرجح ، أن تكون عملية الاختيار تتم بمقياس ومعيار ، لعله الايمان والعلم والعمل الصالح .

ومن الدرجات الدينية عند النصارى ، « القسوسية » وقد فسّر ابن منظور / القس / نقلاً عن أبي عبيدة بالرئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم ، وهو الكيس العالم وأنشد أبو عبيدة :

لو عَرَضْتَ لِأَيْبَلٍ قَسٌ
أَشَعَتْ فِي هَيْكَلِهِ مُنْدَسٌ
حَنَ إِلَيْهَا كَحَنِّينِ الطُّسُ⁽²⁾

وقد جاء في لسان العرب : القيس : كالقس ، والجمع قسايسة على غير قياس وقسيسون⁽³⁾ .

وقد وردت لفظة (قسيسين) في القرآن الكريم . : ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾⁽⁴⁾ . ويدل قول القرآن الكريم على أن النصارى كانوا يضمرون الحب والوفاء إلى المسلمين الأوائل . . . إذ تعلموا ذلك من قسيسيهم ورهبانهم وهم رجال دينهم . وقد ذكر أمية بن أبي الصلت القسيسين تحت

(1) السيرة النبوية (1-2) / ص 573

(2) لسان العرب - دار صادر / بيروت / 6 / 174 مادة (قس) .

(3) نفس المصدر .

(4) القرآن الكريم - سورة المائدة آية 82

لفظة « قساوسة » بقوله :

لو كان متفلساً كانت قساوسة يحييهم الله في أيديهم الزُّبر⁽¹⁾

ويلي القس في الرتب الكنائسية « الشماس » . وقد قال عنه ابن منظور أنه من رؤوس النصارى : الذي يخلق وسط رأسه ويلزم البيعة . وقد قال ابن سيده : وليس بعربي صحيح ، والجمع شمامسة⁽²⁾ . ولفظة شماس لفظ قديمة وحديثة وردت في الكتاب المقدس⁽³⁾ . بمعنى خادم البيعة ومساعد الأسقف والقسيس في أداء الخدمات الدينية وخاصة في تقديس القداس . ولم تقتصر الشموسية على الرجال فقط بل كانت النساء أيضاً تؤدي هذه الخدمة وقد قامت نساء في هذه الخدمة الدينية منذ عصر مبكر للكنيسة الرسولية⁽⁴⁾ . ولا يزال بعضهن يخدمن الكنائس حتى هذا التاريخ . كما لا يزال بعض الشمامسة في بعض الطوائف يخلقون أواسط رؤوسهم ويتركون ما حولها . ومن الألفاظ التي تدل على رتب دينية وقد وردتنا من الزمن الجاهلي : واقف⁽⁵⁾ أي المشرف على الأمور الإدارية والمالية ، و (الوافه ، والواقه ، والواهن)⁽⁶⁾ وربما عنت الألفاظ الثلاثة خازن الصليب الذي يحفظه من السرقة . والساعي ويقصد بها الرئيس ، وقد ورد في حديث حذيفة في الأمانة : « إن كان يهودياً أو نصرانياً

(1) تحقيق بهجة عبد الغفور الحديثي . أمية بن أبي الصلت حياته وشعره . مطبعة العاني بغداد 1975 ص

227 وفي لسان العرب . قساوسة جمع قسيس وقس على غير قياس . مادة (قس) .

(2) لسان العرب / دار صادر بيروت / 6 / 114 مادة (شمس) .

(3) الكتاب المقدس : اتيמותاوس 3: 8-13 وفيلبي 1: 1 وما بعدها .

(4) نفس المصدر : رسالة بولس الى أهل رومية 16: 1 وما بعدها .

(5) لسان العرب : دار صادر 9 / 360 مادة (وقف)

(6) نفس المصدر 13 / 561

ليردنه على ساعيه (1) . والعسطلوس (2) ، ويراد بها القائم بأمور الدين ، أي الرئيس .

لقد عرف عرب الجاهلية الشماس والقس واطلعوا على ما كان يفعله أمثالها يقول عترة وهو في صباه (3) :

إذا اشتغلت أهل البطالة في الكاس
أو اغتبقوها بسين قس وشماس

أما الراهب : فهو المتعبد في الصومعة ، الذي يخشى الله ، أحد رهبان النصارى (4) والرهبانية مصدر الراهب ، وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ (5) . وقد جاء في الحديث الشريف لا رهبانية في الاسلام (6) قال ابن الأثير : هي من رهبنة النصارى ، وأصلها من الرهبة ، كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها ، والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها ، وتعهد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب (7) . وإلى جانب هذا الزهد في الحياة وترك ملاذها فإن بعض الرهبان والأخبار كانوا يعيشون عيشة مترفة بعيدة عن التقشف والعبادة وهذا ما ورد في القرآن الكريم ﴿ إن كثيراً من

(1) نفس المصدر 14 / 387

(2) نفس المصدر 6 / 141

(3) ديوان عترة . دار صعب / بيروت / ص 160

(4) لسان العرب . دار صادر 1 / 437 مادة (رهب) .

(5) القرآن الكريم . سورة الحديد آية 27

(6) لسان العرب 1 / 437

(7) نفس المصدر 1 / 438

الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴿١﴾ . ولعل هذه الأموال كانت تقدم الى الأديرة والكنائس كندور من المؤمنين فيتصرف بها الأحبار والرهبان على هواهم ومشتهاهم . وتحدثنا كتب التفاسير عن ممارسات الرهبان لطرق عبادتهم ، فمنهم من بالغ في الترهّب والتزهد فخصى نفسه وحييها وامتنع عن الأطايب من الطعام والشراب ، ومنهم من ابتعد عن الناس الى الكهوف والجبال والبراري للتأمل والتعبّد^(٢) . ومنهم من عاش في قلل الجبال .

وقد أنشد ابن الأعرابي :

لو كُلمت رهبان دير في القلّ ، لا نحدّر الرهبان يسعى فنزل^(٣)

نفهم من قول الشاعر أن الرهبان تعبدوا لربهم في رؤوس الجبال وربما سكنوا أديرة والأديرة قائمة في القلل . وهذا عرف متّبع حتى تاريخنا ولعله ينم عن إيمان بأن رؤوس الجبال قريبة من السماء ، والسماء كرسي الله ومستقره ، ولا ينفي هذا وجوده في كل مكان . كما نفهم من قول النابغة الذبياني ، أن الرهبان مارسوا البتولية وتركوا لحاهم وتعبدوا للإله ، وذلك عند وصفه للمتجردة زوجة النعمان .

لو أنها عرضت لأشمط راهب^(٤) ، عبد الإله ، ضرورة ، متعبّد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها ، ونخاله زُشداً وإن لم يرُشد^(٥)

(١) سورة التوبة آية 34

(٢) جواد علي 6 / 644 عن تفسير الطبري . طبعة بولاق . الطبعة الثانية 1956 7 / 8 وعن تفسير أبي السعود 4 / 141 . وتفسير الرازي 12 / 67

(٣) لسان العرب 1 / 437

(٤) الشمط : شيب اللحية . لسان العرب 7 / 336

(٥) ديوان النابغة الذبياني . المؤسسة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ص 41

وكذلك امرؤ القيس فقد عرف البتولية عند الرهبان وعرفهم يتعبدون لخالفهم حتى أوقات متأخرة من الليل إذ تظهر صوامعهم وهي مضاءة كأنها المنائر التي يهتدي بها المسافرون . يقول :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة تلمس راهب متبتل⁽¹⁾
إن الراهب في صومعته يتخشع الى الله بالصلاة المتواصلة والناس نيام ، وهذا ما قصده امرؤ القيس بقوله :

كأنه راهب في رأس صومعة يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا⁽²⁾
لقد صلى الراهب إلى ربه وسجد له راكعاً . يقول النابغة الذبياني .

سيبلغ عذرا أو نجاحا من امرئ إلى ربّه ربّ البرية راكع⁽³⁾

وقد حافظ الرهبان على حياتهم هذه وأماكنهم تلك الى زمن ما بعد الاسلام وما هو الشاعر جرير يذكرهم بأرض مدين يتعبدون في الأماكن العالية حيث تعتصم الوعول بقوله⁽⁴⁾ :

ورهبان مدين ، لو رأوك تنزلوا والعصم ، من شغف العقول ، الغادر

ورهبان مدين هؤلاء يعرفون الثواب والعقاب فهم يخصوصون في صلواتهم حتى درجة البكاء ولا يعودون يقوون على الوقوف أو الركوع

(1) ديوان امرؤ القيس دار صادر / بيروت / ص 46

(2) ج علي : 6 / 646 عن النصرانية ج 2 القسم 2 ص 392

(3) جواد علي 6 / 646 عن النصرانية ج 2 القسم 2 ص 394

(4) لسان العرب 1 / 437

فيقعدون . يقول كثير عزة :

رُهَبَان مَدِين وَالذِينَ عَهْدْتُهُمْ يَبْكُون مِنْ حَذَرِ الْعَقَابِ قَعُودًا
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَهَا خَرُوا (لِعِزَّة) رُكْعًا وَسُجُودًا⁽¹⁾

لقد عرف الجاهليون العرب الراهب بتولاً وعندما جاء الاسلام شهد على ذلك نافياً عن اتباعه صعوبة التبتل مستعيضاً عنها بالجهاد المقدس وقد روي عن الرسول قوله : « لا صرورة في الاسلام »⁽²⁾ . . . لم يقرأ الراهبان ورجال الدين الآخرون الكتاب المقدس قراءة وحسب في صلواتهم بل رتلوها بألحان عذبة في البيع والأديرة ، وستكلم فيما بعد عن الصوم والصلاة عندهم وعند أتباعهم .

ألقاب الراهبان

لقد سُمي الراهب الذي ربط نفسه عن ملاذ الدنيا / الربيط / كما سُمي « الحبيس »⁽³⁾ كما قيل له أيضاً : المقدسي والمقدس . يقول امرؤ القيس⁽⁴⁾ :

فأدركنه يأخذن بالسَّاق والنَّسَا ، كما شَبَّرَقَ الوُلْدَانُ ثُوبَ المقدسي

وروي « ثوب المقدس »⁽⁵⁾ ومن المرجح تسميته بهذا الاسم لأنه زار بيت المقدس وفيها قبر السيد المسيح ، لذلك فإن الصغار يتسارعون إليه ويلمسون ثوبه للتبرك وربما تمزق الثوب لتمسكهم به .

(1) معجم البلدان 5 / 78

(2) جواد علي 6 / 646

(3) معجم البلدان 2 / 213

(4) اللسان 6 / 169 صادر

(5) اللسان 10 / 171 مادة (شبرق)

ويقال للراهب أيضاً « النُّهامي » (1) بكسر النون ، كما قيل له « الأبيّل » وهي لفظة سريانية (أبيلو) « Abilo » ومعناها الزاهد والناسك والراهب (2) وربما عنت المسيح أيضاً . قال ابن عبد الجز (3) :

أما ودماء مائراتٍ تحالها ، على قنّة العزّي أو الثسر ، عندما
وما قدّس الرهبان ، في كلّ هيكل ، أبيل الأبيّلين المسيح بن مريم

لقد قال أبو الهيثم إن الأبيّي والأبيّل هو صاحب الناقوس الذي يقرعه
وقت الصلاة ، وأنشد :

وما صكّ ناقوس الصلاة أبيّلها (4)

وقيل عن الأبيّل : أنه راهب النصارى . يقول عدي بن زيد :

إنني والله ، فاستمع حليفي بأبيّل كلما صلّى جأراً (5)

ويقول الأعشى :

وما أبيّلٌ على هيكل ، بناءً وصلّب فيه وصار
يُروح من صلوات الملبسك طوراً سجوداً وطوراً جؤاراً (6)

(1) اللسان 12 / 594 صادر مادة (نهم) .

(2) جواد علي 6 / 648

(3) اللسان 11 / 6-7

(4) نفس المصدر .

(5) اللسان 11 / 7 / صادر /

(6) ديوان الأعشى - المؤسسة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ص 84

وسُمي الراهب « الجلاذي » ، يقول ابن مقبل :
صوت النسواقيس فيه ما يفرطه أيدي الجلاذيّ جون ما يعفينا^(١)

وربما كان الراهب قارع الناقوس يُسمى « الجلاذي » و « الأبليل » يقول
الأعشى^(٢) :

فإنني ورب الساجدين عشية وما صك ناقوس الصلاة أيلها
ويقسم الأعشى أيضاً ذاكرا الراهب بثوبيه ولعله كان يعرف ما يرتديه
الرهبان فيقول^(٣) :

فإنني وثوبيّ راهب اللجّ ، والتي بناها قصّي والمضاض بن جرهم

لقد كان شعراء الجاهلية على معرفة تكاد تكون تامة بجميع نواحي حياة
الرهبان ، فمن بتولية الى تقشف وتعبّد في الصوامع وقلل الجبال ، الى قواعد
صلاة الى لباس وماكل ، ومن ثم الى ما استعمله أولئك الرهبان في الإضاءة
وقت الصلاة . يقول المزرد أخو الشمّاخ^(٤) :

كان شعاع الشمس في حجراتها مصاييح رهبان زهتها القنادل

كما عرف الشعراء الجاهليون العرب الكنيسة ، واطلقوا عليها ألفاظا
مختلفة ودخل بعضهم الى داخلها وصلّى فيها . فكيف كانت كنائس
الجاهليين ؟ وما هي صفاتها .

(1) اللسان 3 / 481 وما بعدها دار صادر

(2) ديوان الأعشى ص 135

(3) نفس المصدر ص 183

(4) المفضليات ص 99 دار المعارف مصر

يقول جواد علي : « وقد زوّق النصارى كنائسهم ، وجملوها ، وزينوها بالصور والتماثيل ووضعوا الصلبان على أبوابها وفي داخلها . ووضعوا بها المصابيح لإنارتها في الليل ، وكانوا يسرجون فيها السرج ، وجعلوا بها النواقيس ، لتقرع ، فترشد المؤمنين بأوقات الصلوات ، ولتشير إليهم بوجود مناسبات دينية ، ك وفاة ، أو ميلاد مولود » (1) .

فمن الألفاظ التي أشارت الى معبد النصارى « الكعبة » وقد أطلقت على كنيسة نجران (2) وهي من أشهر كنائس نصارى الجاهلية العرب . يقول الأعشى

وكعبسة نجران حتم عليـ
ك حتى ثناخي بأبوابها
نزور يزيد ، وعبد المسيح ،
وقيسا ، هم خير أربابها
إذا الخبرات ، تلوّت بهم ،
وجرّوا أسافل هداياها

فالإ جانب ذكر اسم بيعة نجران وتسميتها بالكعبة ، فإن الأعشى يذكر القيمين على شؤونها كما يبين ما كانوا يرتدونه من ثياب بإعطائها اسم الخبرات ، التي قال عنها المفسرون بأنها ضرب من برود اليمن ، وربما قصد الأعشى بالخبرات لباس الخبر وهو أحد رؤساء النصارى كما أسلفنا .

والهيكل لفظ آخر يعني معبد النصارى يقول حسان بن ثابت في مدح الحارث الغساني :

ولقد يرانسي موعدي كائني في قصر دومة أو سواء الهيكل (3)

(1) جواد علي 6 / 650

(2) معجم البلدان 5 / 268 دار صادر*

(3) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري . دار احياء التراث العربي - بيروت . ص 184

ويقول الأعشى :

وما أَيْبِلُ على هَيْكَلٍ بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَارَا(1)

أما لفظة (بيعة) فقد وردت في نص (أبرهة) الشهير الذي وُجد على بقايا سد مأرب . وقد جاء فيه : (وقدس بعثن) ، (وقدس البيعة) (2) وقد ذكرها حاتم الطائي (3) - أما ورقة بن نوفل فإنه يدخل إلى البيعة ، متى أراد ، فيصلي ويكثر الأدعية مباركاً الله ، على أنه يهدي إليه الكثيرين الذين يكثرون الدعاء باسمه ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي نبذ عبادة الأوثان في الجاهلية واهتدى إلى عبادة الله وقال :

أربا واحدا أم ألف ربٍّ أدين إذا تُقسمت الأمورُ
فيجيئه ورقة قائلاً :

رشدت وانعمت بن عمرو وإنما تجنبت تنسورا من النار حاميا
إلى أن يقول :

أقول إذا صليت في كلِّ بيعة تباركت قد أكثرت باسمك داعيا(4)
وفي العربية لفظة أخرى لمعبد النصرى ، ألا إنها لفظة (القليس) (5) . وهي بيعة للحبش كانت بصنعاء .

(1) ديوان الأعشى ص 84 . ولسان العرب 11 / 7 دار صادر

(2) جواد علي 6 / 651 عن مجلة المجمع العلمي العراقي (4 / 215)

(3)

فلو كان ما يُعطى رياءً لأمسكت
ولسكنها يبغي به الله وحده
به جنّات اللوم ، يجذب به جذبا
فأعطى . فقد أربحت ، في البيعة ، الكسبا .

الديوان ص 30 دار بيروت

(4) الأغاني 3 / 16

(5) لسان العرب 6 / 180 مادة (قلس) .

يقول الكميت الشاعر :

ثم استمرّ تغنّيه الذُّبابُ ، كما غنّى المُقلّسُ بطريقاً بمزمار⁽¹⁾

وربما غنى الشاعر بالمقلّس ، الذي يدخل ، القلّيس⁽²⁾ .

أما البيعة التي ذكرناها آنفاً وقلنا إنها تعني معبد النصاري فقد ورد ذكرها في الكثير من أشعار الجاهليين . يقول عبد المسيح بن بُقيلة ذاكراً الدير والبيعة :

كم تجرّعتُ بدير الجرعة غصصا كبدي بها مُصدّعه
من بدور فوق أغصان على كُتِب زُرن ، احتساباً ، بيعه⁽³⁾

ويقول الزبرقان بن بدر :

نحن الكرام فلا حيّ يُعادِلنا مِنّا الملوك وفينا تُنصبُ البيع⁽⁴⁾

وقد ذكر القرآن الكريم لفظة بيع بعد لفظة صوامع ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ﴾⁽⁵⁾ . وصومعه النصاري ببسّ في قلل الجبال دقيقة الرأس يقيم فيها الرهبان للصلاة والتعبد⁽⁶⁾ . ويدل ورود اللفظة في القرآن الكريم بصورة الجمع على أن الجاهليين القريبين من العصر الاسلامي كانوا على معرفة بالصوامع مكان إقامة الرهبان ، وبالبيع أيضاً مكان تجمع النصاري للصلاة والتعبد .

(1) نفس المصدر .

(2) انظر الى معناها بفصل « العرب والنصرانية » .

(3) معجم البلدان 2 / 503 دار صادر

(4) ابن هشام - السيرة النبوية تحقيق مصطفى السقا ورفاقه . دار الكنوز الأدبية . الجزئين (3، 4) ص 563

(5) سورة الحج آية 40

(6) لسان العرب 8 / 208

وترد لفظة قَلِيَّة في كتاب أهل الشام النصاري إلى عمر بن الخطاب لما صالحوه « إنا لا نحدث في مدينتنا كنيسة ولا قلية ولا نخرج سعانين ولا باعوثاً » (1) . وقد تطورت اللفظة لتصبح « قلاية » وتطلق على مكان إقامة المطران أو البطريرك وحتى يومنا هذا .

أما لفظة الدير ، فهي من الألفاظ المشهورة عند النصاري قديماً وحديثاً وقد عرفها عرب الجاهلية . وذلك لانتشارها في مواضع كثيرة من بلاد الشام والجزيرة العربية . فعرج عليها التجار وأصحاب القوافل للراحة والتزود بالماء وعرفها الشعراء فقصدوها وشربوا خمرها المعتق . والدير كما عرفه ياقوت : بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكون إلا في الصحاري ورؤوس الجبال (2) قال بعضهم :

سقى الله ذاك الدير غيثاً لأهله وما قد حواه من قلال ورهبان (3)

وكما كانت هناك أديرة للرجال ، فقد كانت للراهبات أيضاً أديرة . يقول الثرواني :

يا دير حنة عند القائس الساقبي إلى الخورنسق من دير ابن برأق (4)

ويقول الثرواني أيضاً ذاكراً ديراً آخر سُمي باسم امرأة وهي « أشمونني » :

اشرب ، على قرع النواقيس ، في دير أشمونسي بتفليس

(1) لسان العرب 15 / 201 صادر

(2) معجم البلدان 2 / 495 صادر

(3) نفس المصدر 2 / 496

(4) نفس المصدر

إلا على قرع النواقيس — سس ، أو صوت قُسنان وقشميس⁽¹⁾

والمحارب من الألفاظ التي استعملها النصارى العرب في أمور دينهم ،
إذ أطلقت على صدر الكنائس . وقد ذكرها القرآن الكريم⁽²⁾ كما وردت في
أشعار الجاهليين⁽³⁾ وهناك ألفاظ : تدل على بيوت العبادة للنصارى
كـ (التامور) و (الغربال) و (الاسطوانة)⁽⁴⁾ .

وقد استعمل رجال الدين النصارى في معابدهم التي ذكرناها ،
المصابيح والقناديل ، للإضاءة ، وقد تركت هذه الأشياء أثراً ملحوظاً في
نخيلة الشعراء ، فقال مزرد بن ضرار الديباني :

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهتها القنادل⁽⁵⁾

والقنديل لفظة معربة عن اللاتينية (Candel) وتعني شمعة في لغتنا
العربية . وقد عرف العرب الشمع وربما استعملوه للإضاءة الى جانب
استعماله للختم عليه وهذا ما أشار إليه امرؤ القيس بقوله :

تري أثر القرّح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس⁽⁶⁾

وقد ذكر امرؤ القيس مصباح الراهب المتبتل الذي يوقده ليهتدي به وقت
صلاة الليل فيقول :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب متبتل⁽⁷⁾

(1) نفس المصدر . وانظر ما ذكره ياقوت عن الأديرة فيما يلي من صفحات

(2) آل عمران آية 37, 39 ومريم آية 11 سورة آية 21

(3) لسان العرب 1 / 305 صادر .

(4) جواد علي 6 / 656

(5) المفضليات ص 99 دار المعارف / مصر

(6) ديوان امرؤ القيس دار صادر ص 121 الجرجس : الشمع

(7) شرح المعلقات السبع للزوزني . دار الجليل بيروت ص 32

وما أشبه ضيائه بوميض البرق ، ضياء هذا المصباح الذي يحتوي على الزيت والفتيل . يقول امرؤ القيس :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناءه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفئل⁽¹⁾

ورفع النصارى الصليبان في كنائسهم وأديرتهم وعلى مرتفعات أرضهم يقول بشر بن أبي خازم الأسدي يهجو بني الحذاء :

لله در بني الحذاء من نفر وكل جار على جرائنه كلب
إذا غدوا وعصي الطلح أرجلهم كما تنصب وسط البيعة الصليب⁽²⁾

وأهم علامة فارقة لمعابد النصارى زمن الجاهلية الناقوس ، الذي ينصب فوق سطوح المعابد لإعلان فروض الصلاة ، ولدعوة النصارى للاجتماع عند حدوث أمر مهم يستلزم الاجتماع .

يقول المتلمس ذاكراً الناقوس :

حنت قلوصي بها والليل مطرق بعد الهدو وشاقتها النواقيس⁽³⁾

كما يذكره المرقش الأكبر وهو يقرع بعد الهدوء قائلاً :

وتسمع ترقاء من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس⁽⁴⁾

ويذكر الأعشى وقتاً من أوقات قرع الناقوس وهو الصباح الباكر بقوله :

(1) نفس المصدر ص 50-51

(2) الديوان لبشر بن أبي خازم الأسدي ص 227 تحقيق عزة حسن الطبعة الثانية منشورات وزارة الثقافة - دمشق -

(3) ديوان المتلمس

(4) المفضليات ص 225 دار المعارف مصر

وكأس كعين الديك باكرت حدّها بفتيان صدق والنواقيس تُضرب⁽¹⁾

كما يذكر مثل هذا الوقت الأسود بن يعفر :

وقد سبّأت لفتيان ذوي كرم ، قبل الصباح ، ولما ثُقرع النُقُس⁽²⁾
والخشبة التي يُقرع بها الناقوس كانت تسمى (الوبيلة) أو
(الوبيل)⁽³⁾

أما (الشبور) . فقد ذكر علماء اللغة انه شيء يتعاطاه النصارى
بعضهم لبعض قصد التبرك⁽⁴⁾ . وربما كان هذا هو القربان الذي لا تزال
كنائس الطوائف الشرقية تستعمله .

أعياد النصارى

لقد كان للنصارى العرب أعياد يحتفلون بها ، وكانت هذه الأعياد
طقوس معيّنة وعادات وتقاليد مختلفة لا يزال بعضها متبعا حتى اليوم . من
هذه الأعياد عيد (السعّانين) ، ويسمى اليوم عيد الشعّانين ، وقد ذكره
النابغة الذبياني بشعر مدح به أحد ملوك غسان النصراني ناعثاً إياه بيوم
السياسب . يقول :

رقاق النعال طيّب حُجْراتهم ، يُحيون بالرَّيحان يوم السياسب
تحِيّهم بيضُ الولايد بينهم ، وأكسية الاضريح فوق المشاجب
يصونون اجسادا ، قديما نعيمها ، بخالصة الأردن ، خضر المناكب⁽⁵⁾

(1)

(2) لسان العرب 6 / 240 صادر

(3) نفس المصدر

(4) لسان العرب 4 / 392 صادر

(5) ديوان النابغة الذبياني - المؤسسة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ص 12 ولسان العرب 1 / 460

وكانى بأولئك القوم يخرجون في هذا العيد ، وفي عيد الباعوث كما سنرى ، خارج دور عبادتهم يحملون قُضْبَ الریحان ، وربما أغصان السباسب⁽¹⁾ أيضاً ، وأعواداً تعلق عليها أكسية الإضریج وبين صفوفهم بیض الولائد ، وربما عنى الشاعر بذلك الفتية والفتيات اللذین یرتدون الملابس البیضاء في عيد الشعانین . وهذا التقليد لا يزال متبعاً إلى اليوم في أكثر كنائس المسیحیین . إذ یرتدي الأولاد لباساً أبيض يحملون « الشعانین » وهي كناية عن شمعة تحیط بها أغصان الزيتون وقضب الریحان وأغصان النخل ويخرجون خارج الكنيسة بمسيرة یسمونها « الزیّاح » .

وقد وردت كلمة شعانین وباعوث في صحيفة صلح « عمر » مع نصاری الشام ، أن لا یحدثوا كنيسة ولا قلیة ، ولا یخرجوا سعانین ولا باعوثاً⁽²⁾ والذي نستخلصه من هذا القول ، أن المسیحیین كانوا یخرجون خارج المعابد في عیدی السعانین والباعوث ، وهذا ما یفعله النصاری الشرقیون إلى اليوم . وقد قال ابن الأثیر : السعانین عيد للنصاری یقع قبل عیدهم الكبير بأسیوع⁽³⁾ . وهذا هو التقليد المتبع إلى هذا التاريخ .

أما خمیس الفصح فهو عيد یلي السعانین ، إذ یأتي بعده بثلاثة أيام ، ویسبق الفصح ، یذهبون فيه إلى الكنائس والبیع⁽⁴⁾ .

ثم یأتي العيد الكبير ، حسب تعبير ابن الأثیر ، ألا وهو عيد الفصح . وقد احتفل به نصاری الجاهلیة ، فأوقدوا فيه المشاعل ، وعمروا القنادیل ،

(1) انظر شرح كلمة السباسب في لسان العرب 1 / 459 صادر

(2) لسان العرب 15 / 201 صادر مادة « قلا » .

(3) لسان العرب 13 / 209 . صادر مادة سعن .

(4) جواد علی 6 / 660 عن النصرانية (216)

وأضأوا الكنائس بالسرج بعد أن أموها للاحتفال بالفصح الذي قال فيه عدي بن زيد العبادي :

بكرُوا عليَّ بسحرة فصحبتهُم بآناء ذي كرم كعقب الخالب
بزجاجة ملء اليدين كأنها قنديل فصح في كنيسة راهب⁽¹⁾

وعن تهيئة المصاييح لعيد الفصح يقول أوس بن حجر :

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ويحشوه الذبال المفتلاً⁽²⁾

وعن نوع لباس الرهبان في الأعياد وإطالة هذه الألبسة بحيث تجرُّ وراءهم ، يقول امرؤ القيس :

فأنست سرياً من بعيد كأنه رواهبٌ عيد في ملأٍ مهدب⁽³⁾

وفي الفصح يطلق الملوك وذوو السلطان من النصاري أسراهم تقرباً إلى الله ورجاء . وقد ذكر ذلك الأعشى في مدح هوزة بن علي :

ففكُّ عن مائة منهم وثاقهمُ ، فأصبحوا كلُّهم من غلِّه خلعاً
بهم تقرب يوم الفصح ضاحيةً ، يرجو الإله بما سدئ وما صنعاً⁽⁴⁾

وعن التقاليد المتبعة في الفصح والتهيئة والاعداد له يقول حسان في مدح جبلة بن الأيهم :

قد دنا الفصح فالولائد ينظمن من سراعاً اكلة المرجان⁽⁵⁾

(1) الأغاني 9 / 53 دار الفكر للجميع / بيروت / 1970

(2) الديوان دار صادر / بيروت / ص 84

(3) الديوان ص 68 والنصرانية (173)

(4) الديوان ص 110

(5) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري . دار احياء التراث العربي / بيروت / ص 252

وهذا عنتره يصف ابنة عمه وهي تمر بين الفتيات في يوم العيد قائلاً :
مرت أوان العيد بين نواهد مثل الشموس لحاظهن ظباء⁽¹⁾

ومن التقاليد المتبعة زمن الجاهلية ، هي زيارة الأضرحة والمقابر أيام الأعياد ، يصلون قربها ، طلباً لراحة الموتى ، واطهاراً لشعورهم ، بأن المفارق لا يزال حُبّه في القلوب⁽²⁾ . وهو عرف متبع في كنائس النصارى الشرقيين الى هذا التاريخ .

لقد أشير في أشعار الجاهليين الى تعبد النصارى وصلواتهم ، وخاصة منهم الرهبان والنسك الذين اعتكفوا في الصوامع والبيع والأديرة النائية يعبدون الله بتلاوة « الانجيل » والصوم والصلاة . يقول عدي بن زيد العبادي :

وأوتينا الملك والانجيل نقرؤه نشفي بحكمته أحلامنا عللاً⁽³⁾

وما داموا يقرؤون الانجيل فلا بُدّ أنهم عرفوا الصلاة والصوم⁽⁴⁾ ،
يقول أمية بن أبي الصلت :

صدت كما صد عما لا يحل له ساقى نصارى قبيل الصبح صوام⁽⁵⁾

(1) ديوان عنتره مكتبة كرم / دمشق / ص 30

(2) جواد علي 6 / 661

(3) الحيوان (4-7) ص 80 تحقيق فوزي عطوي دار صعب بيروت .

(4) انظر صوم موسى وإيليا والسيد المسيح في الكتاب المقدس . خروج : 28:34 وتثنية : 9:9 والملوك الأول

8: 19 وانجيل متى 2: 4 ومرقس 1: 13 ولوقا 4: 2 . وانظر صلاة السيد المسيح في يوحنا اصحاح 17 وفي

متى : 6: 9-13 ولوقا 11: 2-4

(5) النصرانية وادابها 179 .

ولقد صُلِّيَ النصاري ركوعاً : يقول المضرُّس الاسدي :

وسخال ساجية العيون خواذل بجهاد لينة كالنصاري السجد⁽¹⁾

ويقول النابغة الذبياني :

سيبلغ عذرا أو نجاحساً من امرئ إلى ربّه رب البرية راع⁽²⁾

ويقول الخطيئة :

بها العينُ تحفرن الرُّخامى كأنها نصارى على حين الصلاة سُجُود⁽³⁾

كما صُلِّيَ النصاري وهم واقفون . يقول البعيث :

على ظهر عادي كأن أرومه رجال يتلسون الصلاة قيام⁽⁴⁾

وتلحق بالصلاة التسابيح بذكر الله وتقديس اسمه ، ولا سيما في الضحى والعشي . يقول أمية بن أبي الصلت :

سبحانه ثم سبحاناً يعسود له وقبلنا سُبْح الجودي والجمد⁽⁵⁾

كما يقول الأعشى :

وسُبْح على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبد⁽⁶⁾

(1) النصرانية (177)

(2) النصرانية (178)

(3) ديوان الخطيئة المؤسسة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ص 223

(4) جواد علي 6 / 674 الهامش .

(5) لسان العرب 2 / 471 صادر .

(6) نفس المصدر 2 / 473 صادر .

لقد كان النصارى يصلُّون فرادى وجماعات ورتلوا المزامير بأنغام والحن شجية وقد عرف ترتيل القسيسين بـ (الهينم) وهو النغم بأصوات خافتة . يقول رؤبة :

لم يسمع الركبُ بها رجْعَ الكَلِمِ إلا وساويسَ هينيمِ الهنم⁽¹⁾

كما عرفوا التلحين في الصلاة . يقول ابن منظور : اللحن : التطريب وترجيع الصوت وتحسين القراءة ، وإن النصارى يقرؤون كتبهم نحواً من ذلك⁽²⁾ .

ولقد عرف الجاهليون العرب « التصنيغ » أي التعميد يقول الأزهري : وسمَّت النصارى غمسَهم أولادَهم في الماء صبغاً لغمسهم إياهم فيه⁽³⁾ . ويقول الفراء : إنما قيل صبغة لأن بعض النصارى كانوا إذا وُكِّد المولود جعلوه في ماء لهم كالطهير والختانة⁽⁴⁾ .

والآن وبعد أن عرفنا الشيء الكثير عن النصارى يجدر بنا وقبل أن ننهي هذا الفصل أن نتوقف قليلاً مع النصارى العرب زمن الجاهلية لنبحث في اللغة التي استعملها أولئك الناس . ونتساءل : أهى اللغة العربية التي عرفها الحجاز عند انطلاقة الرسالة الإسلامية ؟ أم هي لغة بني إرم سكان سوريا وفلسطين عند مجيء السيد المسيح ؟ أم لغة أخرى ؟ يقول جواد علي في ذلك : « وقد ترك لنا رجل من نصارى الشام نصاً قصيراً مؤرخاً بسنة (463) المقابلة

(1) لسان العرب 12 / 623 صادر

(2) لسان العرب 13 / 383 صادر

(3) نفس المصدر 8 / 437

(4) نفس المصدر ص 438

لسنة (568) للميلاد ، وهي غير بعيدة عن ميلاد الرسول جاء فيها : « نا شرحيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنت 463 بعد مفسد خير بعم » ، أي (أنا شراحيل بن ظالم بنيت ذا المرطول بعد مفسد (خير) بعم) . والذي يهمنا من هذا النص هو ما يقوله عنه جواد علي « إذ هو النص الجاهلي الوحيد الذي وصل إلينا مكتوباً باللهجة التي نزل بها القرآن الكريم »⁽¹⁾ مما يدل على أن النصارى العرب في العصر الجاهلي وإن أقاموا في الشام بعيداً عن مركز الجزيرة العربية كانوا قد استعملوا اللغة العربية في كتاباتهم . كما نستنتج أيضاً أنهم تكلموا بها ، إذ لا يعقل أن يكتب انسان لغة ما ويؤرخ بها ولا يحكيها . ولكن هذا لا ينفي أن النصارى الشرقيين تأثروا بثقافة « بني إرم » ، إذ كانت الآرامية لغة العلم عندهم⁽²⁾ ، فاستعملها نصارى العرب في الكنائس والبيع والأديرة وفي الدراسات الدينية والصلوات والترانيم . واستعمل الكتاب منهم قلم بني إرم في كتاباتهم . ومن هذا القلم تولد القلم النبطي المتأخر الذي تفرع منه القلم العربي الذي كتب به عرب الحجاز قبيل وعند ظهور الإسلام⁽³⁾ .

وفي الوقت ذاته كان بعض نصارى العرب يكتبون بالعبرانية . يقول الزبير محدثاً عن عبد الله بن معاذ . . . عن عائشة . « أن خديجة بنت خويلد انطلقت بالرسول قبل مبعثه ، حتى أتت ورقة بن نوفل ، ابن عمها أخي أبيها ، وكان ورقة امرئاً تنصراً في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء أن يكتب »⁽⁴⁾ ، وقالت خديجة : « أي

(1) جواد علي 6 / 594

(2) جواد علي 6 / 599

(3) نفس المصدر

(4) الأغاني 3 / 14

ابن عم اسمع من ابن أخيك ، ولما أخبره الرسول ما يرى قال ورقة : « هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى »⁽¹⁾ وفي رواية أخرى : « إن هذا الناموس الأكبر ناموس عيسى بن مريم الذي لا يخبره أهل الكتاب إلا بثمان »⁽²⁾ وروى الزبير عن عمه عن ابن دأب قصة خروج ركب من ثقيف إلى الشام وفيهم أمية بن أبي الصلت ، وملاقاتهم حين رجوعهم بالعجوز أم العوأم ، ونفور الإبل ، ومحادثة رجل الدين المسيحي لأمية وتعليمه إياه « باسمك اللهم » لتجميع الإبل وطرد العجوز المجنونة ، وعند قفولهم إلى مكة ذكروا هذا الحديث فكان ذلك أول ما كتب أهل مكة باسمك اللهم في كتبهم⁽³⁾ . إن لغة نصارى الجاهلية لا بُدَّ وأن تكون قد خضعت لتأثيرات عديدة خارجية وداخلية . خارجية بفعل تدخل الروم والأحباش في بلاد العرب يظهر من غيرتهم على نشر الإيمان ويضمرون أهدافاً أخرى⁽⁴⁾ . أما الداخلية منها فقد ظهرت بالصراع الإيماني الأول بين المؤمنين بالمسيح من العبرانيين وتمسكهم بلغتهم وشرعة موسى . وبين المؤمنين بالمسيحية من الأمم الوثنية وتمسكهم بعاداتهم وأعرافهم ولغاتهم ، وهذا ما جعل الرسل يجتمعون ويصدرون أحكاماً وتوصيات بشأن هذه الخصومات⁽⁵⁾ . وتوالت هذه الصراعات وما زالت .

نستخلص من كل ما تقدم أن النصارى الجاهليين ربما تكلموا لغات مختلفة كالعبرانية والإرمية والسريانية واليونانية والحبشية والعربية أيضاً بأزمان مختلفة وأماكن مختلفة ، ومثلنا على ذلك عدي بن زيد وكان أول من كتب

(1) نفس المصدر

(2) نفس المصدر 3 / 15

(3) نفس المصدر 3 / 189

(4) انظر هذه الأهداف في علاقة العرب القدامى بالروم والأحباش .

(5) الكتاب المقدس ، أعمال الرسل 15 : 1-35

بالعربية في ديوان كسرى⁽¹⁾ .

2 - أثر النصرانية في عرب الجاهلية :

لقد كان للنصرانية أثرٌ ، في ميادين مختلفة من نواحي الحياة ، لم تمحه الأزمان ولم يعف عليه الدهر . فالنصارى العرب يتواجدون في أكثر من مكان في أرض العرب ، وهم على صلات شبه مستمرة باتباع دينهم من الروم والأحباش وغيرهم . وهذا التواجد والاتصال ترك بصماته في عرب الجاهلية ، إن في الفكر أو اللغة أو العقيدة أو في الحياة الخلقية والاجتماعية والفنية أيضاً .

لقد ورد في شعر عدي بن زيد العبادي ، الشاعر الذي برع في العربية وبرز في الفارسية ، بعض المعربات مما يدل على أثر الفارسية والإرمية فيها⁽²⁾ . كما ورد في شعره الشيء الكثير في الزهد وترك هذه الدنيا التي لا تدوم على حال . يقول :

ليس شيء على المنسون بباق غير وجه المسبّح الخلاق⁽³⁾

ويقول للنعمان بن المنذر ، وهما يمران بظاهر الحيرة على المقابر : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر ! إنها تقول :

أيها الـركب المخبـيون على الأرض المـجدون
كما أنتم كنا و كما نحن تكونون⁽⁴⁾

وقال عدي في خرجة أخرى مع النعمان على تلك المقابر ، إنها تقول :
من رأنا فليحدث نفسه إنه موف على قرن زوال⁽⁵⁾

(1) الأغاني : 2 / 20

(2) جواد علي 6 / 664 عن (نالينو) (74)

(3) الأغاني 2 / 26

(4) نفس المصدر 2 / 34

(5) نفس المصدر 2 / 34

إن عدياً في شعره هذا يذكر الأحياء بنهاية الأموات وأن الأبنية الضخمة والقصور الشاهقة لا تجدي نفعاً ولا تسبب في خلود المرء .

ولعل نصارى الجاهلية قد حدثوا غيرهم بحكايات العهد العتيق من الكتاب المقدس فعرف العرب الوثنيون منهم قصة خلق الأرض والانسان . يقول عدي بن زيد في نهاية قصيدة يفصل فيها طريقة خلق الله للأرض والسماء والانسان :

قضى لستة أيام خلأته وكان آخرها أن صور الرجال
دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلاً⁽¹⁾

كما حدثوا بالعهد الجديد وما فيه من معاني الزهد في الحياة وعدم الاهتمام بها . ألم يقل السيد المسيح : « لا تهتموا بما للغد ولا بما تأكلون وتشربون » وهذا حاتم الطائي يقول بهذا المعنى :

كلوا الآن من رزق الإله ، وأيسروا ، فإن ، على الرحمان ، رزقكم غدا⁽²⁾
ويقول أيضاً :

إذا كان بعض المال ربأ لأهله ، فإنني ، بحمد الله ، مالي مُعَبَّدُ⁽³⁾
وهذا ما يتوافق وقول الانجيل « لا تعبدوا ربين إله وإما المال » .

وعن عدم الاهتمام بالغد ، وترك الغد يهتم بنفسه ، يقول أوس بن حجر .

ولست بخابيء أبداً طعاماً حذار غدا لكل غدا طعاماً⁽⁴⁾

(1) الحيوان للجاحظ (4-7) ص 80 دار صعب / بيروت /

(2) ديوان حاتم الطائي دار بيروت 1974 ص 41

(3) الديوان ص 35

(4) ديوان أوس بن حجر دار صادر / بيروت / ص 115

إن اختلاط العرب الوثنيين بالنصارى العرب زمن الجاهلية جعلهم يطلّعون على بعض طقوسهم وأحوال عباداتهم وربما تأثروا بها وآمنوا فيها :
إن الأعشى يشير الى طواف النصارى حول الصليب أو تمثال السيد المسيح بقوله في مدح قيس بن معد يكرب الكندي :

تطوف العفّاة بأبوابه كطوف النصارى بيت الوثن⁽¹⁾
وينهي عن عبادة الأوثان والتقرب إليها ويدعو إلى الصلاة بكرة وعشية وينصح بحمد الله بقوله :

وذا النصب المنصوب لا تسكنّه ولا تعبد الأوثان ، والله فاعبدا⁽²⁾
وصلّ على حين العشيات والضحى ، ولا تحمد الشيطان ، والله فاحمدا

لقد آمن بعض نصارى الجاهلية بالقضاء والقدر استنادا الى قول الانجيل : « لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا باذن ابيكم الذي في السماوات » ولعلّ الأعشى أخذ هذا الايمان من نصارى الحيرة العباديين . وقد قال :

استأثر الله بالوفاء وبالكعدل ، وولى الملامّة الرّجلا والأرض حاملة لما حمل الله وما إن تردّ ما فعلا⁽³⁾

كما كان للنصرانية ، كما أظن ، وغيرها كاليهودية والحنيفية أثر كبير في أخلاق الجاهلي وتصرفاته فهو يحرم الغدر ويغض طرفه عند مرور جارته ويلجم نفسه عن هواها يقول عنترة في هذا المعنى :

(1) الأغاني 13 / 443 / صادر /

(2) ديوان الأعشى ص 46

(3) الديوان ص 170

وأغضُ طرفي ما بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها
إني امرؤُ سَمَحُ الخليفة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها⁽¹⁾

ويقول أوس بن حجر بهذا المعنى :

عليُّ أليَّةٌ عثقت قديماً فليس لها وإن طلبت مرامُ
بأن الغدر قد علمت معدُ عليُّ وجارتني مني حرامُ⁽²⁾

وهذه الشذرات الإلهية ، من أين أتى بها شعراء الجاهلية ؟ لو لم
يطلعوا من أهل الكتاب وخاصة النصارى ، على أيمانهم وما يشملهم هذا
الايان من التقرب لله ابتغاء مرضاته ، من أعمال للبر والتقوى وأخذ بالمعروف
ونهي عن المنكر . يقول امرؤ القيس :

أقبلت مقتصداً ، وراجعتني حلمي ، وسُدُّ ، ليلتقى ، فعلي
والله أنجع ما طلبت به ، والبرُّ خيرُ حقيبة الرُّحْل
ومن الطريقة جائرٌ ، وهدي قصدُ السبيل ، ومنه ذودخل⁽³⁾

ويقول أيضاً في مدح عويز من تميم ورهطه :

فقد أصبحوا ، والله اصفاهم به ، أبرُّ بميثاق واو في بجيران⁽⁴⁾

أما زهير بن أبي سلمى فإنه يقول في مدح سنان بن أبي حارثة المري :
حزماً ، وبراً للإله ، وشيمة تصفو على خلق المسيء ، المفسد⁽⁵⁾

(1) ديوان عترة مكتبة كرم / دمشق / ص 184

(2) الديوان ص 115

(3) ديوان امرئ القيس دار صادر / بيروت / ص 152

(4) نفس المصدر ص 169

(5) ديوان زهير ابن أبي سلمى ص 230 . المكتبة العربية حلب

ويقول في مدح الحارث وهمر :

وقد قلتما : إن ثدرك السلم واسعا بمالٍ ، ومعرّوف من الأمر ، نسلم⁽¹⁾

وينادي زهير بالستر وتقى الله قائلا :

والسترُ دون الفاحشات وما يلقاك ، دون الخير ، من ستر⁽²⁾

أما عبدُ قيس بن خُفاف فهو يطالعنا بقصيدة⁽³⁾ تعد من الأدب الرفيع
والخلق السامي يقول فيها :

واترك محلّ السوء لا تحلّ به وإذا نبا بك منزل فتحوّل⁽⁴⁾
وإذا هممت بأمر شرّ فائتد وإذا هممت بأمر خير فافعل
وإذا تشاجر في قوادك مرّة أمان فاعمد للأعف الأجل

أما قيس بن الخطيم فإنه يرفض الباطل وينادي بالحق ويقول شعراً
مطابقاً لما جاء في الانجيل « كل من لا يدخل من باب الحظيرة فهو سارق
ولص » :

متى ما تقصد بالباطل الخلق يابه وإن قدت بالحق الرواسي تنقذ⁽⁵⁾
متى ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تدخل من الباب تهتد

وهذا ما يوافق قول القرآن الكريم ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾⁽⁶⁾

(1) نفس المصدر ص 12

(2) نفس المصدر ص 116

(3) الفضليات - تحقيق شاکر وهارون . - دار المعارف / مصر / قصيدة رقم 116 ص 384

(4) الفضليات قصيدة رقم 116 ص 386

(5) ديوان قيس بن الخطيم ص 130 / صادر /

(6) البقرة : 189 .

أما المثقَّب العبدِي الشاعر الجاهلي القديم فيطالعنا بشعر فيه مناداة
« بنعم نعم ولا لا » ومن زاد على ذلك فهو من الشرير كما ورد في الكتاب
المقدس . كما أن فيه الكثير من الحرص على رضا الناس ، وتحاشي الغيبة
وتجنب الرياء ، والحلم على الجاهال . إنه نفحة في رياض الله . يقول (1) :

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرد	أن تُبَيِّم الوعدَ في شيء « نعم »
إن « لا » بعد « نعم » فاحشة	فبـ « لا » فابدأ إذا خِفت الندم
لا ترانسي راتعاً في مجلس	في لحوم الناس كالسَّبْع الضَّرْم
إن شرَّ الناس من يكشُر لي	حين يلقاني وإن غبت شتم
وكلام سيء قد وقَّرت	أذني عنه وما بي من صنم

إن الله فاحص القلوب والكلى يعرف خفايا القلوب ومكنونات الصدور
وسيكشف لكل انسان أعماله وما اقترفت يده في يوم الحشر ، يوم الحساب ،
وهو المنتقم الجبار . يقول زهير في ذلك (2) .

فلا تكثمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتُم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

ويمثله قول بشر بن أبي خازم الأسدي :

فعموت عنهم عفو غسير مثرب وتركتهم لعقاب يوم سؤم (3)

أما ارادة الله في خلقه ، يحبي من يشاء ويميت من يشاء ، في زمن معين
ومكان معين فقد اطلع العرب الجاهليون على ذلك ولعلهم عرفوه ،

(1) الفضليات نصيدة رقم 77 ص 293-294

(2) شرح المعلقات السبع « للزوزني » دار الجيل / بيروت / ص 110

(3) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي في ملحقات الديوان البيت رقم (4) ص 229

وبعضهم آمن به ، من أهل الكتاب وخاصة النصارى لتواجد الكثير من القبائل النصرانية العربية في أكثر من مكان، اديرتهم مفتوحة لكل غاد ورائح وقاطع سبيل وخاصة الى قوافل التجار يميلون إليها للاستراحة والتزود بالماء وللاستماع إلى أقوال الرهبان والقسيسين .

يقول قيس بن الخطيم مذكراً بإرادة الله « ولا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بإذن الله » :

يُحِبُّ الْمَرْءُ أَنْ يُلْقَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا يَشَاءُ⁽¹⁾
ويقول عنترة في القضاء والقدر⁽²⁾ :

إِذَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ أَمْرًا يُقَدَّرُ فَكَيْفَ يَعْزُ الْمَرْءُ مِنْهُ وَيَحْذَرُ
وَمَنْ ذَا يَرُدُّ الْمَوْتَ أَوْ يَدْفَعُ الْقَضَا
ويقول أيضاً :

أَدْفَعُ الْحَادِثَاتِ فَيْكِ ، وَلَا أَطِيقُ دَفْعَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ⁽³⁾
ويقول أيضاً :

فَالْمَوْتُ لَا يَنْجِيكَ مِنْ آفَاتِهِ حَصْنٌ وَلَوْ شِيدَتْهُ بِالْجَنْدَلِ⁽⁴⁾
ويقول :

يَخْوَضُ الشَّيْخُ فِي بَحْرِ الْمَنَايَا وَيَرْجِعُ سَالِمًا وَالْبَحْرُ طَامِرٌ⁽⁵⁾
وَيَأْتِي الْمَوْتُ طِفْلاً فِي مُهَوْدٍ وَيُلْقَى حَتْفَهُ قَبْلَ الْفِطَامِ

(1) الديوان ص 155 صادر تحقيق ناصر الدين الأسد الطبعة (2) بيروت 1967

(2) ديوان عنترة ص 94 مكتبة كرم / دمشق /

(3) نفس المصدر ص 101

(4) نفس المصدر ص 139

(5) نفس المصدر ص 160

ويقول النابغة الذبياني بهذا المعنى :

وما رأيْتُك إلا نظرة عرضت يوم النِّمارة والمأمور مأموراً⁽¹⁾

ويقول ثعلبة بن عمرو العبدي :

عتادُ امرءٍ في الحرب لا واهنِ القوي ولا هو عما يقدرُ اللهُ صارفاً⁽²⁾

والنابغة الذبياني في قصيدته « بانت سعاد » يظهر ما يؤمن به وهو الابتعاد عن اللهو بالنساء لأن الدين⁽³⁾ يأمره بذلك وبابتعاده هذا يريد تقوى الله وبره . يقول :

حياتك وبِّي فأنا لا يحلُّ لنا هو النساء ، وإن الدين قد عرّما
مشمّرين على خوصٍ مُزَمَّة نرجوا الإله ، ونرجوا البرَّ والطعماً⁽⁴⁾

ويذكرنا شعر عبّيد بن الأبرص : بقول الانجيل « قريبك من صنع معك الرحمة » يقول :

قد يوصل النازحُ النَّاسِي وقد يُقطعُ ذو السُّهُمَةِ القريبُ⁽⁵⁾

أما الموت الذي لا مفرّ منه فقد قال فيه الممزّق العبدي :

هل للفتى من بناتِ الدهرِ من واقٍ أم هل له من حِمامِ الموتِ من راقٍ⁽⁶⁾

(1) ديوان النابغة الذبياني المؤسسة العربية للطباعة والنشر / بيروت / ص 71

(2) مفضليات قصيدة 74 ص 282

(3) ربما عني بالدين « الحج » .

(4) الديوان ص 101

(5) ديوان عبّيد بن الأبرص دار بيروت للطباعة والنشر 1979 ص 26

(6) المفضليات قصيدة 80 ص 300

فماذا كانت العادات عند عرب الجاهلية في الموت والدفن وتقاليدهم في اللبس وزيارة الأضرحة ؟ وهل أخذوا بعضها عن أهل الكتاب وخاصة النصارى ؟

جرت العادة بين اليهود القدماء أن يغمض الأقارب عيني الميت (1) ، وهي عادة استمرت حتى يومنا هذا وعند أكثر أمم الأرض . كما عرفت المسيحية الأولى البكاء والنحيب على الموتى ولأيام طوال تستمر بعد الدفن (2) . واعتادوا غسل الجثة (3) ولفها بأكفان من كتان وربط الرأس بمنديل (4) . فماذا كانت عادة الجاهليين في ذلك ؟ وهل تأثروا بعض الشيء باليهود النصارى ؟ من المرجح أن يكونوا قد تأثروا فالنوائح قرب الميت يلبس ثياب الحداد يقول عنتره في ذلك :

وقد كنت أخشى أن أموت ولم تقم قرائب عمرو وسطنوح مُسَلَّب (5)
ويقول أيضاً :

تركنا ضرادا بين عان مكبل وبين قتيل غاب عنه النوائح (6)
وعن القبر والكفن يقول أوس بن حجر :
ولا محالة من قبر بمحنة وكفن كسرة الشور وضاح (7)

(1) الكتاب المقدس . سفر التكوين (4: 46)

(2) نفس المصدر . يوحنا 11: 19 و 31، 33

(3) نفس المصدر . (1) عبرانيين 37: 9

(4) نفس المصدر . يوحنا 20: 7

(5) الديوان ص 44

(6) ديوان عنتره بن شداد . ص 64 مكتبة كرم / دمشق /

(7) ديوان أوس بن حجر . تحقيق محمد يوسف نجم . دار صادر بيروت ص 14 وروى هذا البيت لعبيد بن الأبرص .

ويقول أيضاً في رثاء فضالة بن كعدة :

لا زال مسكاً وريحاناً له أرجُ على صداك بصافي اللون سلسالٍ
يسقي صداك ومُسهاه ومُصْبِحه رِفْهاً ورُمُسُك محفوفٌ بأظلال (1)

ويقول أيضاً في رثاء فضالة مشيراً الى عادة حمل قضب الريحان الى القبور :

لا زال ريماناً وفغواً ناضراً يجري عليك بمُسْبِل هطال (2)
ويشير الحرث بن ظالم الى لباس الحزن وأكثر ما سُمي في الجاهلية بـ « السلاب » . يقول :

على عمسد كسوئُهما قُبوحاً كما أكَسو نساءهما السَّلابا (3)
كما يشير الأعشى إلى ذلك :

كَأَن تَخِيلَ الشَّطْطُ غَيْبَ حَرِيقِهِ مَا تَمُّ سَوْدُ سَلْبَتٍ عِنْدَ مَأْتَمٍ (4)

لقد عرف عرب الجاهلية عادة غسل الموتى ولعلهم عرفوها وأخذوها عن أهل الكتاب . وقد أشار إلى ذلك الأفوه الأودي :

ألا عَنَلَانِي وَاَعْلِمَا أَنْتَنِي غَرَرُ فَمَا قُلْتُ يُنْجِينِي الشَّقَاقُ وَلَا الْحَذَرُ
وَجَاءُوا بِمَاءٍ بَارِدٍ يَغْسِلُونَنِي فَيَالِكَ مَنْ غَسَلَ سَيْتَبْعُهُ كَبَرُ (5)

(1) نفس المصدر ص 106

(2) نفس المصدر ص 108

(3) المفضليات قصيدة 89 ص 314

(4) ديوان الأعشى . المؤسسة العربية / بيروت / ص 184

(5) الملل والنحل . مؤسسة الحلبي وشركاه / القاهرة / 1968 الجزء (3) ص 94

وقال محمد بن السائب الكلبي : « كان العرب في جاهليتهم يكفنون موتاهم ، ويصلون عليهم ثم يدفنون ، بعد أن يُقال : عليكم رحمة الله وبركاته » (1) .

كما عرف عرب الجاهلية البعث والنشور ، إذ يجمع البشر في يوم الحساب . الموتى يقومون بعد أن يُصاح بهم . يقول عامر بن الظرب العدواني في وصية طويلة له : « إني أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حياً » (2) .

ويقول زيد بن عمرو بن نفيل :

فلن تكون لنفس منك واقية يوم الحساب إذا ما يجمع البشر (3)

أما قس بن ساعدة الأيادي فينشد بمعنى الإعادة :

يا باكي الموت والأموات في جدث	عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوماً يصاح بهم	كما ينبئ من نوماته الصعق
حتى يحيثوا بحال غير حالهم	خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم	منها الجديد ومنها الأزرق الخلق (4)

وقد كان للنصرانية أثر آخر في نصارى عرب الجاهلية . ألا وهو الزواج ومحاربة الرقيق ، فقد كانت الكنيسة تحارب الرقيق ، ومن وطىء أمة غير زوجته فهو زان (5) وقد ذكر ذلك ، أوس بن حجر التميمي يعير قوماً من بني

(1) الملل والنحل 3 / 94

(2) نفس المصدر 3 / 87

(3) نفس المصدر 3 / 86

(4) نفس المصدر 3 / 86

(5) آدم مائز الحضارة الإسلامية ص 295

قيس بن ثعلبة وقد تناوبوا على امرأة أبيهم ثلاثة ؛ واحداً بعد الآخر . يقول :
والفارسيّة فيكم غيرٌ مُثْكَرةٌ وكلُّكم لأبيه ضيزنٌ سلفاً⁽¹⁾

وأخيراً وليس آخرأ فقد أثّرت النصرانية في عرب الجاهلية من ناحية
الفن ، إذ أدخلت إليهم فناً جديداً في البناء ، هو بناء الكنائس والأديرة
والمذابح والمحاريب والزخرفة ، كما أدخلت النحت والتصوير⁽²⁾ .

(1) الملل والنحل 3 / 90

(2) جواد علي 6 / 690

الباب الثالث :

الوثنيون عبدة الأصنام والأوثان

الفصل الأول

تعريف : صنم - وثن - نصب

1 - صنم :

قال ابن سيدة في تعريف الصنم : هو ما يُنحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس ، والجمع أصنام⁽¹⁾ . وقيل عن الصنم : هو ما كان له جسم أو صورة ، وما لم يكن له كذلك فهو وثن⁽²⁾ . وقد روى ابن عباس عن ابن الأعرابي : الصُّنْمَةُ والنَّصْمَةُ الصورة التي تُعبد⁽³⁾ . وقال ابن عرفة : ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن⁽⁴⁾ . وروى عن الحسن أنه قال : لم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه⁽⁵⁾ .

وكلمة صنم لا ترد في القرآن الكريم إلا على صيغة الجمع ، وفي خمس آيات فقط⁽⁶⁾ . مما يدل على أن عبادة الأصنام كانت مستشرية في ما قبل الإسلام وقد عزاها القرآن الى قوم موسى ، وفي الحديث عن ابراهيم وأبيه وقومه :

وقد عرفه ابن الكلبي : ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان ، فهو صنم ؛ وإذا كان من حجارة ، فهو وثن⁽⁷⁾ .

(1) لسان العرب 12 / 349 مادة (صنم) دار صادر .

(2) نفس المصدر

(3) نفس المصدر

(4) نفس المصدر

(5) نفس المصدر

(6) القرآن الكريم . الأعراف : 138 ابراهيم : 35 . الأنعام : 74 . الشعراء : 71 . الأنبياء : 57

(7) هشام بن محمد الكلبي : تحقيق أحمد زكي الأصنام / الدار القومية / القاهرة / 1965 . ص 53

والكلمة ، كما وردت في المعاجم العربية ، يقال إنها معربة عن « شَمَن »⁽¹⁾ على أن بعض علماء اللغة من الأوروبيين يرجع كلمة « شَمَن » التي عُرِّبت عنها كلمة صنم العربية إلى (SELEM) بمعنى صورة في العبرية و S-L-M اسم اله ورد ذكره في نقوش آرامية بتياء⁽²⁾ .

وقد جاء في المؤلفات الإسلامية أن أول من نصب الأصنام في مكة هو عمرو بن لحي الذي قدم بصنم يقال له : هبل من هيت من أرض الجزيرة ، فنصبه على بئر في بطن الكعبة وأمر الناس بعبادته⁽³⁾ وجاء في كتاب الأصنام أن أول من نصبه هو خزيمة بن مدركة بن مضر⁽⁴⁾ .

وعمر بن لحي المذكور هو الذي أمر الناس بعبادة الصنمين « أساف ونائلة »⁽⁵⁾ وتسربت عبادة الأصنام إلى العرب الجاهليين وتزايدت ، فرفعت الأصنام وخاصة حول الكعبة . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : « دخل رسول الله ﷺ مكة في يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فطاف على راحلته وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » وأشار إليها فوقع جميعها »⁽⁶⁾ وقال ابن اسحق : أمر الرسول بالأصنام فجمعت وكسرت وحرقت بالنار . وفي ذلك يقول فضالة ابن عمير في ذكر يوم الفتح :

-
- (1) لسان العرب 12 / 349
(2) محمود سليم الحوت - الميتولوجيا عند العرب - دار النهار للنشر / بيروت / ص 37 عن Enc. of Islam
4- 147
(3) الأزرقي - أخبار مكة . دار الأندلس الجزء 1 ص 117
(4) الأصنام ص 28
(5) أخبار مكة 1 / 120
(6) نفس المصدر 1 / 121

أو ما رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تكسرُ الأصنام
لرأيت نور الله أصبح بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام⁽¹⁾

2- وثن :

يقول ابن الكلبي . فإذا كانت تماثيل دَعَوُها الأصنام والأوثان⁽²⁾ .

وهكذا نرى أن كثيراً ما خلطوا بين تعريف الوثن والصنم . ولقد قيل
الوثن هو الصنم الصغير . كما قيل سمي وثناً لانتصابه وثباته على حالة
واحدة ، من وثن بالمكان ، أقام به فهو وثن⁽³⁾ . وقد قال ابن عرفة : ما
اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن⁽⁴⁾ . وقيل الفرق بين الوثن والصنم
أن الوثن كل ما له جثة من خشب أو حجر أو فضة يُنحت ويُعبد ، والصنم
الصورة بلا جثة⁽⁵⁾ . وقيل إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب أو من فضة
صورة إنسان ، فهو صنم ، وإذا كان من حجارة ، فهو وثن⁽⁶⁾ .

وقد ذكر القرآن الكريم الأوثان على صيغة الجمع كما ذكر الأصنام
﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾ وقال ﴿ إنما
اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾⁽⁷⁾ . وعلى ما يبدو فإن
معناها في هذه الآيات هو المعنى نفسه في كلمة الأصنام في الآيات الأخرى .

(1) نفس المصدر

(2) الأصنام ص 33

(3) تاج العروس للزبيدي مادة (وثن)

(4) لسان العرب 12 / 349 صادر

(5) نفس المصدر .

(6) الأصنام ص 53

(7) القرآن الكريم . الحج : 30 العنكبوت 17، 25.

وقد ذكر الأوثان الأعشى بقوله :

وإذا النُصب المنصوب لا تنسكته ، ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا (1)

وقد جمع الأعشى في بيته هذا النُصب والأوثان ، فما هي النصب ؟

3 - النُصب :

والنُصب : كل ما عُبِد من دون الله ، والجمع أنصاب (2) . وهكذا عرفه الجوهري أيضاً . وقال الفراء : كأن النُصب الألهة التي كانت تُعبد من أحجار (3) . وقال ابن سيده : الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة ، تُنصبُ فيُهلُّ عليها ، ويُذبح لغير الله (4) . ويقول ابن الكلبي : إن من لم يتخذ صنماً ولا يقدر على بناء بيت ، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره ، ثم طاف به وسمّوها الأنصاب (5) ، ويقول أيضاً وكانوا يذبحون الغنم عند أصنامهم وأنصابهم ، ويسمون الذبائح العتائر والمذبح العِتر وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى :

فزَلَّ عنها وأوفى رأس مرقبة كمنصب العتر دقسي رأسه الشسك (6)

ولعلَّ تعريفه ابن الكلبي هو أوضح ما ذكره الأقدمون عن الأنصاب والأصنام والأوثان يقول : وكانت للعرب حجارةٌ غُبرٌ منصوبة ، يطوفون بها ويعتِرون عندها (7) .

(1) ديوان الأعشى ص 46

(2) لسان العرب 1 / 759 مادة (نصب) صادر

(3) نفس المصدر

(4) نفس المصدر

(5) الأصنام ص 33

(6) الأصنام ص 34

(7) الأصنام ص 42

وقد أقسم الجاهلي بالأنصاب كقول عمرو بن جابر الحارثي :
حَلَفْتُ غَطِيفًا لَا تُنْهِنُهُ سَرِيهَا وَحَلَفْتُ بِالْأَنْصَابِ أَنْ لَا يُرْعِدُوا (1)

كما يحلف بها أحد بني ضَمْرَةَ فيقول :

وَحَلَفْتُ بِالْأَنْصَابِ وَالسُّتْرِ (2)

ويذكر المثقّب العبدى قضية الطواف حول النصب فيقول :
يُطِيفُ بِنُصْبِهِمْ حُجْنٌ صَغَارُ فَقَدْ كَادَتْ حَوَاجِبُهُمْ تَشِيْبُ (3)

وقد ذكر القرآن الكريم الأنصاب والنصب في ثلاثة آيات (4) بقوله :
﴿وَمَا ذَبَحْ عَلَى النَّصْبِ﴾ و «كأنهم الى نصب يوفضون» و «انما الخمر والميسرُ
والأنصاب والأزلام رجسٌ» .

والأعشى يذكر هذه الأنصاب بشعره ويصف العبيد المحبوسين عندها
إما لإداء الفرائض الدينية أو للصلاة وبني سعد حول هذه الأنصاب يقول :
وَرَدَّتْ عَلَى سَعْدِ بْنِ قَيْسٍ سِرٌّ نَاقَتِي ، وَلَمَّا بِهَا
فَإِذَا عَبِيدٌ عَكُفًا ، مُسَكُّ عَلَى أَنْصَابِهَا
وَجِيعٌ لَعَلَّةٌ بَيْنَ سَعْدٍ سَدٍّ ، بَعْدُ ، حَوْلَ قَبَائِهَا
وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ عَفَسَ سَدًّا حَسُّهَا وَارَى بِهَا (5)

(1) نفس المصدر

(2) نفس المصدر

(3) نفس المصدر

(4) القرآن الكريم : المائدة : 3 المعارج : 43 ، المائدة : 90

(5) ديوان الأعشى ص 19

الفصل الثاني

: أصنام العرب وأوثانهم وأنصابهم

لا شك في كثرة أصنام العرب وأوثانهم وأنصابهم ، التي انتشرت بينهم في عصور الجاهلية ، غير أنه من الصعب جداً على الباحث حصر عدد آلهتهم ومقدار اهتمامهم بها . فابن الكلبي يقول : لما تكاثر أولاد اسماعيل وملأوا مكة وضائق بهم أرضها ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، أخرج بعضهم بعضاً فففسحوا في البلاد والتاس المعاش ، والسبب الذي ساقهم الى عبادة الأوثان والحجارة ، أنه كلما ظعن من مكة ظاعن احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً « للبيت » وصباية بمكة ، وحيثما حلّوا وضعوه وطاقوا به تيمناً بالكعبة (1) . ثم تباعد بهم الزمن فعبدوا ما استحبوا من الأوثان ، ونسوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل وإبراهيم (2) .

ويقول ابن هشام : أن عمرو وأبن لحي استقدم هبل من مآب من أرض البلقاء الى مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه (3) .

وقد قال ابن الكلبي عنه : أنه أول من غير دين اسماعيل ، فنصب الأوثان وسبب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة وحي الحامية (4) ،

(1) الأصنام ص 6

(2) نفس المصدر . والسيرة النبوية أيضاً (1، 2) ص 77 وأخبار مكة 1 / 116

(3) السيرة النبوية (1، 2) ص 77

(4) الأصنام ص 8

وسأل أهل البلقاء ، وكانوا يعبدون الأصنام ، أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة (1) .

ويقول المسعودي : لما وليت خزاعة أمر البيت ، وتولاهم عمرو بن لحي ، غير دين إبراهيم ، وبعث العرب على عبادة التماثيل ، التي قدم بها من الشام ، وفي ذلك يقول رجل من جرهم :

يا عمرو لا تظلم بمكة إنها بلد حرام (2) .

ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة ، وأجبر العرب على عبادتها ، قال شحنة بن خلف الجرهمي :

يا عمرو ، إنك قد أحدثت ألهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رباً واحداً أبداً فقد جعلت له في الناس أرباباً (3)

وما يهمننا نحن من روايات ابن الكلبي وابن هشام والمسعودي وغيرهم من أصحاب الروايات ، ليس اثبات وقت محدد لدخول عبادة الأوثان الى عرب الجاهلية ، بل التأكد من أن بعض عرب الجاهلية كانوا قد ألخوا الأصنام والأوثان والأنصاب وعبدوها من دون الله وكما اننا لا ندخل في جدل غير مثبت عن الشخصية التي أدخلت مثل هذه العبادة الى جزيرة العرب لعلمنا أن العرب القدامى ، وقبل كل شيء ، كانوا على اتصال دائم بمن حولهم ، من شعوب العالم القديم ، وكان لهذا الاتصال سبل عديدة نذكر منها : التجارة ، وهجرة القبائل وإقامتها في أرض متاخمة للفرس والرومان ، والبعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو الى

(1) نفس المصدر

(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر - المسعودي - دار الأندلس / بيروت / 1965 ج م ص 29

(3) نفس المصدر ص 30

دينها ونشر تعاليمها⁽¹⁾ . . .

والعرب طبقاً لقانون التضخم السكاني ، وهروباً من الغزو ، والغزو المعاكس ، وحباً في البحث عن الماء والمرعى لمواشيهم ظعنوا من أماكنهم وانفسحوا في البلاد⁽²⁾ ، ولما كانوا يعظمون مكة والكعبة ، فرجما يكونون قد حملوا معهم في ترحالهم ، كما ذكر الكلبي ، أثراً من آثار الحرم ، فكرموا وأحبوه باديء ذي بدء ، ثم تعبدوا له وألوهوه عند تقادم الزمن وفي ابتعادهم عن « البيت العتيق » . وبما أنهم في ترحالهم هذا واقامتهم في موطن جديد قد اختلطوا بأقوام أخرى ربما غايرتهم في عقيدتهم ، فتأثروا بها بمرور الأزمان فأخذ بعضهم عن بعضها عبادة بعض الأوثان⁽³⁾ .

ورجما قامت عبادة الأوثان في الجزيرة العربية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة ، كالأرض وما عليها من انسان وحيوان ونبات ، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب ، ولعلهم اعتقدوا أن حياتهم تقع تحت تأثير هذه الظواهر ، فحرصوا على إرضائها اجتلاباً لخيرها واتخذوا لها أشكالاً مختلفة من بيوت وأشجار واحجار ، وقدسوها وعبدوها وطافوا حولها ، وتاجروا عندها ، واتبروا امكتتها حرماً .

وكان للعرب أصنام كبرى عامة « كاللات والعزى ومناة » يقر بربوبيتها أكثر عبدة الأصنام من العرب ، وأصنام أخرى لكل قبيلة وثنية ، ولم يكتفوا بها ، بل كان لأكثرهم صنم أو نصب صغير في بيته يطوف به حين خروجه

(1) الأغاني 20 / 23 في « خبر لفيط ونسبه » وقصة ارنحال اياد عندما أجذبت أرضهم ونزلهم بسنداد

(2) ونواحيها وعبادتهم للصنم « ذو الكعبين » .

(3) انظر الباب الأول من البحث .

ويأخذه معه عند سفره^(١) .

ولعلَّ العرب اعتبروا الوثنية ديانة تقليدية وراثية ، فقالوا عنها انها ديانة الآباء والأجداد ، وهذا ما يفسره لنا لقاء أشراف قريش وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب بأبي طالب ، عم الرسول وحاميه ، وقولهم له « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وظلَّل آباءنا ، فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه »^(٢) . وكذلك قول القرآن الكريم في ذكر ابراهيم : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ، ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾^(٣) .

ولما كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة وهي محج العرب يقصدونها من كل حذب وصوب ، نصبت قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة ، ليرى الحاج معبوده عندما يحج فيتبرك ويرضى ويقدم القرابين^(٤) . وهكذا نرى أن الأصنام تكاثرت بمكة زمن الجاهلية وتعبد لها العرب وذبحوا الهدايا ولطخوا هذه الأصنام بدمائها ، يلتمسون بذلك التبرك والزيادة في أموالهم^(٥) ولم تُرضِ هذه العبادات بعضهم فنرى زيدا بن نفيل وقد حزَّت بنفسه عبادة مادون الله ينبري ليقول :

أربسا واحدا أم ألف رباً أدين إذا تقسَّمت الأمور
تركتُ اللات والعُزَّى جميعا كذلك يفعل الرجل البصيرُ
فلا العُزَّى أدين ولا ابتيتها ولا صنمسي بنسي غنم أزور^(٦)

(١) محمد حنين هبكل - حياة محمد . الطبعة (١٣) مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ ص ٨٤

(٢) نفس المصدر . ص ١٤٥

(٣) سورة الأنبياء آية ٥٢، ٥٣

(٤) الخربوطلي - تاريخ الكعبة - دار الجليل / بيروت / ١٩٧٦ . ص ٣٦

(٥) الملل والنحل ٣ / ٩٣

(٦) نفس المصدر . والأغاني ٣ / ١٥ دار الفكر عن طبعة بولاق .

وينبري أيضاً القلمس بن أمية الكناني يخطب للعرب بفناء مكة :
« أطيعوني ترشدوا . قالوا : وما ذاك ؟ قال : إنكم قد تفرقتم بآلهة شتى ،
وإنني لأعلم ما الله راضٍ بها ، وإن الله رب هذه الآلهة ، وإنه ليحب أن يعبد
وحده » (١) .

(١) نفس المصدر .

الفصل الثالث

أشهر الآلهة عند العرب

قلنا فيما سبق أن آلهة العرب كثيرة ، ولكن أشهرها أربعة هي : مناة ،
واللات والعزى ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم معاً⁽¹⁾ . ومن ثم هبل .
مناة :

أقدم أصنام العرب ، نصب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد
بين المدينة ومكة . كانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما
حولها ، وكل العرب ، يعظمونه ويذبحون ويهدون له⁽²⁾ .

وفي مناة هذه قال الكميت بن زيد بن مذكره :
وقد آلت قبائل لا ثولي مناة ظهورها متحرفينا⁽³⁾
ويقول فيها أيضاً عبد العزى بن وداعة المزني :
إنني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محسل آل الخزرج⁽⁴⁾

وهكذا نراهم وقد حلفوا بها ، كما تسموا بـ « عبد مناة » و « زيد
مناة »⁽⁵⁾ وبقي هذا الصنم معظماً عند العرب الجاهليين حتى عام ثمانية للهجرة

(1) سورة النجم آية 20 أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .

(2) الأصنام ص 13 والسيرة النبوية (1-2) ص 85 .

(3) السيرة النبوية (1-2) ص 85

(4) الأصنام ص 14

(5) نفس المصدر ص 13

حين بعث الرسول علياً بن أبي طالب فهدمه ، وأخذ ما كان له ، وكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني أهداهما (له) . وقد ذكر هذين السيفين علقمة بن عبدة في شعره :

مظاهرُ سرياني حديد عليها عقيلا سيوف نَجْدُمُ ورسوبُ

وقد وهب الرسول السيفين الى علي⁽¹⁾ .

اللات :

إلهة عربية أخرى ، غاص الباحثون في معناها ورموزها وصفاتها . وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم⁽²⁾ مما يشير إلى أن عبادتها بقيت حتى ظهور الاسلام إذ عظمتها قريش وجميع العرب⁽³⁾ . ومعنى اللات : الالهة ، وقيل انها اسم للشمس⁽⁴⁾ ، وهي من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً . وقد ورد اسمها في نصوص صلخد وتدمر (ه ل ت) ومعناها اللات⁽⁵⁾ ، والمعروف أن اللات قد عبدت بشكل صخرة مربعة بالطائف ، وتسمى العرب بـ « زيد اللات » ، و « تيم اللات » وأقسموا بها أيضاً : يقول المتلمس :

أطردتني حذر الهجاء ولا والسات والأنصاب لا تئيل⁽⁶⁾

ويحلف بها أوس بن حجر ولكنه يقر بتفوق الله عليها ، فيقول :

(1) نفس المصدر ص 15 ومعجم البلدان 5 / 205 والسيرة النبوية 1-2 / 86 .

(2) سورة النجم آية 20

(3) الأصنام ص 16

(4) الحوت عن ص 18 ج 3 Enc. of Islam

(5) جواد علي 6 / 232 عن 661 p. 1 Enc. Relig.

(6) الأصنام ص 16

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ، إن الله منهن أكبر⁽¹⁾

وبقيت اللات تعظم حتى أسلمت ثقيف ، فبعث الرسول المغيرة بن شعبة فهدمها وحرّقها بالنار⁽²⁾ ، ولكن ثقيفاً فيما يبدو ظلت على ولائها لـ « اللات » وذلك بعد هدمها ، فنهاهم شداد بن عارض الجشمي بقوله :
لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر
إن التى حرّقت بالنار فاشتعلت ولم تقاتل لدى أحجارها ، هذرو⁽³⁾

لقد كان العرب يعلقون القلائد والسيوف على تلك الأصنام ، وهذه عادة بقيت سائدة حتى يومنا هذا ، إذ نرى أهل الديانات يتقربون من الأولياء ومزاراتهم بتعليق قطع من المعادن الثمينة فيها . يقول كعب بن مالك الأنصاري مشيراً إلى ذلك :

وننسى اللات والعزى ووداً ونسبها القلائد والسيوف⁽⁴⁾

العزى :

والعزى آلهة انثى فيما يبدو من كلام الرواة عنها⁽⁵⁾ ، وما جاء في القرآن الكريم عنها وعن اللات ومناة⁽⁶⁾ . ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتوهن ، أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ .

(1) بنفس المصدر ص 17 ومعجم البلدان 5 / 54 .

(2) نفس المصدر

(3) نفس المصدر

(4) جواد علي 6 / 234

(5) الأصنام ص 17 وما بعدها

(6) سورة النجم آية 20-23 .

وأما الذي اتخذ العزى ، على رواية ابن الكلبي ، فهو ظالم بن أسعد⁽¹⁾
وأما موضعها فكان « بواد من نخلة الشامية ، يقال له حراض بازاء الغمير عن
يمين المصعد إلى العراق من مكة ، فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال
فبنى عليها بُسّاً (يريد بيتاً) ، وكانوا يسمعون فيه الصوت »⁽²⁾ .

وقد كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، تُعبد بثلاث شجرات
سمرات بوادي نخلة ، حيث يشتي الرب لحر تهامة بعد أن يكون قد إصطاف
في اللات لبرد الطائف⁽³⁾ .

وكانوا يزورونها ويهذّون لها ، ويتقربون عندها بالذبح . وقد روى
ابن الكلبي عن الرسول (ﷺ) أنه ذكرها يوماً بقوله : « لقد أهديت للعزى
شاة عفراء ، وأنا على دين قومي »⁽⁴⁾ . وقد تسمى العرب وقريش بالعزى ،
فقالوا :

عبد العزى⁽⁵⁾ ، وقد أقسموا بها : يقول درهم بن زيد الأوسي :
إنسي ورب العزى السعيدة والله الذي دون بيته سرف⁽⁶⁾ ،

لقد كانت عبادة العزى شائعة بين عرب الجنوب أيضاً . فقد جاء في
نص عربي جنوبي اسم امرأة (أمت عزى) ، (أمة العزى)⁽⁷⁾ ، كما عظمها

(1) الأصنام ص 18 .

(2) الأصنام ص 18 ومعجم البلدان 4 / 116 ص 116

(3) أخبار مكة ص 126

(4) الأصنام ص 19

(5) نفس المصدر ومعجم البلدان 4 / 116 ص 116

(6) نفس المصدر

(7) جواد علي 6 / 238 عن Dr. G. Schubert 94

ملوك الحيرة من آل لحم ونحروا الأسرى قرباناً لها^(١) .

وكانت قريش قد حمت لها شيعاً من وادي جِراض ، يضاهون به حرم الكعبة ، وكان لها مِنحَر ينحرون فيه هداياها ، يُسمى الغَبْغَب . وقد ذكر الغَبْغَب أبو خراش الهذلي ، وهو يهجو رجلاً تزوج امرأة جميلة اسمها اسماء : لقد أنكحت اسماءً لحسي بَقيرة من الأدم أهداها امرؤ من بني غنم رأى قدعاً في عينها إذ يسوقها إلى غبغب العزري ، فوضَّع في القسي^(٢) .

ويقول نهيكة الفزاري لعامر بن الطفيل وهو يذكر الغبغب أيضاً :
يا عامر ! لو قدرت عليك رماحنا والراقصات إلى منسى فالغبغب^(٣)
ويقول ياقوت عن أبي المنذر : وكان للعزى منحراً يسمى الغبغب^(٤) .
ويذكر هذا الغبغب قيس بن منقلد الخزاعي :

تليثنا بيت الله أوّل حلفة وإلا فأنصاب يسرن بغبغب^(٥)
ويشاء التاريخ أن يأمر الرسولُ خالد بن الوليد ، فيمسح معالم العزى فتخرج له حبشية نافثة شعرها واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها ، وخلفها دبية السلمي سادتها يصرخ في العزى ليثيرها على خالد :
اعزّاء شدّي شدة لا تكذّبي على خالد ! ألقى الخمار وشمري
فإنك إلا تقتلي اليوم خالداً تبوئي بذل عاجلاً وتنصري^(٦)

(1) نفس المصدر عن 166 / 2 Malalas

(2) الأصنام ص 20

(3) نفس المصدر ص 21

(4) معجم البلدان : 4 / 185

(5) الأصنام ص 21

(6) نفس المصدر ص 26 ومعجم البلدان 4 / 117 وأخبار مكة 1 / 127 للأزرقي .

فيقول خالد :

يا عَزُّ كَفَرَانِكَ لَا سَبْحَانَكَ ! إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ (1)

ثم يضربها فيقلن رأسها ويقتل سادنها ، وما دام لها سادن فمن المرجح عندي أن يكون لها بيت يقيم به السادن ، وربما كانت العزى صنماً وليست سُمَرَات ثلاث كما نستدل من هذا البيت الشعري الذي رواه الأصمعي ولم يسم لنا قائله :

أما ودماء مائسرات تخالها ، على قنّة العزى وبالنسب ، عندما (2)

فمعظموها قد لطحوا قنّتها ، أي أعلاها ، بدم الأضاحي ، وهل يعقل أن يلطح الإنسان رأس سَمرة وكيف يصلها ؟ ولما استأصلها خالد بن الوليد أتى الرسول فأنخبره . فقال الرسول : « تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب ! أما إنها لن تُعبّد بعد اليوم » (3)

هبل :

يقول ابن الكلبي : « كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها عندهم هبل » ويتابع ابن الكلبي الكلام عن هبل فيصفه لنا ، بأنه مصنوع من عقيق أحمر ، ويتخذ صورة إنسان ، وكانت يده اليمنى مكسورة ، وأدركته قريش بدون يد ، فجعلوا له يداً من ذهب (4) .

(1) نفس المصادر

(2) لسان العرب 13 / 349 مادة (عزى) . مصدر

(3) الأصنام ص 26 . أخبار مكة 1 / 128

(4) الأصنام ص 28

أما ابن اسحق فيقول : « كانت قريش قد اتخذت صنماً على بشر في جوف الكعبة يقال له هبل » (1) ويروي ابن هشام عن بعض أهل العلم قصة جلب هبل من مآب من أرض البلقاء ، الى مكة ، على يد عمرو بن لحي ، وتنصيبه فيها وأمر الناس بعبادته وتعظيمه (2) .

وهبل هذا هو الذي كان يناديه أبو سفيان بن حرب في معركة أحد سنة 3 هـ . بقوله : أعل هبل ! أعل هبل ! فيجيب الرسول : الله أعل وأجل (3) !

وكان العرب في الجاهلية يرمون هبل بالقداح (4) وقد فعل ذلك عبد المطلب بابنه عبد الله حين أراد أن يذبحه (5) ، وقد كان لهبل هذا خزانة للقربان ، وكان قربانه مائة بعير ، وعندما يأتونه بالقربان يضربون القداح ويقولون :

إنا اختلفنا فهب السراحا

ثلاثة يا هبل فصاحا الميت والعذرة والنكاحا
والبرء في المرضى والصحاحا إن لم تقله فمر القداحا (6)

(1) السيرة النبوية (1-2) ص 82

(2) نفس المصدر ص 77

(3) الأصنام ص 28 ومعجم البلدان 5 / 391

(4) نفس المصدر

(5) أخبار مكة 1 / 119

(6) نفس المصدر

الفصل الرابع

آلهة الأماكن : ذو الشرى - ذو الخلصة - ذو الكفين
وذو الرجل - ود

ذو الشرى :

هو صنم لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد⁽¹⁾ وله يقول أحد
القطاريق :

إذن لخلننا حول ما دون ذي الشرى وشجّ العدى منا خميس عرمم⁽²⁾

وقد ورد في خبر لياقوت الحموي أن مكان الشرى هو « موضع عند مكة
في شعر مديح الهذلي » :

ومن دون ذكراها التسي خطرت لنا بشرقي نعمان الشرى فالمرء⁽³⁾

ويستطرد ياقوت فيقول : « والشرى واد من عرفة على ليلة بين كعب
ونعمان⁽⁴⁾ ». وقال نصيب :

وهل مثل ليالات هسن رواجع إلينا وأيئام تحسول طيبها
إذا أهلي وأهل العامرية جيرة بحيث التقى رهسو الشرى وكثيبها⁽⁵⁾

(1) الأصنام ص 38

(2) نفس المصدر

(3) معجم البلدان 3 / 330 صادر

(4) نفس المصدر

(5) نفس المصدر

وفي رواية لابن اسحق ، في اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ، أنه عند عودته طلب من زوجته أن تذهب الى حينا ذي الشرى فتطهر منه (1) .

ويقال أن « ذا الشرى : هو صنم لدؤس ، وكان له حمى حموه له ، وبه وشل من ماء يهبط من جبل (2) » .

وكون ذي الشرى من آلهة الأماكن ، وهو وذو الخلصة من أهم الآلهة التي سميت بأسماء الأماكن ، فمن الصعب على الباحث أن يحدد مكان هذا الإله أو ذاك لأن الرواة والشعراء الذين ذكروها قد ذكروها في عدة أماكن . ولكننا نستطيع أن نعمم أن المواضع التي حملت هذا الاسم كانت مواضع خصبة ، وفي مثل هكذا مواضع من الجزيرة الجلباء لا يستبعد أن تصبح مركز عبادة ، كما أنه لا يستبعد أن يُعبد إله في مكان ما وتنتقل عبادته الى مكان آخر ، إما بعامل التأثير والتأثر وإما بهجرة القبيلة صاحبة الصنم فتحمله معها الى حيث تستقر .

وقد وصف مكسيموس الصوري هذا الصنم ، الذي عبده النبطيون أيضاً ، فقال إن النبطيين اتخذوا صنماً لذي الشرى ، وهو حجر أسود مكعب ا علوه أربعة أقدام وعرضه قدمان (3) .

ذو الخلصة :

يحدثنا عنه الكلبي وياقوت وابن اسحق فيقولون أنه كان ذا مكانة رفيعة تفوق مكانة ذي الشرى ، ولربما كانت هناك منافسة شديدة بينه وبين أرفع

(1) السيرة النبوية (1-2) ص 384 وجنا بمعنى حمى

(2) نفس المصدر

(3) النصرانية وأدائها المسم الأول ص 9

بيت ديني عند عرب الجاهلية ، ألا وهو حرم مكة ، وقد قيل : كان ذو الخلصة
يسمى الكعبة اليمانية ، والبيت الحرام الكعبة الشامية⁽¹⁾ . وقد كان مروة
بيضاء ، عليها كهيئة التاج ، وكانت بتالة ، بين مكة واليمن على مسيرة سبع
ليال من مكة ، عظمت خثعم وبجيلة وازد السراة وأقرباؤهم من هوازن .
يقول أحدهم وقد قُتل أبوه ، فأراد الثأر له ، فأتى ذا الخلصة واستقسم
عنده بالقداح فخرج النهي :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا⁽²⁾

وقد ذكر هذا المعبود خدّاش بن زهير العامري لرجل كان بينهما عهد
فغدر به :

وذكرته بالله بيني وبينه وما بيننا من ودة لو تذكرنا
وبالمروة البيضاء يوم تبالة وعبسة النعمان حيث تنصرا⁽³⁾

وبقي هذا الصنم قائماً حتى هدمه وأحرقه وقتل سدنته جرير بن عبد
الله بأمر من الرسول⁽⁴⁾ . وقد روي حديث عن الرسول ماله أن طائفة من
العرب ترد إلى جاهليتها في عبادة الأوثان فتسعى نساء بني دوس طائفات
حول ذي الخلصة . قال : « لا تذهب الدنيا حتى تصطك أليات نساء دوس
على ذي الخلصة يعبدونه كما كانوا يعبدونه »⁽⁵⁾ .

(1) الأصنام ص 34 وما بعدها ومعجم البلدان 2 / 382 وما بعدها والسيرة النبوية (1-2) ص 86 .

(2) الأصنام ص 35 .

(3) الأصنام ص 35

(4) نفس المصدر ص 36

(5) نفس المصدر ومعجم البلدان 2 / 384 ولسان العرب 7 / 29 صادر

ويُقال أن امرأ القيس مرَّ بذي الخلصة وكانت له ثلاثة أقدح : الأمر والناهي والمتربُّص . فاستقسم عنده ثلاثاً فخرج « الناهي » فكسر القداح وضرب بها وجهَ الصنم وقال : لو كان أبوك قتل ما عوّقتني . وغزا بني أسد فظفر بهم (1) .

ذو الكفين ، وذو الرجل

يقول الأخباريون أن ذا الكفين كان لدوس ثم لبني منهب بن دوس (2) حرّقه الطفيل بن عمرو الدوسي وهو يقول :

يا ذا الكَفَيْنِ لست من عبادكا ميلادنا أكبرُ من ميلادكا
إني حشوت النار في فؤادكا (3)

أما « ذو الرجل » فلا يزيد الزبيدي فيه على أن يقول : وهو صنم حجازي (4) .

ود :

وهو صنم لقبيلة كلب بدومة الجندل (5) وروى ياقوت عن ابن حبيب :
ود كان لبني وبرة وكان بدومة الجندل (6) .

ويقال أن عمرواً ابن لحي استقدمه مع ما استقدم من الأصنام من شط

(1) الأصنام ص 47

(2) نفس المصدر ص 37 ومعجم البلدان 4 / 471 صادر . وأخبار مكة 1 / 131 . والسيرة (1-2) ص 385
81

(3) نفس المصدر

(4) تاج العروس 7 / 340 .

(5) الأصنام ص 10

(6) معجم البلدان 5 / 367

جدة وأتى تهامة ودفعه الى عوف بن عذرة بن كلب بن قضاة ، فحمله هذا وأقره بدومة الجندل ، وسمى ابنه عبد ود ، وجعل عامراً ابنه سادناً له ، ولم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الاسلام وقبض عبادته (1) .

ويصف مالك بن حارثة الكلبي « ودأ » فيقول : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد دُبر عليه حُلَّتَان ، مُتَزَر بِحُلَّة ، مُرْتَد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل » (2) .

وفي ود يقول الشاعر (النابغة الذبياني)

حيَّاكِ ودًا ! هَانِئًا لَا يَحْسِلُ لَنَا هُوَ النَّسَاءُ ، وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا (3)

وقد ذكره القرآن الكريم في خبر نوح ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (4) .

وكان الرسول قد أمر خالد بن الوليد بهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عبد ود ، فقاتلهم وهدمه وكسره ، وكان فيمن قتل قَطْنُ بن شَرِيح أحد بني عبد ود ، فأقبلت أمه تقول :

يا جامعاً ، جامعَ الأحشَاءِ والكِبْدِ يا ليت أمك لم تولد ولسم تُلِدِ (5)

(1) الأصنام ص 55 ومعجم البلدان 5 / 368

(2) نفس المصدر ص 56

(3) الأصنام ص 10 وفي الديوان ص 101 حيَّاكِ ربِّي .

(4) سورة نوح آية 23

(5) الأصنام ص 56

الفصل الخامس

آلهة أخرى مختلفة

أساف ونائلة :

إن للإخباريين قصصاً طريفة في هذين المعبودين ، يمكن أن نستنتج منها أنه كانت لجرهم مجسمات مؤهلة سبقت ما أحضره عمرو بن لحي الخزاعي ، من مآب أو من هيت ، من آلهة وما ابتدعه من عقائد .

والروايات تقول : « أن إسافاً هو رجل يقال له إساف بن يعلى ، وأن نائلة هي بنت زيد من جرهم أيضاً⁽¹⁾ ، وقد كان إساف يتعشق نائلة في بلاد اليمن ، وأقبلاً حجاجاً إلى البيت الحرام ، فدخل الكعبة ووجد غفلة من الناس ، وخلوة في البيت ، ففجر بها فمسحاً حجري . . . ثم أخرجاً ليتعظ الناس بهما ، ولما تقادم الزمن عبداً ، وقد كان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، ثم نقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى جوار الآخر ، وكانوا ينحرون عندهما⁽²⁾ . ولما استقسم عبد المطلب بالقداح عند هبل على ولده وخرج القدح على عبد الله أخذه أبوه بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل إلى أساف ونائلة ليذبحه⁽³⁾ . مما يشير إلى أن قريشاً قد عبدتهما ، كما عبدتهما خزاعة ومن حج البيت من العرب⁽⁴⁾ . وعلى ما يبدو فإن قصتهما كانت تتناقل

(1) الأصنام ص 1 . وأخبار مكة 1 / 88 ، 119 ، 120 ، 122 ، 178 وقد ذكر الأزرقى نسباً مختلفاً لها يغير النسب الذي ذكره ابن الكلبي .

(2) الأصنام ص 29

(3) تاريخ الكعبة ص 99

(4) الأصنام ص 9

بين عرب الجاهلية وحتى الاسلام وقد سُمعت عائشة تقول : « ما زلنا نسمع أن أسافاً ونائلة كانا رجلاً وامراًة من جرهم ، أحدثا في الكعبة فمسخها الله حجريين » (1) . ويُفهم من رواية الأزرقى أن أهل الجاهلية كانوا يكسونها كلما بُليت الثياب التي عليها (2) .

يقول أبو طالب حين تحالفت قريش على بني هاشم في أمر (محمد) وهو يحلف بهما :

أحضرتُ عند البيت رهطي ومعشري وأمسكتُ من أثوابه بالوصائل
وحيثُ يُنخُ الأشعرون ركبهم بمفضي السيول من إساف ونائل (3)

ويقول بشر بن أبي خازم يذكر أسافاً :

عليه الطير ما يدنون منه مقامات العوارك من إساف (4)

والخلاصة فإن أسافاً ونائلة هما تمثالان حجريان جرهميان ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة . وكونها رجل وامرأة فلا يُستبعد حبك القصص حولها ، حرمة للبيت ، وموعظة للناس . وما أشبه هذه القصة بقصص نسمعها عن وجود رجل وامرأة صريعين في أحد المزارات أو أمكنة الأولياء . . . مما يفتح مجالاً لخلق روايات تتمخض بالشعور الديني نحو الأولياء وكراماتهم لتبدو الرهبة والاحترام في نفوس العامة .

(1) السيرة النبوية (1-2) ص 83

(2) أخبار مكة ص 178

(3) الأصنام 29 . والسيرة (1-2) ص 83

(4) الأصنام ص 29 ، وأخبار مكة ص 120 ، وديوان بشر بن أبي خازم ملحق ص 233 رقم البيت (11)

غزالا مكة :

لقد جاء في « السيرة » و « أخبار مكة » أن عمرو بن الحارث الجرهومي ، بعد أن نفت خزاعة جرهما عن مكة خرج بغزالي الكعبة ، وكانا من ذهب ، وحفر في ليلة مظلمة هو وولده في موضع زمزم الذي كان قد نصب مأوؤه ؟! ثم دفن الغزالين مع ما دفن⁽¹⁾ إلى أن كان من أمر عبد المطلب وحفره زمزم حيث وجد الغزالين وأعادهما للكعبة بعد الضرب بالقداح عليهما أمام هبل . وكان هذان الغزالان أول حلية ذهب وضعت بالكعبة⁽²⁾ .

اصنام قوم نوح :

إن هذه الأصنام قد ذكرها القرآن الكريم ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني . . . ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تدرن ألهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾⁽³⁾ . فقد كان من هذه الأصنام ما هو على صورة الحيوان ، يقول جرجي زيدان : « وكان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر »⁽⁴⁾ أما الصنم ود فقد تكلمنا عنه سابقا .

سواع :

يقول الكلبي : كان يُعبد برهاط من أرض يَنْبُع في أعراض المدينة وكانت سَدَنَّتُهُ بنو لحيان⁽⁵⁾ . وتفهم من اللسان أنه صنم كان لهمدان ، أولقوم نوح ، ثم صار هُذَيْل وكان برهاط يحجون إليه ، أي أن عبادته تواترت من

(1) أخبار مكة 1 / 92

(2) السيرة النبوية (1-2) ص 146-147

(3) سورة نوح آية 21-23

(4) أنساب العرب . جرجي زيدان ص 39 والحوث . الميثولوجيا عند العرب . دار النهار ص 57

(5) الأصنام ص 10 ومعجم البلدان 3 / 276 صادر

نوح حتى زمن الجاهلية على رأي الأزهرى^(١) . وقد ذكر رجل من العرب
هذيلًا وهي عكف حول صنمها بقوله :

تراهـم حول قـيلهم عـكـوفـا كـم عـكـفـت هـذـيلٌ عـلـى سـواع
تـظـلُ جـنابـه صـرعـسـى لـديـه عـتـانـسـر مـن ذـخـانـر كـلّ راجـ^(٢)

وقد نسب بعض أهل الأخبار أن (غاوي بن ظالم السلمي) كان عند
الصنم إذ أقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنّاه ، فبالا عليا^(٣) ، فقال :
أربُّ يبول الثعلبان برأسه ، لقد ذلّ من باليت عليه الثعلبان^(٤)

وكسره ولحق بالنبى^(٥)

يغوث :

وقد دفعه عمرو بن لحي إلى أنعم بن عمرو المراديّ من مذحج وكان
بأكمة باليمن ، يقال لها مذحج ، وعبدته مذحج ومن والاه^(٦) . ومما يظهر
من روايات أهل الأخبار ، أنه قد حدث نزاع على هذا الصنم بين بني مراد
الذين أرادوا أن يكون الصنم فيهم وسدنته لهم ، وبين بني أنعم الذين هربوا
بصنمهم إلى بني الحارث فأنجدوهم ، وكانت بينهم وقعة الرزم في حوالي سنة
623 أي في السنة التي وقعت فيها معركة بدر^(٧) وكان بني أنعم يحملون صنمهم

(1) لسان العرب 8 / 170 صادر

(2) الأصنام ص 57 ومعجم البلدان 3 / 276 صادر .

(3) جواد علي 6 / 259

(4) لسان العرب 1 / 237 صادر وقد قيل أن الشعر لأبي ذر الغفاري أو لعباس بن مرداس السلمي

(5) جواد علي 6 / 259

(6) الأصنام ص 57 ومعجم البلدان 5 / 439

(7) معجم البلدان 5 / 439

معهم في المعارك . وفي ذلك يقول الشاعر :

وسار بنا يغسوٲ إلى مراد ففناجزناهم قبل الصُّباح^(١)

وقد ورد ذكر هذا الصنم في القرآن الكريم^(٢) ، على أنه من أصنام قوم

نوح .

يعوق :

ورد ذكره في القرآن الكريم^(٣) . وقد كان هذا الصنم على رأي ابن الكلبي بقرية يقال لها حيوان ، تعبده همدان ومن والها من اليمس^(٤) . وقد نقل ياقوت عن أبي المنذر أن حيوان على بعد ليلتين مما يلي مكة^(٥) .

وقد ذكره الشاعر مالك بن نط الهمداني بقوله :

يريشُ الله في السدنيا ويبري ولا يبري يعوق ولا يريش^(٦)

نسر :

ورد ذكره أيضا في القرآن الكريم ، عند ذكر أصنام قوم نوح . ويقول ابن الكلبي أن حميرا قد اتخذته وعبدته بأرض يقال لها بلخع^(٧) . وقد دفعه عمرو بن لحي الى معبد يكرب من ذي رعين ، وقد عبده حمير ومن والها

(١) الأصنام ص ١٠

(٢) سورة نوح آية ٢٢

(٣) سورة نوح آية ٢٢

(٤) الأصنام ص ٥٧ ، والسيرة النبوية (١- ٢) ص ٧٩

(٥) معجم البلدان ٥ / ٤٣٨ صادر والأصنام ص ١٠

(٦) السيرة النبوية (١- ٢) ص ٨٠

(٧) الأصنام ص ١١ ومعجم البلدان ٥ / ٢٨٤

حتى هودهم ذو نواس⁽¹⁾ .

وقد ذكر هذا الصنم الأخطل في شعره :

أما ودمساء مائسرات تخالها على قنّة العزّي وبالنسر عندما⁽²⁾

وقد جاء في لسان العرب أن « نسر » اسم لصنم . ذكره الشاعر عبد

الحق :

أما ودماء لا تزال كأنها على قنّة العزّي وبالنسر عندما⁽³⁾

اليعبوب :

صنم كان لجديلة طيء ، عبدوه بعد صنمهم الذي أخذه منهم بنو

أسد⁽⁴⁾ . وبذلك يقول عبيد بن الأبرص :

وتبدّلوا اليعبوب بعد إلههم صنّا ، ففِرّوا يا جديل وأعدبوا⁽⁵⁾

عُمَيَّاس :

كان هذا الصنم لخولان ، وموضعه في أرض خولان ، وكانوا يقسمون

له من أنعامهم وحرثهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم ، ودائماً هو الرابع في

(1) نفس المصادر والسيرة النبوية (1-2) ص 80

(2) معجم البلدان 5 / 284

(3) لسان العرب 5 / 206 صادر

(4) الأصنام ص 63

(5) ديوان عبيد بن الأبرص . دار بيروت ص 32

هذه القسمة (1) . ويقول محقق كتاب الأصنام (2) أن في هامش نسخة « الخزائن الزكية » لكتاب الأصنام ، عبارة هذا نصها : « عَمُّ أَنَسٍ » وبعدها هذا الشعر :

« أَضَلَّهِمْ صَنَمُهُمْ عَمُّ أَنَسٍ ! كانوا إذا ما الغيث عنهم احتبس ،
توسَّلُوا إليه بالذبايح أن يُمْطَرُوا . وأعظمُ القبائحِ
أن جعلوا له ولله نصيب من ما لهم . وإن تغيب النصيب ،
أعطي للصنم حظ الله وما له لم يُعط للإله » (3)

وعابدو هذا الصنم بطن من خولان يقال لهم الأديم ، وفيهم قال القرآن الكريم (4) . ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ تَمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (5) . وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر (وفد خولان) الذي قدم على الرسول في شعبان سنة عشر ، إذ قال الرسول لهم : « ما فعل عم أنس » فقالوا : بشر وعمر ، أبدلنا الله به ، ولو قد رجعنا إليه هدمناه (6) . « وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به » (7) .

(1) الأصنام ص 43 والسيرة النبوية (1-2) ص 80

(2) هو أحمد زكي

(3) في هامش ص 43 من كتاب الأصنام .

(4) على حسب قول ابن الكلبي في كتاب الأصنام ص 44 وصاحب السيرة (1-2) ص 80

(5) سورة الأنعام آية 136

(6) جواد علي 6 / 265 عن نهاية الأرب (18 / 82)

(7) نفس المصدر عن عيون الأثر (2 / 253)

رضى :

صنم آخر ، وكان فيما ذكر الرواة بيتاً لبني ربيعة من تميم ، وقد كسره المستوغر في الاسلام وهو يقول :

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلاً ثنازع أسحما⁽¹⁾

ما يظهر من هذا الشعر أن الصنم رضى (رضاء) هو آلهة انثى بدليل ضمير التأنيث ،

مناف :

وهو صنم آخر من أصنام الجاهلية بدليل تسميتهم بعبد مناف وخاصة أبناء قريش . ويقول ابن الكلبي : « ولا أدري أين كان ، ولا من نصبه »⁽²⁾ وفيه يقول بلعاء بن قيس (الشداخ الليثي) :

وقسرن قد تركت الطير منه كمعتنر العوارك من مناف⁽³⁾

وقد كان معبوداً هذا الإله بين عرب الشام ، وقد عثر على اسمه في كتابة دونها شخص اسمه (أبو معن) على حجر ، توجه به الى الإله مناف ، ليؤمن عليه بالسعد والبركة ، كما حفرت على الحجر صورة الإله (مناف) على هيئة رجل ، كما عثر في حوران على كتابة ورد فيها اسم مناف مع إله آخر⁽⁴⁾ .

(1) الأصنام ص 30 والسيرة النبوية (1-2) ص 87 وقد جاء فيها عجز البيت (فتركتها قفراً بقاع اسحما)

(2) الأصنام ص 32

(3) نفس المصدر .

(4) -نواد على 6 / 270 - العدد 24 ، آذار 1933 م ، العدد 3 (ص 198 وما بعدها) .

سعد :

كان موضعه بساحل جُدَّة ، وهو عبارة عن صخرة طويلة ، يتعبد لها مالك وملكان ، ابنا كنانة⁽¹⁾ ، وذات يوم أقبل رجل منهم بإيل له ، ليقفها على تلك الصخرة ، تبركاً وتقرباً ، فنفرت الإيل ، وذهبت ، وتفرقت ، فأسف الرجل لذلك ، وتناول حجراً ، ورماه به ، وقال : « لا بارك الله فيك إلها ! أنفرت عليَّ إيلي ! » ثم انصرف وراء إبله ليجمعها وهو يقول :

أتيتنا إلى سعد ليجمع شملنا ، فشتتنا سعد ، فلا تحسن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض . لا يدعى لغى ولا رُشد⁽²⁾

الأقيصر :

أما هذا الصنم ، فقد كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان ، وموضعه في مشارف الشأ⁽³⁾ . وقد جاء في « اللسان » أن الأقيصر : صنم كان يعبد في الجاهلية . وقد أنشد ابن الأعرابي :

وانصاب الأقيصر حين أضحت تسيلُ على مناكبها ، الدما⁽⁴⁾

وفيه يقول زهير ابن أبي سلمى :

حلفستُ بانصاب الأقيصر جاهداً وما سُحِقت فيه المقادير والقمل⁽⁵⁾

(1) الأصنام ص 36 . السيرة (1-2) ص 18 ومعجم البلدان 3 / 221 صادر

(2) نفس المصدر .

(3) الأصنام ص 38

(4) لسان العرب 5 / 104 صادر

(5) ديوان زهير وأصنام ص 38

وقد سبَّح الجاهليون حول هذا الصنم مهللين مرتَّمين . يقول ربيع
بن ضبع الفزاري :

فإنني والسدي نقيم الأنام له ، حول الأقيصر ، تسبيح وتهليل⁽¹⁾ !
وربما كان الجاهليون يكسون هذا الصنم ، وها هو الشنفرى الأزدي
يقسم بأثواب الأقيصر ، قائلاً :

وإنَّ امرأً أجار عَمراً ورهطه⁽²⁾ عليّ ، وأثواب الأقيصر ، يعتف⁽³⁾!

وقد كانوا يحجون إليه ويخلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون مع كلِّ شعرة
قُرّة من دقيق ، وكانت هوازن تنتاب المكان وتطلب الدقيق ، قبل رميه مع
الشعر واختلاطه به وبالقمل ، وإلا اضطرت إلى أخذه بما يحوي فتخبزه⁽⁴⁾
وتأكله⁽⁵⁾ . قال ياقوت عن أبي المنذر : أن جرّهم وبني جُعدة اختصموا إلى
الرسول في ماء لهم ، فقضى الرسول (ﷺ) لجرّهم ، فقال معاوية بن عبد
العزّى الجرمي :

سوى القمل ؛ إني من هوازن ضارعُ	إذا قُرّة جاءت يقول : أصيبَ بها
مع القمل في حفر الأقيصر شارع ؟!	ألم تر جرماً أنجَدت ، وأبوكم
فإنني بما قال النبي لقانع ⁽⁶⁾	فإن أنتم لم تقنعوا بقضائه

(1) الأصنام ص 39 ، ومعجم البلدان 1 / 238 صادر

(2) نفس المصدر .

(3) معجم البلدان 1 / 238 صادر

(4) نفس المصدر . وقد تعمدت تأخير السطر الأخير ، وفي المصدر جاء متقدماً على السطرين ، وذلك
ليتناسب المقام في المعنى .

ويتبين مما تقدم أنه كان عند الصنم الأقيصر أنصاب ينحدر الناس عليها ذبائحهم متقربين بها إلى هذا الإله . وكانت أكثر من نصب واحد ، ولا عجب في هذه العادة فقد كان اليهود يتقدمون بذبائحهم إلى الهيكل ، كما أن أكثر أصحاب الديانات السماوية لا يزالون وحتى يومنا هذا يقدمون الأضاحي والندور . .

كما نرى أنهم قد أشاروا إلى (اثواب الأقيصر) في شعر الشنفرى ، ويظهر أيضاً أن عباده كانوا يطوفون حوله ، وهم يرتلون ويسبحون .
نُهم :

وكان هذا الصنم مُزَيَّنَةً ، وقد سُمِّت به بعض أبنائها « عبدنهم » وكان سادته يُسمى خزاعي بن عبد نهم ، وهو من مُزينة من بني عداء (1) ، وقد سمع بالرسول ، فثار إلى الصنم فكسره ، وأنشأ يقول :

ذهبتُ إلى نُهم لأذبح عنده عتيرة تُسك ، كالذي كنت أفعلُ
فقلت لنفسي حين راجعتُ عقلها أهذا إلهُ أيُّكم ليس يعقلُ
أبيتُ ، فدينسي اليوم دينُ محمد إله السماء الماجدُ المتفضلُ (2)

ثم لحق بالرسول وأسلم ، وضمن للرسول إسلام قومه . وخرزاعي هذا يقول أمية بن الأسكر (3) :

إذا لقيت راعين في غنم أسيدين يخلفان بنهم ،
بينها أشلاء لحم مُقتسم ، فامض ، ولا تأخذك باللحم القرم

(1) الأصنام ص 39 ومعجم البلدان 5 / 327 صادر . وقد جاء فيه أن سادته من بني عدي
(2) نفس المصادر . وفي معجم البلدان وردت في السطر الثاني كلمة « أبكم » بدلا من « أيكم » عند ابن الكلبي .

(3) الأصنام ص 40 ومعجم البلدان 5 / 328 صادر . وقد ذكر ياقوت بدل الأسكر الأشكر .

ونلاحظ مما تقدّم أنهم كانوا يأتون بالعتائر ليقدّموها ذبيحة لهذا الصنم كما تسموا وأقسموا به .

عائم :

وهو صنم كان لأزد السّراة ، ومن شعر لزيد الخيل الطائي ، نرى أنهم كانوا يحلفون به ، ومن حلف بالشيء عظمه وكرمه : يقول زيد الخيل :
تخبر من لا قيت أن قد هزمتهم ولم تدر ما سبها هم ، لا ، وعائم (1) !
سُغَيْر :

وقد كان هذا الصنم لعنزة وكانوا يزورونه ويطوفون حوله ويدبحون العتائر وهذا ما بيّنه جعفر بن خلاس الكلابي ، عندما مرّ به على ناقته ، فنفرت الناقة من رؤية العتائر المصرعة : فقال :

نفرت قُلُوصِي من عتائسر صرّعتْ حول السُّغَيْرِ تزوره أبنا (٢) يقدّم
وجُوعٌ يذكُر مُهْطِيعِينَ جنابه ما إن يُحِيرُ إِلَيْهِمْ بتكلم (2)

الفلس :

يشبه هذا الصنم تمثال انسان ، وكان لونه أسود ، مقامه في وسط جبل أجأ الذي كان لقبيلة طيء ، وكانت طيء تعبدّه وتُهدي إليه وتذبح عنده العتائر ، وقد يحتمي به الخائف فلا يخفر ، وكانت سدنته بنو بولان وآخرهم

(1) الأصنام ص 40 .

(2) الأصنام ص 41 ومعجم البلدان 3 / 222 صادر .

رجلٌ يقال له : صيفيُّ ، وهو الذي أطرد ناقة لامرأة من كلب ، كانت جارة لمالك بن كلثوم ، وأوقفها عند الفلس ، فاستعادها مالك الذي كان أول من خفر ذلك المعبود . وفي ذلك قال السادن :

يا ربَّ إنَّ مالك بن كلثوم أخفرك اليوم بناب علكوم
وكننت قبل اليوم غير مغشوم⁽¹⁾

ويروي الكلبي ، ويقوت أن عدياً بن حاتم الطائي كان يومئذ عند الصنم ذابحاً عتيرة له فتعجب من فعل مالك ، وانتظر ما يفعله الإله (فلس) بمن خفّره ، ولما مضت الأيام ولم يُصب مالكاً أذى رفض عبادته ، وعبادة الأصنام جميعها وتنصّر الى أن جاء الاسلام ، فأسلم⁽²⁾ . ويتابع الرواة الحديث عن (فلس) فيقولون : إنه لم يزل يُعبد حتى ظهر الاسلام فبعث الرسول علياً فهدمه وأخذ السيفين اللذين أهدهما الحارث الغساني⁽³⁾ .

وقد نلاحظ هنا أن هذين السيفين قد سبق لابن الكلبي أن قال : أنها كانا على الصنم مناة ، فلعل الحارث الغساني قد أهدي سيفين الى مناة وسيفين آخرين الى (فلس) أو أن ابن الكلبي وقع في سهوة كلامية .

الشُّفس :

وهو صنم لبني تميم ، وعبدته بنو أد كلها⁽⁴⁾ . وقد تسمى الكثير به من

(1) الأصنام ص 59 وما بعدها ومعجم البلدان 4 / 273 .

(2) نفس المصادر

(3) نفس المصادر

(4) ابن حزم الأندلسي . جمهرة أنساب العرب . تحقيق عبد السلام هارون دار المعارف / مصر / الطبعة 4 ص 493

تميم وغيرها ، مثل « عبد شمس » و « عمرو شمس » (1) .

المحرَّق :

وقد كان موضعه بسلَّمان ، وتعبدت له بكر بن وائل وكل ربيعة ، وكان
سدنته آل الأسود العجليون (2) .

الأسحَم :

هو صنم أسر (3) ، وكان محقق كتاب الأصنام قد استنتج ذلك من قول
الأعشى :

رضيَّعي لِبسان ثدي أمَّ تحالفا ، بأسحَم داجٍ عَوْضُ لا تتفرَّق (4)

وهناك أصنام أخرى كثيرة أوردها محقق كتاب الأصنام في (تكملة كتاب
الأصنام) ، منها : الأشهل ، وأوال ، والبجة ، وبلج ، والجبهة ،
وجرَّيش ، والجلسد ، وجهار والدار ، والدوار ، الذي ذكره امرؤ القيس
بشعره :

فَعَنَّا لَنَا سَرَبُ كَأَن نَعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مَلَأَ مَذِيلَ

وذو الرجل ، والشارق ، وصدا ، وصمودا ، والصنار ، والضيزن ،
والععب ، وعَوْضُ ، وعوف ، وكثرى الذي يقول فيه عمرو بن صخر بن
أشنع :

حلفت بكثري حلفسة غيربرة لتستلين أثواب قس بن عازب ،

(1) جواد علي 6 / 281 عن Ency Relig. 1, 660

(2) جبهة أنساب العرب ص 493 ومعجم البلدان 5 / 61 صادر

(3) ملحق كتاب الأصنام ص 107

(4) ديوان الأعشى ص 120

والكسعة ، والمدان ، ومرحب ، ومنهب ، والهبا ، وذات الودع ،
الذي قال فيه عديّ بن زيد العبادي :

كلا يمينا بذات الودع لو حدثت فيكم وقابل قبر الماجد الزارا

ويا ليل أيضاً⁽¹⁾ .

ويزيد زيد بن عمرو بن نفيل (ربّاً) آخر على هذه (الأرباب) وما
أكثرها زمن الجاهلية مسمى إياه بـ « عتم » وهو يقول :

عزلت الجنّ والجنان عني كذلك يفعل الجلدُ الصبورُ
فلا العزى أدين ولا ابتيتها ولا صنمي بني طسم أدير
ولا عتما أدين وكان ربّاً لنا في الدهر إذ حلمي صغير
أرباً واحداً أم ألف ربّاً أدين إذا تُقسّمت الأمور⁽²⁾

ونحن في خضم الحديث عن أصنام العرب لا بُدّ لنا أن نعرّج على ممالك
عرب الجنوب وممالك عرب الشمال لنستعرض بعض آلهتهم . فقد عبد
السبئيون الإله (المقه) والإله (تالب ريام) و (ذسموي) أي (رب
السماء)⁽³⁾ . ونحن لا ندخل في جدل حول التفسيرات التي وضعت لهذه
الآلهة وكيف وُجدت في جنوب الجزيرة العربية وشمالها ؟ ومن أين أتت ؟ فقد
أسهب الباحثون في ذلك وأطالوا ، من عرب وأوروبيين⁽⁴⁾ ، ولكننا نريد أن

(1) الأصنام (تكملة) ص 57 / وما بعدها

(2) الأغاني 3 / 15-16

(3) راجع كتابتنا عن دولة سبأ فيما سبق .

(4) انظر جواد علي 6 / 290 الى 336

نقول : ان الاتصالات الانسانية المستمرة لها علاقة كبيرة ، بحدوث تطورات فكرية بين الشعوب ، تؤدي الى تلاقح في العبادات في غالب الأحيان .

إن الإله « ذو الشرى » كان إله النبط الأكبر⁽¹⁾ كما أن أسماء آلهة وأصنام عديدة عُرِفَت عند التدمريين من كتاباتهم وعُرِفَت أيضاً عند العرب الجنوبيين⁽²⁾ . من هذه الآلهة (شمش) أي شمس ، و (بل) أي بعل ، و (الت) أي اللات ، و (اشتر) أي عشتار ، و (عزيزو) أي عزيز ، و (سعد) ، و (بل شمن) أي رب السماوات⁽³⁾ .

وقد تعبد المعينيون للإله (عم) ، و (نكرح) (عثر شرقن) أي عثر الشارق و (ود) وغيرها⁽⁴⁾ . وعبد أهل حضرموت الإله (سين)⁽⁵⁾ . وعبد أهل قتيان آلهة سموها (عما) و (ذات صتم) و (ذات ظهران) و (سحرن) و (رحبن)⁽⁶⁾ و (ذو غابة) عبدته لحيان وعبدوا أيضاً (عجلبن) و (أبي إيلاف) و (سلمان)⁽⁷⁾

ولقد كانت عبادة الحضريين أهل ممالك الجنوب والشمال ، من العرب الجاهليين ، أرقى بكثير من عبادات البدو وأهل الحجاز . فقد كانت المعابد قائمة في كل مدينة وفي كل ناحية ، وكان لها جبايات خاصة ، وأرضون واسعة ، ولها موارد ضخمة من النذور ، تقدم باسم الآلهة ، عند شفاء

(1) راجع كتابتنا عن مملكة النبط .

(2) راجع كتابتنا عن مملكة تدمر .

(3) جواد علي 3 / 130 عن Syria 18-5

(4) راجع كتابتنا عن دولة معين .

(5) راجع كتابتنا عن دولة حضرموت .

(6) راجع كتابتنا عن دولة قتيان

(7) انظر دولة لحيان .

شخص من مرض ، او رجوعه سالماً من سفر ، أو عودته صحيحاً من غزو أو حرب ، أو حصوله على غلّة وافرة من أرضه أو تجارته ، وقد كانت للمعابد ثروات ضخمة وأملاك شاسعة وأهراء تختزن فيها الثروة⁽¹⁾ . ولقد عثر المنقبون في معبد للإله (ذو غابة) في وسط خرائب المدينة على آثار حوض للماء ، ربما استعمل المؤمنون الماء للوضوء أو غسل مواضع من أجسامهم للتطهر قبل أداء الشعائر الدينية⁽²⁾ .

من هذا نرى ومن الرجوع الى النصوص التي ذكرناها في كتابتنا عن ممالك الجنوب والشمال نرى أن العبادة في هذه الممالك كانت راقية لدرجة نستطيع أن نقارنها بأرقى العبادات الوثنية عند الأمم القديمة .

(1) جواد علي 2 / 110 عن Studi Lexi 2,S, 58

(2) جواد علي 2 / 256

الباب الرابع

عبادة النجوم

الفصل الأول

الصابئة - معرفة العرب بالنجوم

الصابئة :

على ما يبدو من تفسيرات الشهرستاني⁽¹⁾ ، فإن مدار مذهب الصابئة يقوم على التعصب للروحانية لا للجسمانية التي هي بنظره مذهب الخنفاء . وهذه الروحانية قد أبدعت من أنوار محضة لا ظلام فيها ، وليست من مادة ولا من هيولى⁽²⁾ ، والروحانية صورة مجردة عن المواد ، وإن قدر لها شخص تتعلق به ، تصرفاً وتدبيراً ، لا ممازجة ولا مخالطة ، وشخصها نوراني ، كامل لا ناقص⁽³⁾ ، يفضل الجسماني بقوة العلم ، بمغيبات الأمور ، والعمل ، بالعكوف على العبادة ، والدوام على الطاعة⁽⁴⁾ ، والروحانية متخصصة بالهياكل العلوية مثل زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وتأمّر بإقتفاء آثار هذه الهياكل وحركات أفلاكها زماناً ومكاناً ، وجوهرأ وهيئة ، ولباساً ، وبخوراً ، وتنجياً ، ودعاءً ، والتقرب الى هذه الهياكل يكون تقرباً الى رب الأرباب ومسبب الأسباب⁽⁵⁾ . وقد جعل الصابئة لهذه الهياكل أشكالاً مختلفة منها المدور ، والمثلث ، والمربع ،

(1) الملل والنحل 2 / 63

(2) نفس المصدر 2 / 69

(3) نفس المصدر 2 / 70

(4) نفس المصدر 2 / 77

(5) نفس المصدر 2 / 87

والمستطيل ، والمسدس ، والمثلث (1) . وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى
الروحانيات ، ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى الباري تعالى (2) . وقد رأى
الرواة (3) أن الصابئة قديمو العهد ، عاصروا إبراهيم وكانوا قبله واستدلوا على
ذلك من مناظرة إبراهيم لأبيه ولقومه في ما جاء به القرآن الكريم (4) . كقوله :
﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي الخ الآية ﴾ وأيضاً « فلما رأى
الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما
تشركون » (5) .

كما عزا الرواة فكرة التناسخ وتنقل الأرواح إلى الصابئة (6) ويقول ابن
عشون القاضي الحراني وهو يذكر الصابئة وفرقهم وهياكلهم وأصنامهم :

إن	نفيس	العجائب	بيت لهم	في	سرادب
تعبد	فيه	الكواكب	أصنامهم	خلف	غاند (7)

وعن الصابئين يتحدث « محمد حسين هيكل » فيقول : « فالصابئون
من عبّاد النجوم كان لهم سلطان كبير في بلاد العرب ، وقد كانوا لا يعبدون
النجوم لذاتها ، وإنما كانوا في بداءة أمرهم يعبدون الله وحده ، ويعظمون
النجوم على أنها مظاهر خلقه وقدرته . . . » (8) .

(1) مروج الذهب 2 / 236

(2) الملل والنحل 2 / 107

(3) نفس المصدر 2 / 109

(4) سورة الأنعام آية 74-83 وسورة الصافات 95 وبعدها

(5) الأنعام 77، 78

(6) الملل والنحل 2 / 113 ومروج الذهب 2 / 238

(7) مروج الذهب 2 / 238

(8) حياة محمد ص 92

ويقول في موضع آخر : « وكان في بلاد العرب وفيما يجاورها صابئة ومجوس يعبدون النار والشمس » (1) .

وينقلنا الشهرستاني إلى عباداتهم وطقوسهم فيقول : إنهم يصلّون ثلاث مرات في اليوم ، ويغتسلون من الجنابة ، ومن لمس الميت . وقد حرّموا أكل الجزور ، والخنزير والكلب ، وذوات المخالب والحمام من الطيور ، ونهوا عن السكر ، والأختتان ، يزوجون بوليّ وشهود ، ولا يطلقون إلا بحكم حاكم ، ولا يجمعون بين امرأتين (2) .

ونجد في القرآن الكريم ذكراً للصابئة تارة بعد اليهود والنصارى ، وطوراً بعد اليهود وقبل النصارى ، حيث جاء ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (3) وأيضاً « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى ... » (4) و « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ... » .

والذي يُفهم من قول القرآن الكريم أن الصابئة جماعة لها دين خاص كاليهود والنصارى ومن الأرجح وجودهم في أرض العرب عامة وفي الحجاز خاصة حيث ولد الرسول وتلقى القرآن .

وربما كان الصابئون عبدةً لله ومن ثم مالوا إلى عبادة النجوم والكواكب وخرجوا عن دينهم ، لأن كلمة صباً يصبأ ، كما وردت في المعاجم تعني :

(1) نفس المصدر ص 150

(2) ملل ونحل 2 / 115

(3) سورة البقرة آية 62

(4) سورة المائدة آية 69 ، والحج آية 17

خرج من دين الى آخر⁽¹⁾ وقد أطلقت هذه التسمية على الرسول وأتباعه عندما تركوا ديانة قريش⁽²⁾ .

ونرى هذه اللفظة وقد عنت الخارج عن دينه في شعر سراقه بن عوف بن الأحوص : قاله في لبيد الشاعر ، وبعد أن أرسله قومه إلى الرسول ليرى خبره ، فعاد لبيد مسلماً ومصاباً بالحمى في الوقت نفسه . عاد يذكر البعث والجنة والنار :

ولكن أيسوه مسه قدم العهد	العمر لبيد إنه لا ين أمه
دفعناك فحسلاً فوقه قرع اللبد	دفعناك في أرض الحجاز كأنما
وتسريق عيش مسه طرف الجهد	فعالبت حماء وداء ضلوعه
بالواح نجد بعد عهدك من عهد	وجئت بدين الصابئين تشوبه
وثم إياب القارظين وذئ البرد ⁽³⁾	وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً

فالصابئون هنا وفي نظر المشركين ، هم المسلمون ، أي أن الصابئ مركباً عنت الكلمة عند ظهور الاسلام : هو الخارج عن دين قومه إلى دين جديد .

معرفة العرب بالنجوم :

بعد أن تكلمنا عن الصابئين ، ورجحنا وجودهم في أرض العرب فيما قبل الاسلام ، كان من البديهي أن يتسرب إلى عرب الجاهلية شيء من علوم الفلك عن طريق الصابئة ، وهم من عرفهم العرب ، وكانت لهم فيما بعد

(1) لسان العرب 1 / 107 صادر

(2) نفس المصدر

(3) الأغاني 15 / 138

نفس المنزلة التي كانت لأولي الكتاب ، أو عن طريق آخر لأن العرب وكما بيّنا كانوا على اتصال بسكان المناطق المتاخمة ، وخاصة الكلدانيين⁽¹⁾ . ولم تكن معرفة العرب بالنجوم والكواكب ، جميعها منقولة عن غيرهم ، فقد كانوا ولحاجتهم الماسة لتحديد مواضع النجوم في صحرائهم الكبرى ، وعند ترحالهم ، قد ذهبوا مذاهب شتى في مواضعها من البروج . يقول ابن قتيبة « إن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها »⁽²⁾ . ويقول ابن رشيّق : « إن العرب أعلم الناس بمنازل القمر وأنوائها »⁽³⁾ .

وإن كنا لا نجاري ابن قتيبة وابن رشيّق في أن العرب كانوا أعلم أهل الأرض بالنجوم والكواكب ، ولكننا لا نعجب من كونهم مارسوا أمور الكواكب والنجوم ، مطالعها ومساقطها ، وصورها ، وأسمائها ، فطبيعتهم الصحراوية مكشوفة إلى النجوم ، التي يهتدون بها في أسفارهم وحلّهم وترحالهم ، وقد ذكر القرآن الكريم ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾⁽⁴⁾ ، و « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس »⁽⁵⁾ ، فالخنس الجوّاري الكنس هي الكواكب السيارة عدا النّيرين ، إنما سميت خنساً لأنها تسير في البروج والمنازل كسير الشمس والقمر ، ثم تخنس أي ترجع إذ يرى أحدها في آخر البروج ، فيكر راجعاً إلى الأول ، وسميت كنساً لأنها تكنس أي تستتر⁽⁶⁾ . وربما كان

(1) انظر سابقاً صلة العرب القدامى بالكلدانيين

(2) الميثولوجيا عند العرب ص 82 عند البيروني ص 238

(3) ابن رشيّق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محي الدين عبد الحميد . دار الجليل / بيروت / 2 / 252

(4) سورة النحل آية 16

(5) سورة التكويد آية 15، 16

(6) ابن قتيبة - أدب الكاتب ص 97 دار صادر / بيروت / 1967 عن طبعة ليدن

لصفات الفرقد أو الكوكب أثر في تسميته فـ « الثريّا » مثلاً سميت هكذا لغزارة نُوْثِها ، أو لكثرة كواكبها⁽¹⁾ ، أو لأن عن مطرها تكون الثروة وكثرة العدد والغنى⁽²⁾ .

وللنوء صلة بعبادة العرب للنجوم وتعظيمها ، والنوء النجم يطلع أو يسقط فيمطر ، وإن سقط النجم ولم يكن مطرفيه قيل خوى نجم كذا وكذا⁽³⁾ .

وبما أنه لا نوء لبنات نعش عند طلوعها وسقوطها ، فقد شبه الشاعر معشره بها عند هجائه لهم ، قال :

أولئك معشري كبنات نعش خوالف لا تنوء مع النجوم⁽⁴⁾

فالعرب والقول هذا لهم معرفة بالفلك وعبادة للنجوم عند بعضهم .

(1) لسان العرب 14 / 112 صادر

(2) ابن رشيّق العمدة 2 / 256 دار الجيل

(3) أدب الكاتب ص 88

(4) الميثولوجيا ص 85 عن البيروني ص 242

الفصل الثاني

الزهرة - الشمس - القمر - الديبران

- الثريا - الشعر يان

الزهرة :

هي معبودة الشعوب القديمة ، وقد سماها الهنود مايا ، والفرس ميترا ،
والفينيقيون عشتروت ، والأشوريون أناتيس ، واليونان والرومان فينوس ،
واصطلح العرب على تسميتها بالزهرة ، وهي من أشهر المعبودات وأقدمها
لأنها إلهة الجمال والحب⁽¹⁾ .

وقد حملت الزهرة عند العرب معاني البياض والحسن والبهجة⁽²⁾ قال
الشاعر :

وقد وكُلثني طُلُتِي بالسَّمْسرة ، وأيقظتني لَطُوعُ الزُّهرة⁽³⁾

الشمس :

والظاهر أن عبادة الكواكب ما زالت بين عرب حمير حتى هودهم ذو
نوا⁽⁴⁾ . وقد نستدل على عبادة السبئين للشمس من حديث سليمان للهدد
في القرآن الكريم ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ ؟ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأَ بِنَبَأٍ يَقِين . إني

(1) بطرس البستاني دائرة المعارف م 9 ص 285 .

(2) لسان العرب 4 / 332 صادر

(3) نفس المصدر

(4) راجع كتابتنا عن مملكة سبأ

وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرشٌ عظيم . وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله (١) ﴿٢﴾ .

لقد عبد العرب الشمس وتسموا بها ، كعبد شمس ، وامريء
الشمس ، وعبد الشارق (٢) ، ومن الكتابات التي وجدت في بابل
لتغلتفلاسر ، والتي يذكر فيها انتصاره على مدينة دومة الجندل وظفره بملكيتها
التي كانت كاهنة للاله الشمس (٣) ، نستدل على أن عبادة هذا الكوكب كانت
قديمة في بلاد العرب وهذا الرأي يؤيده ابن منظور بقوله : الشمس صنم
قديم ، وعبد شمس بطن من قريش قيل : سموا بذاك الصنم (٤) . ويقول
ياقوت : أن « شمس » صنم كان لبني تميم وكان له بيت وكانت تعبده بنو
أدكلها (٥) . وقد سماها العرب الإلهة مما يعطينا دليلاً قاطعاً على عبادتها . تقول
مية بنت أم عتبة بن الحارث ، ويروى غيرها :

تروحنا من اللعباء عصرا فاعجلنا الإلهة أن تؤوبا (٦)

وقد ذكر القرآن الكريم محادثة إبراهيم لقومه ﴿ فلما رأى الشمس بازغة
قال هذا ربي ، هذا أكبر ﴾ (٧)

(1) سورة النمل آية 20 إلى 24

(2) الميتولوجيا ص 93 / عن Eney of Rel. 1 / 660

(3) النصرانية وآدابها / لويس شيخو / القسم الأول ص 8

(4) لسان العرب 6 / 114 .

(5) معجم البلدان 3 / 362 صادر

(6) الميتولوجيا ص 94

(7) سورة الأنعام آية 78

القمر :

يقول القرآن الكريم : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ (1) ، آية نستدل منها على عبادة الشمس والقمر معاً . فلا بُدَّ أن يكون القمر الهاً رئيسياً كما الشمس بالنسبة للبدوي ، فهو يضيء له مضارب اقدمه في المهامه الموحشة ، رامياً اشعته الفضية الى قلب الصحراء ، حيث تمتزج برمالها العسجدية ، فتعكس في نفس البدوي أنواراً للطمأنينة ، وهو يحذو الابل في الليالي الصحراوية المخيفة .

ومن الثابت أن الحميريين وغيرهم من عرب الجنوب قد عبدوا القمر وسموه « ود » (2) و « سين » (3) « المقه » (4) . وبما أن عرب الجنوب كانوا على اتصال دائم بعرب الشمال بواسطة الطرق التجارية من الجنوب الى الشمال ، وبما أن العرب كل العرب كانوا على اتصال بباقي الشعوب القديمة التي شغلت عبادة القمر مكاناً كبيراً في دياناتهم ، فمن المرجح أن تكون عبادة هذا الكوكب قد عرفها العرب ومارسوها .

الدبران :

لم يكتف العرب بعبادة الشمس والقمر ، فقد عرفوا الكثير من النجوم والكواكب وعبدوها ، فأكرموا زحل والجوزاء والجبار (5) وعبدت بنول لخم

(1) سورة فصلت آية 37

(2) جواد علي 2 / 124 عن Rep. EPIG. 357

(3) نفس المصدر 2 / 132

(4) نفس المصدر 2 / 271 عن Glasser 484 .

(5) النصرانية وأدائها (شيخو) ص 12

وجرهم المشتري ، وبعض طيء عبد سهيلاً (1) . ومما جاء في الروايات أن الدبران أراد أن يتزوج الثريا غير أن العيوق (2) عاق هذا الزواج فسمي العيوق لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا . قال أبو ذؤيب :

فَوَرَدَنَ ، وَالْعَيُوقُ مَقْعَدُ رَابِيءِ الضَّحَى
سُحْرِيَاءَ ، خَلْفَ النِّجْمِ ، لَا يَتَتَلَعُ (3)

ويقول بشر بن أبي خازم الأسدي يصف معاندة الثريا للدبران ومساندتها من قبل العيوق :

وَعَانَدَتِ الثُّرَيَّا بَعْدَ هَذِهِ مُعَانِدَةً لَهَا الْعَيُوقُ جَارُ (4)

ويقول طفيل الغنوي يصف لنا الدبران وهو يسوق «قلاص النجم»
عشرين نجماً في خطبة الثريا :

أَمَّا ابْنُ طَوْقٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ ، كَمَا وَفَى بِقِلَاصِ النِّجْمِ حَادِيهَا (5)
الثريا :

من الكواكب المؤهلة عند العرب كالدبران وسميت بذلك لغزارة
نوئها (6) ، ولا غرابة في تأليههم لها ، وهي بنظرهم مانحة الغيث وللغيث شأن
كبير في بلاد يسودها الجفاف . لقد قالوا : إذا رأيت «الثريا» تدبر فشهر نتاج
وشهر مطر (7) وقد تسمى العرب بـ «عبد الثريا» و «عبد نجم» .

الشعريان :

يشير القرآن الكريم إلى عبادة الشعري ، بقوله ﴿وَإِنَّهُ هُوَ رَبُّ

(1) الميتولوجيا ص 98 عن أديان العرب في الجاهلية ص 187

(2) كوكب أحمر مضيء يطلع قبل الجوزاء

(3) لسان العرب 10 / 280 صادر

(4) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي . تحقيق عزة حسن ص 56

(5) لسان العرب 7 / 82 صادر

(6) نفس المصدر 14 / 112 صادر

(7) نفس المصدر 4 / 271 صادر

الشعري ﴿⁽¹⁾ مما يوحى الى اعتبار هذا النجم معبوداً جاهلياً . والعرب تطلق اسم « الشعريين » على « الشعري العبور » التي في الجوزاء « والشعري الغميصاء » التي في الذراع ⁽²⁾ . وقد قيل : إذا رأيت الشعري تُقبل فمجدفتي ومجدُّ حمل ⁽³⁾ . يقول بشر بن أبي خازم الأسدي ذاكراً برج الدلو والكوكب الشعري ونوءهما :

جادت له الدلو والشعري ونوءهما بكل اسحم دانسي الودق مُرتجف ⁽⁴⁾

وروت العرب أن « الجدي » قتل نعشاً فبناته تدور به وتريده ⁽⁵⁾ وهذا ما عناه بشر بن أبي خازم بقوله :

أراقبُ في السماء بنات نعش وقد دارت كما عطف الصَّوَّارُ ⁽⁶⁾

لقد عرف العرب الجاهليون النجوم والكواكب والأبراج ، يقول بشر بن أبي خازم :

باتت له العقسرب الأولى بنثرتها وبئله من طلوع الجبهة الأسد ⁽⁷⁾

وعبدوها وعظموها إما تقرباً وإما رهبة وخشية فبعضها بنظرهم مصدر الخير والبركات ، مصدر الغيث ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ⁽⁸⁾ وبعضها

(1) سورة النجم آية 49

(2) لسان العرب 4 / 416 صادر

(3) نفس المصدر 4 / 271 صادر

(4) الديوان ص 157

(5) الميثولوجيا ص 102 عن الميداني ص 312

(6) الديوان ص 65

(7) الديوان ص 56

(8) سورة الأنبياء آية 30

مصدر الحرّ والقرّ ، كما تأسلها البدوي وأدام النظر إليها فكانت رفيقته في حله
وترحاله ، يعرف بواسطتها الشمال من الجنوب وكم هو بحاجة إليها في ذلك
المحيط من الرمال ، فلا عجب والحالة هذه أن يتخذها أرباباً ويتعبد لها .

الباب الخامس

عبادات العرب الأخرى

الفصل الأول

تقديس الانسان والحيوان والنبات

تقديس الانسان :

إن نظرة لأصنام قوم نوح⁽¹⁾ ، وقد كان منها ما هو على صورة الانسان ، ومنها ما هو على صورة الحيوان ، قال زيدان : وكان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر⁽²⁾ ، لتجعلنا نعتقد بأن الجاهلي قد قدس الانسان وعظمه وعبده ، ومما يدعم هذا الاعتقاد حديث موت عامر بن الطفيل كما أورده أبو عبيدة ، قال : « لما مات عامر بن الطفيل ، بعد منصرفه عن النبي (ﷺ) نصبت عليه بنو عامر أنصاباً ميلاً في ميل حمى على قبره لا ينشرف فيه ماشية ، ولا يرعى ولا يسلكه راكب أو ماشٍ » وكان رجل منهم غائباً ، فلما قدم قال : « ما هذه الأنصاب ؟ قالوا : نصبناها حمى لقبر عامر بن الطفيل ! فقال : ضيقتُم على أبي علي ! إن أبا علي بان من الناس بثلاث : كان لا يعطش حتى يعطش الجمل ، وكان لا يضل حتى يضل النجم ، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل »⁽³⁾ .

فلماذا يكرمون ابن الطفيل هذا التكريم وبعد موته ؟ لعل للرجل هالة مقدسة عند أقربائه وذوي عشيرته ومعارفه .

(1) القرآن الكريم . سورة نوح آية 23

(2) المبتولجيا ص 57 عن أنساب العرب لزيدان ص 39

(3) الأغاني 15 / 139

ولقد قيل أن بعض القبائل كانت تحج بيت الزبرقان بن بدر ، وهو معاصر لعامر بن الطفيل ، وقد نقل الجارم عن السهيلي قوله : « وكان الزبرقان يرفع له بيت من عمام وثياب وينضح بالزعفران والطيب ، وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت »⁽¹⁾

والزبرقان الشاعر الجميل ، الملقب بقمر نجد ، يقول مفاخرأ ومشيراً الى حج العرب بيته :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفيما تنصب البيع⁽²⁾

ومما يقوي ايماننا بتقديس العرب الجاهليين للانسان ، هو عبادتهم لأساف ونائلة ، فقد حدث الكلبي عن ابن عباس : أن أسافاً رجل من جرهم ، ونائلة امرأة من جرهم أيضاً ، وكان أساف يتعشق نائلة في أرض اليمن ، فأقبلوا حجاجاً ، فدخلوا الكعبة ، فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت ففجر بها فمسخا . . فعبدتها خزاعة وقريش ، ومن حج البيت بعد من العرب⁽³⁾ ، وكانت ثيابهما كلما بليت أخلفوا لهم ثياباً⁽⁴⁾ .

والأزرقي في كلامه عن « الكاهن » عمرو بن لحي ، يقول : « إنه بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية . . . » لقد كان فيهم شريفاً سيداً مطاعاً ما قال لهم فهو دين متبع⁽⁵⁾ ، يوحى لنا أن من كان هذا قوله ، أي « دين متبع » فلا شك وأن يكون معظماً وذا هالة قدسية عند الجاهليين .

(1) الميثولوجيا ص 104 عن أديان العرب في الجاهلية ص 124

(2) نفس المصدر عن تاريخ الطبري 1 / 1712

(3) الأصنام ص 9

(4) أخبار مكة 1 / 120

(5) نفس المصدر 1 / 88

وإذا ما أضفنا إلى هذه الأسباب كهانة الخزاعي ، وأنه كان لديه رثي من الجن (١) ، كان ذلك كافياً لدوي الجاهلية أن يرفع مثل هذا الشخص إلى مرتبة التأليه والعبادة .

تقديس الحيوان :

وكان من أمر هذا الكاهن الخزاعي ، بالإضافة إلى نصبه الأوثان والدعوة لعبادتها ، أنه أول من بحر « البحيرة » وسيب « السائبة » ووصل « الوصيلة » وحمى « الحامي » (٢) . فالسائبة وهي الناقة والبحيرة ابنتها ، والوصيلة الشاة ، والحامي هو الفحل من الابل ، وجميعها تسبب في حمى الإله ويحرم لبنها ولحمها وقص وبرها وركوبها (٣) .

ويتبع هذه الحيوانات في احترامها وعدم مسها بأذى ، ما ضل ، أو سرق والتجأ أو أوتي به إلى حمى الآلهة ، فتمتع بنفس الحرية التي تتمتع بها « البحيرة » وغيرها ، وفي أكثر الأحيان تعد من ممتلكات الإله ، وفي حديث مالك بن كلثوم مع سادن صنم طيء إشارة إلى ذلك ، عندما أراد مالك استرداد ناقة جارته ، فرد عليه السادن : إنها لرَبِّك (٤) !

ومما جاء في القرآن الكريم عن هذه الحيوانات التي قدسها العرب ﴿وقالوا هذه انعام وحرث حجر (٥) لا يطعمها إلا من نشاء ، بزعمهم ، وأنعام

(١) الأصنام 54 وما بعدها انظر خبره مع الرثي يأمره بالذهاب إلى ضف جُدّه .

(٢) تاريخ مكة 1 / 116 والسيرة النبوية (١-2) ص 76 . وانظر معاني هذه الكلمات في السيرة النبوية

(١-2) ص 89 دار الكنوز الذهبية

(٣) نفس المصدر

(٤) الأصنام ص 60 .

(٥) تفسير الامامين الجليلين رحمة حجر (حرام) - سورة الأنعام الآية 138 ص 11 المكتبة الشعبية .

حُرِّمَتْ ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله (1) عليها (2) ، إن التي حُرِّمَتْ ظهورها هي « البحائر والسوائب والحوامي » (3) . وقد ورد في القرآن الكريم ما أنكر هذا الاعتقاد ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ (4) .

وقد ذكر الشاعر الوصائل والهاميات والسوائب بقوله :

حول الوصائل في شريف حِقَّةٍ والهاميات ظهورها والسيِّب (5)

ويقول تميم بن صعصعة أحد بني عامر ذاكراً البحيرة :

فيه من الأخرج المربع قرقرة هدر الديافي وسط الهجمة البحر (6)

وفي فصل الأصنام تكلمنا عن غزالي مكة اللذين اكتشفها عبد المطلب في زمزم . كما عرفنا في قائمة الآلهة العربية عدداً تحمل أسماء حيوانات كأسد ، وعوف ، واليعسوب ، ونسر . . . وفي اليعسوب يقول عبيد بن الأبرص :

فتبدلوا اليعسوب بعد إلههم صنما فقروا يا جديلاً وأعذبوا (7)

وقد نقل الجارم عن السهيلي من حديثه عن قدوم وفد طيء على الرسول ما ملخصه : عندما جلسوا قريباً من الرسول حيث يسمعون صوته ، نظر

(1) اسم أصنامهم . نفس المصدر

(2) سورة الأنعام آية 138

(3) تفسير الجليلين آية 138

(4) سورة المائدة آية 103

(5) السيرة النبوية (1-2) ص 91

(6) نفس المصدر . والبحر جمع بحيرة

(7) ديوان عبيد بن الأبرص ص (3)

إليهم وقال : إني خير لكم من العزى ولاتها ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله (1) . . .

وكما تسمى العرب بأسماء الحيوانات ، فقد تسموا أيضاً بأسماء الطير والزواحف والهوام ، فكان بينهم عنبس ، وحيدرة ، وأسامة ، وهرثمة ، (بمعنى الأسد) . وأوس : وذؤالة ، ونهشل ، بمعنى (الذئب) ، وكلثوم (الفيل) ، والحنش والأراقم « الحيات » والهيثم « فرخ العقاب » ، وعكرمة « الحمامة » ، وجندب « الجرادة » والذر « أصغر النمل » (2) ، ولعل العرب قد قدسوا الطير والزواحف والهوام .

تقديس النبات :

لا شك أن النخلة قد عاشرت عرب الجاهلية ، وقد كانت تؤلف قواماً من مقومات حياتهم . وليس ببعيد أن تقدر ويقدر غيرها من الأشجار في بلاد أعظمها عقيم أجرد صحراوي ، وأقلها واحات ومساقط أمطار كانت لهم بمثابة مراكز تجارية ، يوم كانت الصحراء ، قبل الاسلام ، طريقاً هاماً لتجارة العالم القديم .

ومما يزيد اعتقادنا في تقديس العرب للأشجار ما ذكره ياقوت عن الحديبية : « وهي قرية متوسطة ، سُميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله تحتها » (3) وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ لقد رضي الله عن

(1) الميتولوجيا ص 108 عن أديان العرب في الجاهلية للجارم ص 124

(2) أدب الكاتب ص 70-74

(3) معجم البلدان 2 / 229 صادر

المؤمنين إذ يباعدونك تحت الشجرة» (1) ، وقد أمر الخليفة عمر بقطعها بعد أن نهي إليه أن الناس تزورها وتبرك بها ، فخشي أن تعبد .

أما ابن اسحق فيوضح لنا دين العرب آنئذ في كلامه عن ابتداء وقوع النصرانية بنجران : يقول : « وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه ، وحلي النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً » (2) .

ولم تكن عبادة الشجر مقصورة على عرب الجنوب ، فقد جاء في « أخبار مكة » وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ، ويعكفون عندها يوماً (3) . وكان من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيماً لها (4) .

وفي حديثنا عن العزى ، قلنا إنها سمرّة كانت لغطفان يعبدونها ولها منحراً يسمى « الغبغب » ينحرون فيه هداياهم (5) . . .

نما تقدم يظهر لنا أن بعض العرب الجاهليين عظموا الأشجار وعبدوها أو أنهم عبدوا آلهة دخلت هذه الأشجار . وتقديس الأشجار قد توالى من بعد

(1) سورة الفتح آية 18 . وفي تفسير الجليلين أنها كانت سمرّة .

(2) السيرة لابن هشام (1-2) ص 33

(3) أخبار مكة (الأزرقى) 1 / 130

(4) نفس المصدر

(5) معجم البلدان 4 / 116

ظهور الاسلام وحتى أيامنا هذه، ونحن نرى أشجاراً ضخمة قائمة بذرب المقابر أو المزارات الدينية ، ويعتقد الناس ، أنه من الخطورة بمكان أن يقطع ولو غصن صغير منها كما نرى وفي مناسبات مختلفة ان بعض النسوة يعلقن « خَرَزاً ومزقاً من الثياب على بعض الأشجار ، وأيضاً خميرة العجين ولا نجد تفسيراً لذلك إلا أنه بعض رموز وتقاليد لعبادات قديمة مورست وانتقلت من السلف إلى الخلف».

الفصل الثاني

عبادة الجن والملائكة

عبادة الجن والملائكة

إن لعالم الأرواح ، ولكل ما لا تراه العين ويدركه الحس البشري ، أثراً خطيراً في عقائد أهل الجاهلية ، وفي نفوس كثير من الناس حتى اليوم إذ نرى صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تُتلى وتقال للسيطرة على تلك الأرواح ، وخاصة الخبيثة منها لتجنب أذاها . وإذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين ، نجد أنها قد انتشرت وتركزت في نفوس الكثيرين منهم ، وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بهذه المعتقدات ، وما ورد في القرآن الكريم من أثر الجن في نفوس الناس .

إن أكثر الذين عرفوا الجن بحسب ما وصلت اليهم الأخبار منذ الجاهلية ، مجمعون على أن الجن ، كلمة عربية تتضمن معنى التخفي والتستر⁽¹⁾ ، ويقول الجاحظ في تعريفه للجن : « كل مستهجن فهو جنى وجان وجنين ، وكذلك الولد قيل له : جنين لكونه في البطن واستجنانه ، وقيل للميت الذي في القبر جنين⁽²⁾ » . وسُمي القبر جنن لستره الميت ، والليل جنان لأنه يستر بظلمته ، والقلب جنان لاستتاره في الصدر ، والروح جنان

(1) لسان العرب . مادة « جن » 13 / 92 صادر ، وقاج العروس ماد (جن)

(2) الجاحظ - الحيوان . دار صعب / بيروت / تحقيق فوزي عطوي (4-7) ص 407

لأن الجسم يجنُّها ، والجنين : الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه ، والجنة : السترة وكل ما وقاك وسترك ، والجن نوع من العالم سُموا بذلك لأنهم لا يرون^(١) . وما كان شائعاً أن الجن قد خلُقوا من قبل آدم ، وهذا ما يؤيده القرآن الكريم في قصة الخليفة^(٢) : وخلاصة القول في تعريف الجن ، أنهم أرواح خفيّة قادرة على التشكل ، بصورة مختلفة . وهم أصناف وطبقات عند العرب سنستعرضها فيما يأتي من صفحات .

لقد عبد الجاهليون العرب الجن ، ولا شك ، وقد ذكر القرآن الكريم أن قريشاً جعلت بين الله وبين الجنة نسباً : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون^(٣) ، وأن قريشاً جعلت الجن شركاء لله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ ، سبحانه وتعالى عما يصفون^(٤) كما يذكر القرآن الكريم أن بعض العرب قد عبدوا الجن : ﴿ قالوا : سبحانه ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾^(٥) ، ويذكر (ابن الكلبي أن (بنو مليح) من خُزاعة ، رهط طلحة الطلحات ، كانوا يعبدون الجن^(٦) ، وفيهم يقول القرآن : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم ﴾^(٧) .

وفي عقيدة الجاهليين أن الجن عشائر وقبائل ، تتقاتل وتتصالح ، ولها

(١) لسان العرب . مادة « جن » ١٣ / ٩٣ وما بعدها / صادر .

(٢) سورة الأعراف آية ١١ . البقرة ٣٤ . الحجر ٢٨

(٣) سورة الصافات آية ١٥٨

(٤) سورة الأنعام ، آية ١٠٠

(٥) سورة سبأ ، آية ٤١

(٦) الأصنام ص ٣٤

(٧) سورة الأعراف آية ١٩٤

ملوك وسادات قبائل ، تحفظ العقود وتعقد الأحلاف ، من هذه القبائل : « بنو غزوان » (1) .

ولإرضاء الجن ، وتجنب أذاها ، قدم الجاهليون الذبائح لها ، وإذا أراد إنسان السكن في بيت جديد ، أو استخراج ماء من بئر حفرها ، وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة ، يُرضي بها الجن ، فلا تصيبه بأذى ، ولقد أبطل الإسلام ذبائح الجن (2) .

أما الملائكة وهم أرواح في نظر أهل الجاهلية ، فقد تعبّد لها بعضهم ، كما يفهم من الآية ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت وليّنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ (3) . ويقول أمية بن أبي الصلت مشيراً إلى الملائكة :

فكأن برقّع والملائك حولها سدرُ تواكله القوائمُ أجردُ (4)

وانشد أبو عبيدة لرجل جاهلي من عبد قيس :

فلست لأنسي ، ولكن لمأك تنزل من جوالسما يصوب (5)

مواطن الجن :

وأكثر مواطن الجن في نظر الجاهليين ، هي المواضع الموحشة المظلمة ،

(1) بنو غزوان : حي من الجر . لسان العرب 9 / 89 . صادر مادة (قرر)

(2) لسان العرب 2 / 437 (ذبح) صادر .

(3) سبأية 40 وما بعدها

(4) حياة وشعر أمية بن أبي الصلت تحقيق بهجة عبد الغفور الحديشي بغداد 1975 ص 189

(5) لسان العرب 10 / 496 صادر

والأماكن المقفرة ، والفجوات العميقة ، وفي المغاور ، والجبال ، والآكام ،
والأودية والفلوات ، وكلها أماكن رهيبة ، تلقي الرعب في قلوب الناس^(١) .
ويقول الجاحظ : إن الأعراب يذكرون أن أرض (وبار) ليس فيها إلا الجن
والابل الوحشية التي ضربت فيها فحول إبل الجن^(٢) . وكثيراً ما تذكر الشعراء
مواضع للجن يُضرب بها المثل ، وهي في أماكن شتى في بلاد العرب ، كأن
يقولوا : جن البدي ، وجن البقار ، وجن « ذوسمار » ، وجن عبقر ،
وغيرها .

يقول لبيد :

غلب تشذر بالدحول كأنها . جن البديّ رواسيا أقدامها^(٣)

ويقول النابغة :

سهكين من صدا الحديد كأثمهم . تحت السنور ، جئة البقار^(٤)

ويقول زهير :

عليهن فتیان كجنة عبقر جديرون يوماً أن ينيفوا فيستعملوا^(٥)

ويقول حاتم :

عليهن فتیان كجنة عبقرا يهزون بالأيدي الوشيح المقوما^(٦)

(١) انظر حبر « جماعة من ثقيف ومعهم أمية من أبي الصلت وما فعلته بهم المرأة الجنية التي كانت تقيم في

الأودية والفقار . الأعاني 3 / 189

(٢) الحيوان (4-7) ص 462

(٣) نفس المصدر ص 453

(٤) الديوان ص 60 المؤسسة العربية / بيروت /

(٥) الحيوان (4-7) ص 453

(٦) نفس المصدر

وعبقر موضع بالبادية كثير الجن ، ويقال في المثل : كأنهم جنٌ عبقر⁽¹⁾ .
وهو أشهر أماكن الجن على ما يبدو لأن كثيراً من الشعراء ذكروه في أشعارهم⁽²⁾
يقول لبید . :

ومن فاد من أخوانهم وبنیهم كهول وشبان كجنّة عبقر⁽³⁾

لقد كان في اعتقادهم أن الأماكن التي ذكرناها ، وغيرها ، مليئة بالجن
لذلك كانوا يستجيرون بالجن في أسفارهم ، وفي منازلهم ، كأن يقولون :
نعوذ بكبير هذا الوادي ، أو هذا المكان ، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم :
﴿ وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾⁽⁴⁾ .
ويروى عن (حجاج بن علاط البسلي) ، أنه عندما نزل بواد مخوف موحش
في ركب له ، وهو يقصد مكة ، قال وقد جنّ الليل :

أعيذ نفسي وأعيذ صحتي من كل جنسي بهذا النقب
حتى أوب سالماً وركبي⁽⁵⁾

وقد قال أحدهم وهو يعوذ بسيد الوادي :

قد بتّ ضيفاً لعظيم الوادي المانعني من سطوة الأعادي
راحلتني في جاره وزادي⁽⁶⁾

(1) لسان العرب 4 / 534 صادر

(2) انظر أشعار الشعراء : مرار العدوي ، والأعشي و امرؤ القيس ، ولبيد ، وذو الرمة ، وزهير ، وكثير :
في لسان العرب 4 / 534 وما بعدها ومعجم البلدان 4 / 79 وما بعدها/ صادر /

(3) اللسان 4 / 534 صادر

(4) سورة الجن آية 6

(5) جواد علي 6 / 720 عن الروض الأنف (1 / 136)

(6) نفس المصدر عن بلوغ الأرب 2 / 326

فما يبدو أنهم كانوا يخافون الجن ، وخاصة بالأمكن النائية الموحشة ،
بالأودية والمفازة ، وفي أماكن تواجد الوحوش المفترسة . يقول أحدهم وهو
يستجير بجن (عالج) :

يا جن أجزاء اللوى من عالج عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغوي هائج⁽¹⁾

ويستعيز رجل ومعه ولد ، فأكله الأسد ، يقول :

قد استعذنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعادي
فلم يجربنا من هزبر عادي⁽²⁾

ومن جملة ما كان يعتقد الجاهليون أن الجن كانت تعزف في المفاوز
بالليل . يقول أحدهم :

وإنني لأجتأب الفلاة ، وبينها عوازف جنان ، وهسام صواخذ⁽³⁾

وفي حديث لابن عباس : « كانت الجن تعزف الليل كله بين الصفا
والمروة »⁽⁴⁾

ويقول بشر بن أبي خازم يذكر الفلاة والفيافي وعزيف الجن فيها :

وخرق تعزف الجنسان فيه فيافيه تجن بها السهام⁽⁵⁾

(1) نفس المصدر .

(2) نفس المصدر عن بلوغ الأرب 2 / 326 .

(3) لسان العرب 9 / 244 .

(4) نفس المصدر

(5) مفضليات ص 334

- وربما تصوروا هذا العزيف كضرب الصنوج . قال القطامي :
- تبيت الغول تهزج أن تراه وصنّج الجن من طرب بهيم⁽¹⁾
- أو تصوروها كقرع الطبول . يقول ذو الرمة :
- ورمل لعزف الجن في عقداة هرير كتضراب المغنين بالطبل⁽²⁾
- ويسمع هذه الأصوات الجاهلي فتساب في أذنيه كحديث السمر .
- يقول ذو الرمة :
- وكم عرّست بعد السرى من معرس به من كلام الجن أصوات سامر⁽³⁾
- ويقول أيضاً :
- كم جبت دونك من بهاء مظلمة تيه إذا ما مُغشي عنه سمرا⁽⁴⁾
- ويقول أيضاً :
- بلاد يبيت اليوم يدعو بناته بها ومن الأصداء والجن سامر⁽⁵⁾
- كما شبهوا هذه الأصوات بأصوات الريح وهي تتخلل أغصان الشجر .
- يقول ذو الرمة :
- للجن بالليل في أرجائها زجلٌ كما تناوح يوم الريح عيسوم⁽⁶⁾
- وتخيلوا هذه الأصوات كأزيز الذباب . قال أحدهم :
- تسمع للجن به زي زي زما هتاملا من رزّها وهيّا⁽⁷⁾

(1) لسان العرب 2 / 311 مادة (صنّج) صادر

(2) الحيوان 4-7 ص 449 دار صعب

(3) نفس المصدر ص 448

(4) نفس المصدر ص 449

(5) نفس المصدر

(6) نفس المصدر ص 448

(7) لسان العرب مادة (هتمل) 11 / 689 صادر

والأعشى الشاعر الجاهلي الكبير ، قد ذكر الجن في كثير من أشعاره
وتخيّل عزيّفها وزجلها . يقول :

والجن تعزف حولها ،
كالخبش في محرابها⁽¹⁾
ويقول :

وبلدة مثل ظهر الثرس موحشة ، للجن بالليل في حافاتها زجل⁽²⁾
ولربما آمن زهير بن أبي سلمى بهذه الأصوات التي يسميها عزيّفاً .
يقول :

تسمع للجن ، عازفين بها ، تضبج ، من رهبة ، ثعالبها⁽³⁾
ولطالما اعتقد بعض الجاهليين أن الجن تركب أنواعاً كثيرة من الحيوانات
والطيور والزواحف والحشرات ، وعرفت كل هذه بـ « مطايا الجن » ولم يستثنوا
منها سوى الأرانب لحيضها ، والضباع لقذارتها ، والقردة لزيّتها⁽⁴⁾ . وتمتطي
الجن هذه الحيوانات ، وخاصة الظباء⁽⁵⁾ ، في البوادي . ولم تنج الذئب من
ركوب الجن . جاء في الأغاني عن رجل روى فقال : « بينما نحن نسير بين
انقاء من الأرض تذاكرنا الشعر ، فإذا راكب أطلّس⁽⁶⁾ » يقول : أشعر الناس
زياد بن معاوية ، ثم تملص فلم نره⁽⁷⁾

(1) الديوان ص 16 . المؤسسة العربية / بيروت /

(2) نفس المصدر ص 146

(3) ديوان زهير بن أبي سلمى ص 209

(4) المبتولجيا ص 214 عن الرابع الأصفهاني (2 / 281)

(5) الأغاني 8 / 78-79

(6) أطلّس : تصغير أطلّس : الدئب الأغر . لسان العرب 6 / 124 مادة (طلس) .

(7) الأغاني 9 / 163

يقول عبيد بن أيوب دالاً على اعتقاده بأن الجن تركب الظباء :
وأجوب البلاد تحتي ظبي ضاحكاً شفه كثير التمرّي
مولج دبره خزانة مكر وهو بالليل بالعفاريت يسري⁽¹⁾

لقد أنشد ابن الأعرابي لبعض الأعراب شعراً يصف غير الظبي من
مطايا الجن ، كالثعالب المسنة ، والعطاء ، والجرد ، والفأرة ، والورل ،
والجندب⁽²⁾ ، وكثيراً ما اعتقدوا أن الجن تركب قرني الثور ، وقد تصد
البقر عن الماء . يقول الأعشى مشيراً إلى الجنّي يضرب ظهر الثور :
لكالثور ، والجنّي يضرب ظهره ، وما ذنبه أن عافست الماء مشرباً⁽³⁾

وتعتلي الجنة ظهور الخيل ، كما يعتليها من الناس الأشاوس الذين
يسرعون لنصرة المظلوم . يقول زهير :

بخيل عليها جثة ، عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا ، فيستعلوا⁽⁴⁾
وما دامت الجن أرواحاً تتزاج مع الأنس كما يتضح ذلك من كتب
الأخبار⁽⁵⁾ وتدخل في الحيوان وتركبه فهي عند الجاهلي تتلون بألوان مختلفة وهذا
ما عناه عنتره بقوله :

والغول بين يدي يخفى تارة ويعود يظهر مثل ضوء المشعل
بنواظر رزق ووجه أسود وأظافر يشبهن حدّ المنجل
والجن تفرق حول غابات الفلا . بهائم ودمادم لم تغفل⁽⁶⁾

(1) الحيوان (4-7) ص 489 / صعب /

(2) نفس المصدر ص 470 وما بعدها .

(3) ديوان الأعشى ص 9

(4) ديوان زهير بن أبي سلمى ص 31

(5) الحيوان (1-3) ص 179 وما بعدها .

(6) ديوان عنتره . مكتبة كرم (دمشق) ص 143

ويقول أبو وَجْزة يصف امرأة ولا يطمع بها لأنها تشبه الجن .
طافت بها ذاتُ السَّوان مُشبهة ذريعة الجن لا تعطي ولا تدعُ⁽¹⁾
أصناف الجن : إبليس وأولاده :

يتضح مما سبق من القول أن الجن أصناف وطبقات عديدة وستعرض
فيما يلي لأشهر أنواعها .

إبليس :

دعته كتب الوحي « بالمنافق المتكبر » ، الذي أبى أن يسمع قول الله
ويسجد لآدم مع الملائكة الساجدين⁽²⁾ ، وبأكثر الأرواح الساقطة شراً⁽³⁾
لتكبره⁽⁴⁾ وعدو الله والانسان ، وحية حواء ، وصاحب السلطان على الأرواح
النجسة والقتال ، والكذاب ، والأسد الزائر ، والحية القديمة⁽⁵⁾ . وفي
القرآن الكريم آيتان نستدل من الأولى ، أن إبليس ملك من الملائكة ﴿ وإذ
قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس أبى واستكبر وكان من
الكافرين ﴾⁽⁶⁾ . ونستدل من الثانية ، أن إبليس كان من الجن : ﴿ وإذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس كان من الجن ﴾⁽⁷⁾ وإبليس متربص

(1) لسان العرب 8 / 96 صادر مادة (ذرع) : ●

(2) انجيل عدس . سفر الرؤيا 9. 12

(3) القرآن الكريم . سورة البقرة . آية 34 ، والأعراف 11 ، والحجر 31، 32 . والاسراء 61 والكهف 50
وطه 116

(4) نفس المصدر اتيموتيوس 3: 6

(5) قاموس الكتاب المقدس مادة (إبليس) و (شيطان) . بطرس عبد الملك ورفاقه . مجمع كنائس الشرق
الأدنى . الطبعة 2

(6) سورة الحجر آية 32 . البقرة 34

(7) سورة الكهف آية 50

بالانسان يعمل دائماً على غوايته . يقول القرآن الكريم : ﴿ قال ربّ بما أغويتني لأزيننّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ (1) .

ولربما أن النصارى واليهود وانتشارهم في بلاد العرب ، وما حولها كان له الأثر الكبير في إيصال قصص إبليس « الشيطان » إلى أهل الجاهلية الذين آمنوا به كجن يتلبس بصورة انسان تارةً ، وطوراً يتلبس صورة حيوان أو طير أو زواحف . وهذا الاعتقاد لا يزال حياً في بعض نفوس العرب حتى اليوم (2) . لقد دلّ أوس بن حجر على دخول الشيطان في « قفا » الانسان بقوله :

إذا الشيطانُ قصَّع في قفاها تنفَّضناه بالحِبل التَّؤام (3)

ومن يتحدث إلى بني آدم غير الانسان ، ربما تقمص الشيطان صورة انسان وقال لذلك الأعرابي الذي مات ولداه إنك فقير أو كثير العيال . يقول المزرد أخو الشماخ :

وأيقن إذ ماتا بجوع وخيبة وقال له الشيطان : إنك عايل (4)

والشيطان : حية له عُرف ، وكل عات متمرّد من الجن والإنس والدواب فهو شيطان ، يقول جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزل ، وهنّ يهوينني ، إذ كنت شيطانا (5)

(1) سورة الحجر آية 39

(2) حدثني أحد أبناء قريتي واسمه « داود ناصيف داود » أنه رأى الشيطان بأم عينه هو وشقيقته توفيقه وجدته « أم خليل » وذلك قبل 65 عاماً حيث كان الثلاثة ينامون في حقل للذرة يحرسونه قرب واد صحيق . وأن الجان كانت في عرس كبير . قرب بركة في الوادي . وقد حاول داود استعمال البندقية فخرست ، وكذلك الكلب « بارود » لم يبدِ حراكاً وبقي العرس ثلاث ساعات .

(3) ديوان أوس بن حجر . تحقيق محمد يوسف نجم . صادر . بيروت 1960 ص 126 .

(4) مفضليات ص 101 .

(5) لسان العرب 13 / 238 صادر .

وقال رجل يذم امرأة له :

عَنْجَرْدُ تَحْلَفُ حِينَ أَحْلَفُ ، كَمَثَلِ شَيْطَانِ الْحِمَاطِ أَغْرَفُ⁽¹⁾
كان الجاهليون يعتقدون أن لكل شاعر شيطاناً يعلمه الشعر ، ويلقنه
إياه ولتثبت هذا الاعتقاد سمى الشعراء شيطانهم . يقول الأعشى مهاجياً
عمير بن عبد الله وتابعه « جهنم » .

دَعَوْتُ خَلِيلِي مَسْحَلاً ، وَدَعَاؤُهُ جَهَنَامُ جَدْعَاً لِلْهَجِينِ الْمَذْمُومِ⁽²⁾

ويجعل الأعشى نفسه فداءً لشيطانهِ الذي نصره على خصمه قائلاً :
حَبَاتِي أَخِي الْجَنْسِيُّ ، نَفْسِي فِدَاؤُهُ ، بَأَقْبَحِ جِيَّاشِ الْعَشِيَّاتِ خِضْرِمِ⁽³⁾

أولاد إبليس :

إن لإبليس خمسة من الأولاد على رأي مجاهد⁽⁴⁾ ، هم : ثبر صاحب
المصايب ، والأعور صاحب الزناء ، ومبسوط صاحب الكذب ، وداسم
صاحب البغضاء والمفرق بين الزوجين ، وزلنبور صاحب الخصومة وأهل
السوق⁽⁵⁾ .

الغيلان والسعالي :

والغول جنس من الجن والشياطين⁽⁶⁾ ، اعتقد الجاهليون بوجودها وأنها

(1) لسان العرب 13 / 238 صادر

(2) ديوان الأعشى ص 183

(3) نفس المصدر ص 184

(4) الميثولوجيا ص 220 عن القزويني ص 368

(5) نفس المصدر

(6) لسان العرب 11 / 509 وما بعدها .

تتلون وتشكل بهيئات وحالات مختلفة يقول كعب بن زهير بن أبي سلمى
مُشيراً الى تلونها .

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول⁽¹⁾
ويقول عباس بن مرداس السلمي :

أصابت العام رِعلاً غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان⁽²⁾
وفي حديث للرسول (ﷺ) : « عليكم بالدُّلجة فإن الأرض تُطوى
بالليل ، وإذا تغوكت لكم الغيلان فبادروا بالأذان . . أي ادفعوا شرها بذكر
الله (3) »

ويقول جرير بتلون الغول :
فيوما يوافيني الهوى غير ماضي ، ويوما ترى منهن غولاً تغول⁽⁴⁾

ويقول عبيد بن أيوب وقد فرق بين الغول والسعلاة :
وساخرة مني ولو أن عينها رأت ما ألقىه من الهول جئت
أبيت وسعلاة وغول بقفرة إذا الليل وارى الجن فيه أرئت⁽⁵⁾

ويقول الجاحظ : تقول العرب : شيطان الحماطة وغول القفرة وجان
العشرة⁽⁶⁾ . كما يقول : « والغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار

(1) ديوان كعب بن زهير ص 8 . الدار القومية القاهرة مصور عن دار الكتب ص 1950 والحيوان (4-7) ص 442

(2) الحيوان (4-7) ص 442

(3) لسان العرب 11 / 507 صادر

(4) لسان العرب 11 / 507 صادر

(5) الحيوان (4-7) ص 442

(6) نفس المصدر ص 447

ويتلون في ضروب الصور والثياب ذكراً كان أو أنثى ، الا أن الأكثر على أنه أنثى (1) .

يقول جبيهاء الاشجعي :

وتزوجت في الشبيبة غولا كغزال وصدقني رُقْ خمر (2)

ويصف عنتره اختفاء الغول وظهورها وتلونها فيقول :

والغول بين يديّ يخفى تارة ويعود يظهر مثل ضوء المشعل
بنواظر رُقْ ووجه أسود وأظافر يشبهن حدّ المنجل (3)

ولكن عنتره لم يلاحظ أنها كما تنبّه لذلك سلفه امرؤ القيس حيث يقول :

أيقتلني والمشرقيّ مضاجعي ومسنونة رُقْ كأياب أغوال (4)

وما جاء في أخبار الشاعر ثابت بن جابر بن سفيان وتسميته « بتأبط شراً » (5) ما يدل على أن الغول في اعتقادهم تتقمص جسم انسان وجسم حيوان . يقول تأبط شراً :

فأصبحت الغول لي جارة فيا جارتا لك ما أهولا
فطالبتها بضعها فالتوت عليّ وحاولت أن أفعل
فمن كان يسأل عن جارتي فإن لها بالسوى منزلا (6)

(1) نفس المصدر ص 442

(2) نفس المصدر

(3) ديوان عنتره مكتبة كرم (دمشق) ص 143

(4) ديوان امرؤ القيس (دار صادر) بيروت ص 142

(5) الأغاني 18 / 209

(6) نفس المصدر 18 / 210

وقد جاء في الأغاني أن تأبط شراً لقي الغول في ليلة مظلمة ، في موضع
يقال له : رحي بطان ، فقطعت عليه الطريق فقتلها وبات عليها ولما أصبح
حملها تحت إبطه وجاء بها أصحابه ، فقالوا : تأبطت شراً ، فقال في ذلك ،
يصف ما فعل ويصف الغول :

ألا من مبلغ فتیان فهم ، بما لاقيتُ عند رحي بطان
وأنی قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صححان
فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصباحاً ماذا أتاني
إذا عینان في رأس قبيح كراس الهر مشقوق اللسان
وساقاً مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان⁽¹⁾

ومجمل القول أن الغول نوع من الجن ، اعتقد بوجودها أهل
الجاهلية ، وتمثلوها في هيئات مختلفة .

أما السعلاة : فيقول ابن منظور عنها : أنها الغول بذاتها ، وهي
ساحرة الجن ، وفي الحديث « لا صقر ولا هامة ولا غول ولكن السعالي »⁽²⁾
وكثيراً ما ذكر الشعراء السعالي في أشعارهم . يقول ليبد يصف الخيل مشبهاً
إياها بالسعلاة :

عليهن ولدان الرهان كأنها سعال وعقبان ، عليها الرحائل⁽³⁾

وقال جرير العود :

هي الغول والسعلاة خلفي منها مخدش ما بين الشراقي مكدح⁽⁴⁾

(1) الأغاني 18 / 210

(2) لسان العرب 11 / 336 صادر

(3) ديوان ليبد بن ربيعة العامري . دار صادر / بيروت / ص 133

(4) لسان العرب 11 / 336

وشبّه ذو الاصبع الفرسان بالسعالي :

ثم انبعثنا أسود عادية مثل السُعالي نقائيا نزعاً⁽¹⁾

وقال الجاحظ : يُقال أن عمرواً بن يربوع تزوج من السعلاة⁽²⁾

ومن ذكر السعلاة وشبهها بالفرس عبّيد بن الأبرص حيث يقول :

أوحشت بعد ضمّر كالسُعالي من بنات الوجيه أو حلاب⁽³⁾

ويقول أيضاً :

نحن قدّنا من أهاضيبي الملاال خيل في الأرسان أمثال السُعالي⁽⁴⁾

ومن مُشبّه لها بالشحّاج أي « حمار الوحش » الذي أصبح كالسعلاة .

يقول سلمة بن الخرشب الأنماري :

وثمكتنا إذا نحن اقتنصنا من الشحّاج أسعله الجميأ⁽⁵⁾

ومن مُشبّه المرأة بها . يقول عميرة بن جُعل :

ترى الحاصن الغراء منهم لشارف أخي سلّة قد كان منه سليلها

قليلاً تبغيها الفحولسة غيرة إذا استشعلت جنان أرض وغوث⁽⁶⁾

وعنترة يشبه الخيل بالسعالي أيضاً إذ يقول :

أمارسُ خيلاً للهجيم كأنها سعال بأيديها السوشيج المقوّ⁽⁷⁾

(1) نفس المصدر

(2) الحيوان (4-7) ص 443

(3) ديوان عبّيد بن الأبرص / دار بيروت / ص 41

(4) ديوان عبّيد . دار بيروت ص 121

(5) مفضليات ص 40

(6) مفضليات ص 258

(7) ديوان عنترة دار صعب / بيروت / ص 68

يتبين لنا مما ورد في السعلاة أنها تشبه الغول الى حد كبير عدا عجزها عن التحول والتشكل .

العفريت والمارد :

ومن أصناف الجن العفريت والمارد ، والعفريت هو الخبيث المنكر ، وقد عرفه الخليل بقوله : شيطان عَفْرِيَّةٌ وعَفْرِيَّتٌ ، وهم العَفَارِيَّةُ والعَفَارِيَّت (1) .

قال ذو الرمة :

كأنه كوكبٌ في إثرِ عفْريةٍ مُسَوِّمٌ في سوادِ الليلِ مُنْقَضِبٌ (2)
وقد ورد ذكر العفريت في القرآن الكريم ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به ﴾ (3)

وما أورده الجاحظ : « الجن إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد قيل شيطان . وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد . فإن زاد فهو عفريت . فإن زاد فهو عبقرى » (4) فالعفريت إذا معروف عند عرب الجاهلية ، وهو جسر عنيد ، نصَّات الى الناس لا يسترق السمع إلا جَهَاراً في أضواء ما يكون البدر يشهد على ذلك قول الحكم بن عمرو البهراني :
ونفوا عن حريمها كل عَفْر (5) يسرقُ السمع كل ليلة بدْر (6)

(1) لسان العرب 4 / 586

(2) نفس المصدر

(3) سورة النمل آية 39

(4) نهاد توفيق نعمة . الجن في الأدب العربي . بيروت 1961 ص 27 عن الحيوان 1 / 291

(5) العفر : العفريت انظر اللسان مادة (عفر) .

(6) الحيوان (4-7) ص 467

أما المارد والمريد ، فهو العاتي الخبيث من الجن (1) . وقد ذكره القرآن الكريم ووصفه بالعاتي المتمرد (2) ، بقوله : ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ (3) و « يتبع كل شيطان مريد » (4)

أما الأعشى فيصفه بغاو من غواة الجن ، حين يشبب بامرأة ويتغزل بها مشبهاً إياها بدرة زهراء يحرسها هذا الغاوي ولا يغفل عنها :
ومارد من غواة الجن يحرسها ، ذويقة ، مستعبد دونهما ، ترقا (5)
الخابل :

أما الخابل فهو ضرب من الجن (6) ، أو أنه الجن نفسه سمي بالخابل الذي يخبل الشعراء . قال أعشى سليم :

وما كان جنسي الفرزدق قدوة وما كان فيهم مثل فحل المخبل
وما في الخوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل (7)
لقد قلنا سابقاً أنهم ، أي العرب الجاهليين ، كانوا يزعمون أن بكل شاعر جنأ ينطق الشعر على لسانه ، ولعلهم اعتقدوا بذلك لذهول وشدوذ في الشعراء غير معهودين بباقي الناس ، وقد شاعت هذه العقيدة وبقيت بعد الاسلام أيضاً . قال أحدهم :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبؤ عني
فإن شيطاني كبير الجن (8)

(1) لسان العرب 3 / 400 صادر . مادة (مرد) .

(2) تفسير الجليلين .

(3) سورة الصافات آية 7

(4) سورة الحج آية 3

(5) ديوان الأعشى ص 124 . المؤسسة العربية / بيروت /

(6) لسان العرب 11 / 197 صادر

(7) الحيوان (4-7) ص 466

(8) نفس المصدر ص 467

وقال ابو النجم :

إنسي وكل شاعر من البشر شيطانه أثشى وشيطاني ذكر .
وقد ذكر القرآن الكريم ذلك : ﴿والشعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾⁽¹⁾
وحاتم الطائي الذي اشتهر بالكرم وضجّت بجوده الفلوات يقول لزوجته :
مهلاً نوارُ ، أقلّ السوم والعذلا ، ولا تقولي ، شيء فات ، ما فعلا ؟
ولا تقولي لئال ، كنت مهلكة ، مهلا ، وإن كنت أعطي الجنّ والخبلا⁽²⁾
والذي يقرأ كتب الأخبار ، وشعر شعراء الجاهلية وصدر الاسلام ،
يلاحظ أن هناك أنواعاً كثيرة للجن ، نذكر منها الغدار ، والهاجس ،
والتابع ، والرئي ، والهاطف ، والعامر ، والدلهاب ، والنسناس ،
والمسخ⁽³⁾ .

وهكذا نرى أن العرب في جاهليتهم قد عرفوا الجن - ولعلهم آمنوا
بها - أصنافاً عدة ، وفي اعتقادهم ، أنها تتشكل وتتصور في صور الانس
والبهائم ، وهي طبقات قادرة على الاتيان بأعمال خارقة لبعضها مميزات
ومفارقات اتخذت اسماءها وفقاً لذلك . وقد عرضنا لبعضها نماذج محاولين
تحديد لها لتأخذ مكانها في سياق البحث . فالتمسنا بقدر المستطاع إرضاء
فضول الراغب في تقصي حقيقة معتقدات العرب زمن الجاهلية .

الكهانة والعرافة :

والكلام عن الجن يقودنا الى الكلام عن الكهانة والعرافة ، والكهانة هي

(1) سورة الشعراء آية 224

(2) حاتم الطائي . دار بيروت 1974 ص 73

(3) راجع قصيدة الحكم بن عمرو البهراني وفيها يذكر كثيراً من أنواع الجن . الحيوان (4-7) ص 417 وما
بعدها ونفس المصدر من ص 447-528 . والدميري 1 / 188 وما بعدها والبيان والتبيين 2 / 325
والقزويني 2 / 105 وما بعدها .

التنبؤ بالغيب وادعاء معرفة الأسرار^(١) . وفي الحديث الشريف « من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد (ﷺ) »^(٢) .

والعراف : الكاهن والطبيب . قال عروة بن حزام :
فقلت لعراف اليمامة : داوئني ، فأثك ، إن أبرأئسي ، لطبيب^(٣)

فالكهانة والعرافة لفظان لمعنى واحد والمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب^(٤) والكهانة دخيلة على العرب ، ولعلها واتتهم من الشعوب المجاورة ، وعلى الأرجح من الكلدان البارعين بعلم الفلك والنجوم^(٥) . فالكاهن والعراف يسمّى « حازي » و « حزاء »^(٦) وهي كلمة كلدانية تعني الناظر والرائي والبصير^(٧) ، وقد تكون لفظة كاهن قد دخلت بلاد العرب عن طريق اليهود الذين تواجدوا مع العرب وفي أماكن شتى^(٨) .

وقد وردت كلمة (كاهن) في القرآن الكريم ، تنفي الكهانة المزيّفة عن الرسول ﴿فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾^(٩) ، مما يشير إلى وجود الكهّان الذين اشتهر منهم جمع كبير في بلاد العرب^(١٠) ، أقدمهم شق وسطيح

(1) لسان العرب 13 / 363 صادر

(2) نفس المصدر 9 / 238

(3) لسان العرب 9 / 237 صادر

(4) جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية . مكتبة الحياة / بيروت 1 / 181

(5) نفس المصدر

(6) لسان العرب 9 / 237 صادر

(7) جرجي زيدان 1 / 181

(8) انظر ما كتبناه عن صلة قدامى العرب بالعبرانيين .

(9) سورة الطور آية 29

(10) الجاحظ البيان والتبيين 1 / 189 وما بعدها . الشركة اللبنانية للكتاب / بيروت / تحقيق فوزي عطوي .

وخنافر وسواد⁽¹⁾ ولم تقتصر الكهانة على الرجال وحسب بل تعدتها الى النساء وقد لمعت اسماء كثيرة لهم في دنيا الكهانة ، ودنيا العرب ، أمثال طريفة كاهنة اليمن التي اندرت بخراب سد مأرب ، وسلمى وعفراء الحميريتين ، وزبراء الحضرمية ، وزرقاء اليمامة⁽²⁾ وكما سمى العرب كاهناتهم بأسماء المواضع كذلك سموا الكهان والعرافين فقالوا : كاهن قريش ، وكاهن اليمن ، وعرفاء هذيل ، وعرفاء نجد ، وعرفاء اليمامة الذي قال فيه عروة بن حزام : فقلت لعرفاء اليمامة⁽³⁾

ومما جاء في كتب الأخبار أنه كان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هو أسلوب السجع ، ولذلك عرف بـ (سجع الكهان) ولقد جاء في الأغاني : أنه عندما هاجم كسرى ، ملك الأعاجم ، إيادا ، قامت كاهنة من إياد تسجع لهم وتقول : إن يقتلوا منكم غلاما سلما ، أو يأخذوا منكم شيخا هيا ،

تخضبوا نحورهم دما ، وترووا منها سيوفاً ظمأ⁽⁴⁾ أما سطيح الكاهن الغساني فيقول : والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ما طرق⁽⁵⁾ .

ومما جاءتنا به كتب الأخبار أيضاً أن العرب في جاهليتهم إذا تنازعوا في شيء وعصي عليهم الأمر احتكموا إلى الكهان والعرافة ، قال ابن اسحق عن

(1) جرجي زيدان 1 / 183

(2) نفس المصدر 1 / 183

(3) انظر على الصفحة المقابلة

(4) الأغاني 20 / 24

(5) مروج الذهب 2 / 175 دار الأندلس .

رؤيا عبد المطلب بحضر زمزم وبدئه بالعمل ومخاصمة قريش له : « اجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه ؛ قالوا : كاهنة بني سعد هذيم ؛ قال : نعم » ، وكانت هذه الكاهنة بأشراف الشام ، فركبوا اليها (١) . كما يحدثنا ابن اسحق أيضاً عن خبر نذر عبد المطلب وخروج القداح على عبد الله ، وأخذه للذبح عند أساف ونائلة واعتراض قريش ، وطلبهم بأن يُعذر بالصبي ويُفتدى ، والتوجه الى « سجاح » عرافة الحجاز ، التي حكمت بعد أن استشارت تابعها بأن يقدموا عبد الله مع « الدية » وهي عشرة من الابل ، إلى رب القوم ويضربوا بالقداح ، ويستزيدوا حتى يرضى (٢) .

وخلاصة ما يفهم عن الكهانة والعرافة عند عرب الجاهلية هي التنبؤ بواسطة تابع لعلّه من الجن . ويرى ابن خلدون أن علوم الكهان ، كما تكون من الشياطين ، كذلك تكون من نفوسهم . . . وهي وإن خمدت وخفيت زمن النبوة لكنها لم تنقطع ولم تبطل (٣) .

✓ السحر :

عمل ديني لجأ اليه البشر منذ اعتق أيام الإنسان ، وللسحر صلات وثيقة بالكهانة والعرافة ، وأمر مارسه رجال الدين السحرة على مرّ العصور وحتى يومنا هذا .

والسحر في عرف بعض علماء اللغة هو « عمل تُقرب فيه إلى الشيطان

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٤

(٢) نفس المصدر ١ / ١٥٤

(٣) مقدمة ابن خلدون . دار القلم / بيروت / ص ١٠١

وبمعونة منه «(1)» يؤدي الى الخداع وفساد العقل . يقول النابغة :
فقلت : يمين الله أفعل ! إنني رأيتك مسحوراً ، يمينك فاجرته (2)

ويقول لبيد بن أبي ربيعة :
فإن تسأليننا : فيم نحن ؟ فإثنا عصافير من هذا الأنعام المسحور (3)

والسحر معروف ومتداول بين عرب الجاهلية منذ القدم . يقول ابن هشام : انه كان في إحدى قرى نجران ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر (4) . وقد وردت كلمة (سحر) وما يشتق منها كساحر ومسحور نيّفاً وستين مرة في القرآن الكريم (5) ، مما يدل على أثر السحر في عقلية الجاهلي .

والملاحظ أن الجاهليين كانوا يعزّون السحر لكل من يأتي بشيء مدهش . ونراهم عزّوا رسالة الرسول الى السحر . وهذا ما قال فيه القرآن الكريم : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الالهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب ﴿ (6)

كما يشير القرآن الكريم إلى أن الشياطين يعلمون الناس السحر والفرقة بين المرء وزوجه (7) . وهذا يدلنا على بعض أغراض وأهداف السحر الذي استخدم في معالجة أمور كثيرة كالقضاء على الأعداء والتفرقة بين

(1) لسان العرب 4 / 348 صادر

(2) ديوان النابغة الذبياني . المؤسسة العربية / بيروت / ص 70

(3) لسان العرب 4 / 349

(4) السيرة النبوية (1-2) ص 34

(5) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . مادة (سحر) .

(6) سورة ص آية 4, 5

(7) سورة البقرة آية 102

الزوجين ولعل الزوجات أتبعنه للتفريق بين بعولهن وزوجاته الأخريات . .

وقد توصل الساحر في اعتقاد بعضهم لاشعال نيران الحب ، أو البغض والكراهية في قلوب الناس ، كما يستطيع مداواة العاشق بـ (السلوانة)⁽¹⁾ و (السلوان)⁽²⁾ يقول اللحياني :
يا ليت أن لقلبي من يعلله ، أوساقيا فسقاني عنك سلوانا⁽³⁾

وقال آخر :

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا وجديد العيش ، يا مي ، ما أسلو⁽⁴⁾
وأنشأ ابن بري :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني
فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا بهما سقياني⁽⁵⁾

ومن أعمال الساحر أيضاً اخراج الجن من المجانين ، ومداواة المرضى فهو الطبيب أي الساحر⁽⁶⁾ ، والطب هو السحر . يقول ابن الأسيلى :
ألا من مبلغ حسان عني أطب ، كان داؤك ، أم جئون⁽⁷⁾
أما المواد التي كان يستعملها السحرة في سحرهم فعديدة ، منها البخور والملح والعظام والخرز ، وهناك طقوس وحركات خاصة بالساحر ، وتمتمة

(1) السلوانة والسلوة : خرزة شفافة تدفن في الرمل فتصبح سوداء تُلدق وتُذاب في الماء ويُسقاها الانسان فتسليه أو تُهيمه . اللسان 14 / 395 صادر .

(2) نفس المصدر . واللون كالسلوانة .

(3) نفس المصدر

(4) نفس المصدر

(5) نفس المصدر

(6) لسان العرب 1 / 554 صادر .

(7) نفس المصدر .

تشير الى أن الساحر يخاطب أشخاصاً من الجن . ومن لا يعرف القراءة والكتابة فهو يعمد إلى الرموز والصور ، وكثيراً ما دفنوا هذه الأشياء في المقابر لأنها أنسب الأمكنة للسحر .

وقد عثر المتقبنون على بعض هذه الاشارات والصور المتعلقة بالسحر⁽¹⁾ .

إن ما أوردناه عن السحر والسحرة زمن الجاهلية واتصال هذا الأمر بالأرواح الخبيثة ، أي الجن ، نستطيع القول أنه ينطبق على نفوس بعض الناس في عصرنا الحاضر . الذين يؤمنون بالسحر وتأثيره على الانسان أكثر من إيمانهم بالله (عن قصد أو غير قصد) وإيمانهم بالعلم⁽²⁾ .

(1) جواد علي 6 / 745 عن Hastings . p. 569

(2) سمعت حديثاً لامرأة من قريني (حقل العزيمة الضبنة) واسمها كلثوم كنعان ، أمام طبيب يفحصها ولدها المصاب بمرض القلب ، ويسألها عن ابنها الثاني الذي كان مصاباً بقرحة في أنفه ، فقالت : أجريت له عمليتين جراحيتين ولم يشف ، فأتكلت على الله وأخذته لعند (الشيخ) فقرأ عليه عبارات لم أفهمها ودهن أنف ولدي بحلول لونه أزرق فشفي .

الفصل الثالث

معتقدات أخرى

الاصابة بالعين :

ومما اعتقد به الجاهليون وكان له تأثير في حياتهم الاصابة بالعين ، فقد رأوا أن عيون بعض الناس تصيب ، وما تصيبه تهلكه فتجنبوا (العائن) و (المعيان) وابتعدوا عنه ، كما رأوا إن الإصابة بالعين لا تقتصر على عيون الانسان وحسب ، فقد تصيب عيون الحيوان كذلك وخاصة الكلاب . ورد عن ابن عباس قوله : « الكلاب من الجن فإن غَشِيَتْكُمْ عند طعامكم فآلقوا هن فإن هن أنفساً ، أي أعيناً⁽¹⁾ .

ولحماية النفس من العين استعملوا الخرز والتعاويذ والرقى . يقول سلمة بن الخرشب الأنماري مشيراً إلى تعوذ فرسه بالرقى وتقليدها عقداً من التائم :

ثَعْوَذُ بِالرُّقَى مِنْ غَيْرِ خَبَلٍ وَثَعْقَدُ فِي قَلَائِدِهَا التَّمِيمُ⁽²⁾

أما سويد بن أبي كاهل الشكري فينسب قائلاً :

وَدَّعْتَنِي بِرُقَاهَا ، إِنِّهَا تُنْزِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ رَأْسِ الْيَقَعِ⁽³⁾

لا شك أن اعتقاد الجاهليين بوجود قوى خفية تؤثر في الانسان ومنها الإصابة بالعين ، حملهم على ايجاد وسيلة للتغلب على تلك القوى ، أو الحد

(1) اللسان 6 / 236 صادر . والحيوان (1-3) ص 286 دار صعب .

(2) المفضليات ص 40

(3) مفضليات ص 192

منها ، وذلك باستعمالهم الرقى والتائم والتعاويذ ، فهداهم تفكيرهم إلى تعليق سنّ ثعلب ، أو سن هرة في أعناقهم وأعناق أولادهم⁽¹⁾ . أو تسمية ولدهم بأسماء حقيرة لتنفير الجن وإبعاد العين . قال اعرابي : « لما وُلدت قيل لأبي : نَفَر عنه ، فسماني قُنْفُذاً وكنّاني أبا العداء⁽²⁾ » .

ولكن هذه الرقى والتعاويذ يتوقف مفعولها عندما يأتي الموت . يقول الممزّق العبدى :

هل للفتى من بنات الدهر من واقٍ أم هل له من حِمام الموت من راق⁽³⁾
ويقول أبو ذؤيب :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفت كلّ قيمة لا تنفع⁽⁴⁾
والرقية بنظرهم تستعمل لأغراض شتى كأن يُرقى الذي لدغته أفعى .

يقول بشر بن أبي خازم الأسدي :

لقد دافعت علقمة بن عمرو تجاه الباب مجتمّع الخصوم
ومسعودا ، وأرقم لم أضيّع وإذ أرقيهما كرقسي السليم⁽⁵⁾

والإصابة بالعين معتقد قديم حديث ، وكثيراً ما نسمع عن انسان في مجتمعنا الحاضر ، يرمي الحيوان بنظرته إليه .

الطيرة :

إن للطيرة شأن كبير في حياة الجاهليين ، وهي على رأي علماء الأخبار :

(1) جواد علي 6 / 746 .

(2) مفضليات ص 300

(3) لسان العرب 5 / 227

(4) نفس المصدر ص 422

(5) الديوان ص 217

زجر الطيور ومراقبة حركاتها ، فإن تيامنت دل ذلك على الفأل ، وإن تياسرت دل على شؤم⁽¹⁾ . ولكنها فيما بعد خصصت بالتشاؤم . وقد عدَّ العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد ، كما قيل لمن يزجر الطير (زاجر) ، « لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة »⁽²⁾ والعرب من شأنها عيافة الطير وزجرها ، والتطير ببارحها ونعيق غرابها⁽³⁾ .

ولعلَّ للتطير صلة بعقيدة استحالة الأرواح طيوراً بعد مفارقة الأبدان ، وهذه العقيدة شملت أكثر الشعوب القديمة ، فأمنوا بأن بعض فضائل الطيور هي أرواح الموتى ، ومن المرجح أن يكون عرب الجاهلية من ضمن هذه الشعوب . وقد توالى ، هذه العقيدة ، من الجاهليين وترسخت على مدَّ العصور حتى يومنا هذا ، فمن زاعم ، فقد إنساناً ، يرى فراشة تحوم في منزله بعد دفن الميت ، فيدعي إنها روح نسيبه فيأمر بعدم أذيها .

لقد جاء في كتب الأخبار ، أن عكرمة قال : « كنا جلوساً عند ابن عمرو وابن عباس فمرَّ طائر يصيح ، فقال رجال من القوم : خير خير . فقال ابن عباس : لا خير ولا شر . قال كعب لابن عباس : ما تقول في الطيرة ؟ قال : وما عسيت أن أقول فيهم : لا طير إلا طير الله ولا خير إلا خير الله ، ولا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال كعب : إن هذه الكلمات في كتاب الله المنزل . يعني التوراة⁽⁴⁾ .

(1) لسان العرب 4 / 510 وما بعدها صادر .

(2) نفس المصدر .

(3) نفس المصدر .

(4) ابن قتيبة - عيون الأخبار - كتاب الحرب ، دار الفكر / بيروت / 1955 ص 42

ومن الألفاظ المستعملة في الزجر عند الجاهليين (السانح)
(البارح) (١) يقول عوف بن عطية في ذلك :

نَوْمُ البلاد حُبُّ اللِّقاءِ ولا تَتَّقِي طائِرا حيث طارا
سَنِيحاً ولا جَارِياً بارحاً على كل حال نلاقِي اليسار (٢)

نفهم من ذلك أنهم كانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح من الطير وربما
صدّهم هذا التطير عن تحقيق مقاصدهم كرحلة يقومون بها أو غارة يغيرونها .

ومن الطيور التي تطيروا منها : الغراب ، وطيور الليل : كالخفاش
والبومة والهامة والوطواط (٣) . وسُمي الغراب بغراب البين لأنه يحتم بالفراق (٤)
وربما دعاه بعضهم بالأبقع ؛ يقول عنتره :

ظَفَنَ الذين فراقهم أَتَوَقَّعُ وجَرى بينهمُ الغرابُ الأبقعُ
حَرَقُ الجناحِ كأنَّ لَحيئُ رأسِهِ جَلَمَانِ ، بالأخبارِ هَشٌّ مُولِعٌ (٥)

إن عنتره يتطير من هذا الغراب ، فهو غراب بين وأبقع ، وحرق
الجناح ، يأتيك بأخبار السوء . فيزجره قائلاً :

فزجرئهِ أَلَا يُفَرِّخُ عَشَّهُ أبدا وَيُصْبِحُ واحِداً يَتَفَجَّعُ (٦)

(1) السانح ما أتى عن اليمين من الطير عند بعضهم وعن اليسار عند البعض الآخر ، والبارح ضده .
مفضليات ص 415

(2) نفس المصدر 415

(3) جواد علي 6 / 791 عن الحيوان (2 / 298) هارون .

(4) لسان العرب 13 / 63 صادر .

(5) الديوان ص 113 .

(6) نفس المصدر

وفي الاعتقاد بتفريق الطير للأحبة وأبعادهم ، يقول المعلوط :
تغنى الطائران ببين سلمى على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانست سليمى وفي الغرب اغتراباً غير دان⁽¹⁾
وأشام الطيور عند الجاهليين الغراب . وفي الغراب وشؤمه يقول علقمة
بن عبدة :

ومن تعرض للغربان يزجرها على سلامته لا بد مشؤوم⁽²⁾
ويقول الأعشى :

ما تعيف اليوم في الطير الروح من غراب البين أو تيس برح⁽³⁾
وإذا لم يتعيف العربي ويزجر الطائر بغزوته لا بد أنه مهزوم ، وهذا
ما عناه عبید بن الأبرص بقوله :

أثبتت أن بني جديلة أو عبوا ثغراء من سلمى لنا وتكتبوا
ولقد جرى لهم فلم يتعيفوا تيس⁽⁴⁾ قعيد كالوليّة أعضب
وأبوا الفراخ⁽⁵⁾ على خشاش هشيمة متنكباً إبط الشماثل ينعب

ويتابع عبید فيصف إسراع بني جديلة لقتالهم فيقول
طعنوا برأى الوشيح فما ترى خلف الأسنة غير عرق يشخب⁽⁶⁾

(1) عيون الأخبار ص 45

(2) مفضليات ص 401

(3) ديوان الأعشى ص 38

(4) يتشاءمون من التيس أيضاً .

(5) هو الغراب .

(6) ديوان عبید . دار بيروت . ص 31، 32

ولعلَّ الشاعر قد زعم بأن بني جديلة قد خسروا الحرب لأنهم لم
يسنحوا (أبا الفراخ) ويسكتوا نعيه .

ويقول عبّيد أيضاً ناعثاً (الغراب) بطير الأشائم :
ولقد شيننا بالجفسار لدارم نارا بهما طير الأشائم يَنْعَبُ(1)

كما يعرف من نعيه أن يوم فراق الأحبة ، هو غد ، فيقول :
زعم الأحبة أن رحلتنا غداً ، وبذاك خبّرنا الغداف الأسود(2)
وهذا القول يقرب من قول النابغة الذبياني الذي يسمي الغربان
بالبوارح فيقول :

زغم البوارح أن رحلتنا غداً ، وبذاك خبّرنا الغداف الأسود(3)

وقد ورد ذكر الغراب في الكتاب المقدس في أكثر من موضع ، واعتبره
اليهود نجساً وحرّموا أكل لحمه(4) فهو ينهش الجثث ويسكن الأماكن
الخربة(5) . ويذهب ولا يعود ، كما فعل عندما أرسله نوح لاستكشاف اليابسة
بعد الطوفان(6) .

ومن تطيّر من الغراب من عرب الجاهلية أمية بن أبي الصلت الذي
كان يشرب مع اخوان له في قصر (عيلان) بالطائف ، إذ حطّ غراب على شرفة
القصر ونعب نعبه ، فقال أمية « بفيك الكثكث » أي التراب وتشاءم منه ،

(1) نفس المصدر ص 34

(2) نفس المصدر ص 59

(3) ديوان النابغة . المؤسسة العربية / بيروت / ص 38

(4) الكتاب المقدس سفر لاويين 11: 15

(5) نفس المصدر . أشعياء 34: 11

(6) نفس المصدر تك . 8: 7

وقال لأصحابه : إنه يقول : إذا شربت الكأس التي بيدك متاً . وقد مات في مكانه بعد نعيه مرة أخرى (١) .

أما البوم فهي من الطيور المشؤومة بنظر العرب . والبومة كما هو ملاحظ أكثر ما تطير في الليل و « تصوت » ، والليل هو رمز الخوف والشر . ومن أنواعها الصدى والهامة (٢) . والهامة رأس كل شيء من الروحانيين ، والروحانيون كما يفسرهم ابن شميل : هم الملائكة والجن التي ليس لها أجسام تُرى . وما عتقده العرب أن روح القتيل الذي لم يُدرك بثأره تصير هامة وتصيح عند قبره : اسقوني اسقوني ! ومتى أدرك بثأره طارت (٣) . وفي هذا المعنى يقول ذو الاصبغ العدواني :

يا عمرو، إن لا تدع شتمي ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني (٤)

وقد جاء في الحديث عن الرسول : لا عدو ولا هامة ولا صقر (٥) .

أما الصدى فهو الطائر الذي يخرج من هامة الميت (٦) وقد نفى الاسلام ذلك ونهى عنه . أنشد أبو عبيدة في ذكر الصدى والهامة

سُلط الموت والمنسون عليهم فلهم في صدى المقابر هام (٧)

(١) الأغاني 3 / 192

(٢) لسان العرب 12 / 624 صادر مادة (موم) .

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ص 624

(٦) نفس المصدر

(٧) نفس المصدر ص 624

(٨) لسان العرب 12 / 625 صادر

ويقول لبيد العامري :

فليس الناسُ بعدك في نقير ولا هم غيرُ أصداء وهام⁽¹⁾

ومما يدلنا على أن الطيرة عبادة عند الجاهليين ما جاء في الحديث الشريف
أن « الطيرة شرك . ولكن الله يذهب بالتوكل »⁽²⁾ .

وخلاصة ما تقدم أن العرب في جاهليتهم كما آمنوا بالجان ارواحاً
تتقمص صورة انسان أو حيوان كذلك آمنوا بأرواح خفية تدخل في عالم
الطيور منها الخيرة ومنها الشريرة فتفاءلوا ببعضها وتشاءموا بالبعض الآخر .

(1) ديوان لبيد . ص 203 صادر

(2) اللسان 10 / 450 صادر مادة (شرك) .

فهرس المصادر والمراجع

أ - الدينية :

- 1 - القرآن الكريم .
 - 2 - تفسير الامامين الجليلين (جلال الدين محمد بن أحمد المحلى ، و جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي) - المكتبة الشعبية .
 - 3 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضع محمد فؤاد عبد الباقي - دار احياء التراث العربي - بيروت - عن دار الكتب المصرية 1945 .
 - 4 - الكتاب المقدس ، العهد القديم والعهد الجديد .
 - 5 - الكتاب المقدس ، العهد القديم والعهد الجديد تحقيق .
- J.J. Little et Ives. co. NEW York N.Y. 1962.
- 6 - قاموس الكتاب المقدس - وضع نخبة من الاساتذة اللاهوتيين - صدر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى - الطبعة الثانية - بيروت 1971 .
- ### ب - الأدبية والتاريخية والحضارية .

- 7 - الأزرقى (ابو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد) ، اخبار مكة - تحقيق رشدي الصالح ملحق - دار الأندلس - مطابع ماتيوكرومو - بنتو - مدريد - اسبانيا .
- 8 - الأسد ، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية - الطبعة الرابعة - دار المعارف - مصر 1969 .
- 9 - الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب) - الأصنام - تحقيق أحمد زكي - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة 1965 - عن طبعة دار الكتب المصرية 1924 .

- 10 - أمين ، أحمد ، - فجر الاسلام - الطبعة العاشرة - دار الكتاب العربي - بيروت - 1969 .
- 11 - البني ، عدنان - تدمر والتدمريون ، في ضوء المكتشفات الأثرية - دمشق 1977 .
- 12 - البستاني (بطرس) - دائرة المعارف .
- 13 - الزبيدي - تاج العروس .
- 14 - الطبري (محمد بن جرير) - تاريخ الرسل والملوك - الطبعة الثانية دار المعارف - مصر .
- 15 - الطبري (محمد بن جرير) - تفسير الطبري - الطبعة الثانية - طبعة بولاق 1956 .
- 16 - الزركلي (خير الدين) - الاعلام - دار العلم للملايين - بيروت .
- 17 - الأفغاني (سعيد) اسواق العرب في الجاهلية والاسلام - الطبعة الثالثة دار الفكر - بيروت - 1974 .
- 18 - القالي البغدادي (ابو اسماعيل القاسم) - ذيل الأمالي والنوادر - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .
- 19 - الأصمعي (ابو سعيد عبد الملك بن عبد الملك) - الأصمعيات - تحقيق شاکر وهارون الطبعة الثانية - دار المعارف - مصر - 1964 .
- 20 - الشكعة (مصطفى) - الشعر والشعراء في العصر الجاهلي - دار القلم - بيروت .
- 21 - السيد السابق - فقه السنة - دار الكتاب العربي - بيروت .
- 22 - القلقشندي (ابو العباس احمد بن علي) - صبح الأعشى في صناعة الانشا المؤسسة المصرية العامة .

- 23 - ابن حزم (ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي) - جهرة انساب العرب - تحقيق عبد السلام محمد هارون - الطبعة الرابعة - دار المعارف مصر - 1961 .
- 24 - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربي) - المقدمة - الطبعة الأولى - دار القلم بيروت 1978 .
- 25 - ابن رشيقي (ابو علي الحسن ، القيرواني ، الأزدي) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - الطبعة الرابعة - دار الجيل بيروت 1972 .
- 26 - ابن الأثير - الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي - بيروت .
- 27 - ابن عبد ربه (ابو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) . العقد الفريد - تحقيق أحمد أمين والزين ، والأبياري - الطبعة الثانية - دار الكتاب العربي - بيروت - عن مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1962 .
- 28 - ابن قتيبة (ابو محمد عبدالله بن مسلم) عيون الأخبار - دار الفكر - مكتبة الحياة .
- 29 - ابن قتيبة - المعارف تحقيق ثروت عكاشة - الطبعة الثانية - دار المعارف - مصر 1969 .
- 30 - ابن منظور (ابو الفضل ، جمال الدين ، محمد بن مكرم الافريقي المصري) لسان العرب - دار صادر - بيروت .
- 31 - ابن هشام (ابو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري ، المعافري) - السيرة النبوية تحقيق السقا ، الأبياري ، الشلبي - دار الكنوز الأدبية .
- 32 - الأصبهاني (ابو الفرج ، علي بن الحسين) الأغاني - نشر صلاح يوسف الخليل ودار الفكر للجميع - بيروت 1970 - عن طبعة بولاق الأصلية .
- 33 - الأصبهاني - الأغاني - مؤسسة جمال للطباعة بيروت - عن طبعة دار الكتب المصرية .

- 34 - ابو زيد القرشي (محمد بن أبي الخطّاب) جهرة اشعار العرب - دار بيروت 1978 .
- 35 - الجاحظ (ابو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب) البيان والتبيين - تحقيق فوزي عطوي - دار صعب بيروت .
- 36 - الجاحظ : الحيوان - تحقيق فوزي عطوي - دار صعب بيروت .
- 37 - الجمحي ، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء - دار الفكر للجميع - بيروت .
- 38 - الحموي (شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي) معجم البلدان - دار صادر بيروت 1977 .
- 39 - الحيني (محمد جابر عبد العال) في العقائد والأديان - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1971 .
- 40 - حتي ، فيليب ورفاقه - تاريخ العرب - الطبعة الخامسة - دار غندور - بيروت 1974 .
- 41 - الحوت ، محمود سليم - الميثولوجيا عند العرب - دار النهار للنشر - بيروت 1979 .
- 42 - الخربوطلي ، علي حسني - تاريخ الكعبة - دار الجيل - بيروت 1976 .
- 43 - زيدان ، جرجي - تاريخ آداب اللغة العربية - الطبعة الثانية - دار مكتبة الحياة 1978
- 44 - زيدان ، جرجي العرب قبل الاسلام .
- 45 - سميرنوف ، افغراف - تاريخ الكنيسة المسيحية - الطبعة التاسعة 1911 تحقيق وترجمة الكسندروس مطران حمص وتوابعها للروم الأرثوذكس - مطبعة الفجر - حمص 1964 .
- 46 - سالم ، عبد العزيز - تاريخ العرب في العصر الجاهلي - دار النهضة - بيروت .

- 47 - الشهرستاني (ابو الفتح محمد عبد الكريم ابن أبي بكر أحمد) الملل والنحل - تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل - منشورات مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة 1968 .
- 48 - شيخو ، لويس اليسوعي - النصرانية وآدابها - مطبعة الآباء المرسلين - اليسوعيين بيروت 1926 .
- 49 - شيخو - شعراء النصرانية .
- 50 - شيخو - المشرق - بيروت 1908 .
- 51 - شوقي ، أحمد - الطبعة الثانية - تحقيق فوزي عطوي - دار صعب - بيروت 1973 .
- 52 - صباغ ، ليلي - المرأة في التاريخ العربي قبل الاسلام - منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق 1975 .
- 53 - ضيف ، شوقي - تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي - الطبعة الثالثة دار المعارف - مصر 1976 .
- 54 - علي ، جواد - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - الطبعة الثانية - دار العلم للملايين بيروت - ومكتبة النهضة بغداد 1978 .
- 55 - طيارة ، عفيف عبد الفتاح - اليهود في القرآن الكريم - دار العلم للملايين الطبعة السادسة .
- 56 - قرم ، جورج . تعدد الأديان وانظمة الحكم - دار النهار - بيروت 1979 .
- 57 - لوبون ، غوستاف - حضارة العرب - دار احياء التراث العربي - بيروت 1979 .
- 58 - المبرد (ابو العباس ، محمد بن يزيد النحوي) الكامل - مكتبة المعارف - بيروت .

- 59 - متر ، آدم - الحضارة الاسلامية - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة -
الطبعة الرابعة - مكتبة الخانجي القاهرة - ودار الكتاب العربي بيروت
1967 .
- 60 - مظهر ، سليمان - قصة الديانات - دار الوطن العربي للطباعة والنشر -
بيروت .
- 61 - المسعودي ، (ابو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب
ومعادن الجوهر - طبعة أولى - دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت
1965 .
- 62 - المفضل الضبيّ (ابو عبد الرحمن بن محمد بن يعلى) - المفضليات -
تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون - الطبعة الخامسة - دار
المعارف بمصر 1976 .
- 63 - نعمة ، نهاد توفيق - الجن في الأدب العربي - المطبعة المخلصية - صيدا
1961 .
- 64 - هيكل ، محمد حسين - حياة محمد - الطبعة الثالثة عشر - مكتبة النهضة
المصرية 1968 .
- 65 - ول ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران .
- 66 - يحيى ، لطفي عبد الوهاب - العرب في العصور القديمة - الطبعة الثانية
دار النهضة العربية - بيروت 1979 .
- ج - دواوين الشعر :
- 67 - ديوان الأعشى - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .
- 68 - ديوان امرئ القيس - تحقيق حسن السندوبي - المكتبة التجارية
الكبرى - مصر - ط الخامسة .
- 69 - ديوان امرئ القيس دار صادر - بيروت .

- 70 - امرؤ القيس ، حياته وشعره - تحقيق الطاهر أحمد مكي - دار المعارف مصر - الطبعة الثانية 1970 .
- 71 - ديوان أوس بن حجر - تحقيق محمد يوسف نجم - دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية .
- 72 - ديوان النابغة الذبياني - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت .
- 73 - ديوان الحطيئة الذبياني - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت .
- 74 - ديوان أمية بن أبي الصلت . تحقيق بهجة عبد الغفور الحديشي - مطبعة العاني - بغداد 1975 .
- 75 - ديوان الخنساء - المكتبة الثقافية - بيروت .
- 76 - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري - دار احياء التراث العربي - بيروت - شرح محمد عزت نصرالله .
- 77 - ديوان حاتم الطائي ، دار بيروت 1974 .
- 78 - ديوان زهير بن أبي سلمى - صنعة الأعلم الشتمري - تحقيق فخر الدين قباوة - المكتبة العربية بحلب .
- 79 - ديوان طرفة بن العبد - المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت .
- 80 - ديوان عبيد بن الأبرص - دار بيروت - 1979 .
- 81 - ديوانا عروة بن الورد والسموأل - دار صادر - بيروت .
- 82 - ديوان عنترة - مكتبة كرم - دمشق ودار الكاتب العربي - بيروت ودار صعب وصادر بيروت .
- 83 - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - دار بيروت 1980 .
- 84 - ديوان قيس بن الخطيم - تحقيق ناصر الدين الأسد - الطبعة الثانية - دار صادر - بيروت 1967 .
- 85 - ديوان لبيد بن ربيعة العامري - دار صادر - بيروت .

- 86 - شرح المعلقات السبع - الزوزني - دار الجليل - بيروت - الطبعة الثانية 1972 .
- 87 - المعلقات العشر - تحقيق فوزي عطوي - الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت 1969 .
- 88 - ديوان عروة بن الورد - دار صادر - بيروت .
- 89 - ديوان بشر بن ابي خازم الاسدي - الطبعة الثانية - منشورات وزارة الثقافة - دمشق .
- 90 - ديوان الخطيئة - المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

هذا الكتاب

هذا الكتاب محاولة لفهم الواقع الديني الذي كان عليه الإنسان في الجاهلية ، ونظرة ذلك الإنسان إلى الكون والحياة . لقد عرف ذلك الإنسان أشكالاً وطرائق متنوعة ومتباينة في عبادته ، سواء عبادات الوثنيين وعباد النجوم والصابئة ، وهي ألوان من العبادة تفسر علاقة الإنسان الجاهلي بالوجود .

ومؤلف الكتاب ، الأب جرجس داود ، أقدم على جمع وتنسيق ودراسة تلك العبادات ، على نحو تاريخي وموضوعي منتظم في نهج من التأليف العملي المتميز .

وبعد ، يكشف هذا الكتاب عن فترة تاريخية بأسلوب عقلاني هادف إلى كشف المزيد من المعارف وأنماط الحياة والتفكير التي انبثقت منها عبادات الانسان الجاهلي ، وأثر الاديان السماوية المقدسة على تطور الشعوب من العصر الجاهلي لغاية حاضرتنا .

لنشر